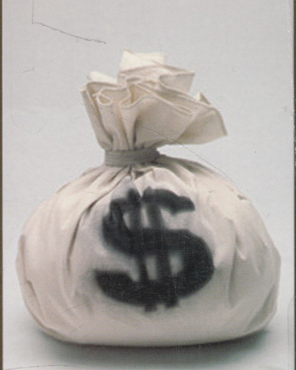
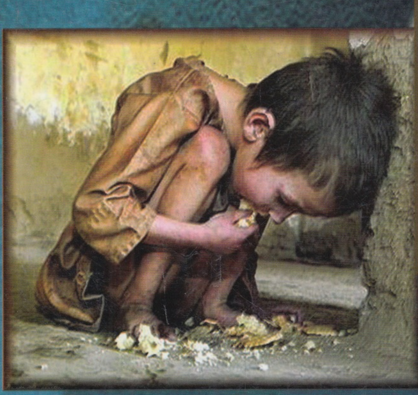
نظرية
الطبقة المترفة
الجزء الأول

الأغنياء والفقراء



أعداء فى وطن واحد



دكتور
محمد عبد السلام عويضة

نظرية

الطبقة المترفة

الجزء الأول

الأغنياء والفقراء

أعداء في وطن واحد

الدكتـــور محمد عبد السلام عويضة

نظرية الطبقة المترفة
الجزء الأول ..
الأغنياء والفقراء ... أعداء في وطن واحد
الدكتـور محمد عبد السلام عويضة
قسم الإقتصاد . كلية الزراعة . جامعة المنصورة
محاضرات في الإقتصاد السياسي لطلاب الدراسات العليا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾

[الإسراء : ١٦]

المحتويـــــات

رقم الصفحة

***

مقدمـــــة

من المعروف لكل من يقرأ أيات الكتاب أن الترف سلوك مدان ينم عن التبذير والسفة ، وهو ظاهرة إجتماعية أدانتها الكتب السماوية ، كما أنه أيضا ظاهرة تاريخية يفرزها كل مجتمع طبقي تـسلب فيـه الأقلية ناتج عمل الأغلبية ، فالمترفون طفيليون ومبذرون بالطبيعـة لكونهم يعيشون عالة علي ناتج عمل الشغيلة . ومن قبل قال تعـالي في محكم التنزيل : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْـوَانَ الـشَّيَاطِينِ وَكَـانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورا ﴾ (الإسراء : ٢٧)

ولأهمية هذه القضية ..

رأينا أن نتناولها بالبحث والدراسة بغرض الإسهام في تأسـيس نظرية تُفسر نشوء وارتقاء الطبقة المترفة في البلدان المتخلفة مـع رصد وتحليل صورها في مصر المعاصرة .وسعينا إلى نشر نتـائج هذا المشروع البحثي في ثلاثة أجزاء :

- الجزء الأول : معنـي برصـد وتفـسير الـسلوك العـدواني للمترفين ، وتصنيف مقولات الفلاسفة وعلماء الإقتصاد مـن حيث تحيزهم مع ، أو ضد , كلا من الأغنياء والفقراء .
- الجزء الثاني : معني بالكشف عن أساليب رجال الأعمال فـي توليد الدخل ونهب الثروات ، وبيان دور الدولة كـأداة بيـد هؤلاء لقهر الفقراء .

- الجزء الثالث : معني بفضح ظاهرة زواج المتعة بين الثـروة والسلطة فى مصر المعاصرة ، وهو بحث تطبيقي ، يبـرهن علي أن العدوان سمة ملازمة للطبقة المترفة فى جميع البلدان ، إلا أن هذا العدوان يكتسب سمات خاصة في كل بلـد علـي حدة ، سمات تعكس درجة التطور الإقتـصادي والإجتمـاعي والسياسي لهذا البلد عبر الزمن في كل مرحلة.

وعليـه ..

فإن مهمتنا الأساسية في كتابنا الحالي هي تقديم الأدلة والبراهين، واستعراض شهادة الشهود من العلماء والمفكرين ، التي تدين سفة المترفين . ولإنجاز تلك المهمة توصلنا إلي تعريف محـدد لـبعض المصطلحات والمفاهيم التي تساعدنا علي أن نحدد من البداية مـن نتهم ومن ندين ومن نقصد يقينا بالمترفين . أي تساعدنا علـي أن نحدد بدقة إلي من نشير بأصـابع الاتهـام . وعلـي مـن نطلـق الرصاص. غير أنه من حسن حظهم وحظنـا أن رصـاص أقلامنـا مشحون بالكلمات والحروف لا بالذخيرة والبارود .

فنحن وهم ، شئنا أم أبينا طرفي صراع ، نحـن الفقـراء وهـم الأغنياء ، نحن المحكومين وهم الحكام ، كيف لا وتلك هي طبيعـة الأمور ، فمن يعيشون في الكفور هم أعداء طبقيون لمن يعيشون في القصور ، وتلك حقيقة وأقعة من حقائق الحياة علي مر العـصور ،

وليست مجرد فرض نظري قابل للأخذ والعطاء . فالصراع الطبقي هو محرك عجلة التاريخ بلا مراء .

وتحقيقا لذلك ..

- نُعرّف الترف : بأنه كل سلوك إنفاقي يوصم بالتبذير والسفة ، ونشدد في تعريفنا على أنه ليس فقط تبديدا للثروات ولكنه أيضا وسيلة من وسائل التباهي بالثراء وإثارة الغيرة وإشعال نار الحسد في المجتمع فالترف يفقد معناه إن لم يجد من يحسده ويشيد بمحاسنه ويتابع خطاه .

- ونُعرّف المترف : بأنه كل من يحصل على دخول ويراكم ثروات تفوق بكثير مساهمته في الانتاج . ويستهلك ما يفوق بكثير حاجته الفعلية من السلع والخدمات . ويسبب بسلوكه أذى كبير للمجتمع وللأفراد .

- ونُعرّف الطبقة المترفة : بأنها صفوة كل مجتمع طبقي . بمعنى أنها صفوة كل الطبقات والقوي الإجتماعية . وتضم في عضويتها كل من يحصل على دخول قدرية . دون أن يبذل جهدا انتاجيا . وأفرادها . وإن تباينوا فيما يمارسونه من مهن وما يقومون به من أعمال . إلا أنهم يمتلكون من الثروات ما يمكنهم من العيش في بذخ دون أن تختل موازينهم المالية ، وهم وإن اختلفوا في أصولهم الإجتماعية إلا أن ثرواتهم – مع ضخامتها – مشكوك في شرعيتها.

***

والمترفون ، ليسوا ظاهرة عارضة في الحياة الإجتماعية ، ولكنهم ظاهرة أصلية تعبر عن نفسها بصور شتي تتناسب مع ما تبلغة المجتمعات من تطور عبر الزمن . فهم كانوا في الحياة البدائية ، كما هم في عصرنا ، يمثلون النخبة المميزة ، الأقوي سطوة والأكثر ثروة والأشد بغيا . وفي مسيرة الحياة اكتسبوا سمات جديدة تختلف باختلاف نمط الإنتاج السائد في كل مرحلة تاريخية ، فكل نمط إنتاجي يفرز طبقة مترفة تناسبة . فالتاريخ كله ليس إلا تغيرا مستمرا في الطبائع البشرية .

فهم الأقوي جسدا والأشد بأسا والأشرس عدوانا في الحياة البدائية ، وهم السادة في عصر العبودية ، وهم الملوك والأمراء والنبلاء والكهان في عصر الإقطاع ، وهم البرجوازيون والتجار ورجال المال في عصر الرأسمالية ، وهم البيروقراطيون والحزبيون والساسة في عصر الشيوعية ، وهم خليط من كل هؤلاء في البلدان المتخلفة والنظم الشمولية .

ففي البلدان المتخلفة ، حيث تتعدد أنماط الإنتاج ، وتتنوع صور الحياة ، فإن صور المترفين تتعدد وتتنوع أيضا . وهم وإن إختلفوا في النشأة إلا أنهم يستحوذون علي خيرات المجتمع دون أن يخلقوا له منافع أو ينتجوا له سلعا مادية ، غير أنهم كثيرا ما يحدثون جلبة دون طحن ، وينفقون أموالهم في تبذير وسفة ، ويعيشون حياتهم

في رخاء وترف ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (آل عمران: ١٩٦)

وهؤلاء المترفون هم الذين سبق وأن عرفهم الفيلسوف الأمريكي ثورشتاين فبلن ، بأنهم من ذوي الأملاك الذين لا يؤدون عملا منتجا، ولذا فإن علاقاتهم بالعملية الأقتصادية هي علاقة مالية : علاقة حيازة لا علاقة إنتاج ، علاقة إستغلال لا علاقة خدمة .

فأنشطتهم ذات طبيعة طفيلية . ومن طبعهم الإفتراس ومن طبيعتهم إنتهاز الفرص واستغلال النفوذ وتوجية كل شئ ، يستطيعون توجيهة، لخدمة مصالحهم الخاصة وحماية كل ما تطوله أيديهم من ثروة . وقد اشتقت تقاليدهم وثقافتهم منذ أمد بعيد من الثقافة العدوانية الموروثة عن الحياة البربرية والحضارة الحجرية .

فثقافة الترف بطبيعتها ثقافة متعالية تتجلي عندما يتولد لدي المترفين شعور دفين بأنهم من الأوابين وأن ما ينعمون به من رخاء وجاه وعلو المقام هو مكافأة ربانية لهم علي جدهم واجتهادهم في الحياة . وهذا في الحقيقة شعور كاذب وادعاء ماكر . لأن الحقيقة كل الحقيقة هي أن ما يجوزنه من سلطة وما يسلبونه من ثروة ليس دليل بأي حال من الأحوال علي الصلاح ورضا الإله، وإنما هو دليل مادي وبرهان قاطع علي فساد النظام ، فكل نظام يستبد فية الحاكم بالمحكوم وتتسع فية الهوة بين الطبقات هو نظام فاسد وظالم يتعارض مع المبادئ والقيم والأخلاق ومُقدر له الزوال .

ففي النشاط الإقتصادي ، لم يحدث قط أن حصل شخص ما علي ثروة طائلة بعمله وكفاحه وعرقه منفردا ، فالعمل يولد دخل ولا يراكم ثروة . فالثورة الطائلة . إما أن يكون مالكوها قد حصلوا عليها بسلب فائض قيمة عمل الشغيلة ، أو باستغلال الرعية ، أو آلة إليهم بصدفة الميلاد ميراثا عن أسلافهم من بارونات اللصوص. وما علي الإنسان العادي ، إلا أن يدير رأسة قليلا ويتمعن في أحوال الناس كثيرا ليتأكد بنفسة من صدق هذه المقولة.

وذلك من طبيعة الأشياء ..

لأن الثراء لا يهبط علي الناس من علياء السماء . وأن الغني والفقر ظواهر إجتماعية لا نوازل قدرية . فالسماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، ولا تغضب علي بعض الناس فتجازيهم بالفقر . ولا ترضي عن غيرهم فتكافئهم بالثراء . وكنوز سليمان ما زالت مخبوءة في مكامنها لم يعثر عليها بعد إنسي قط ولا جان . فهي محفوظة في سراديب خفية يحرسها عشتروت (إله الخوف) وميلوخ (إله النار).

* * *

وفي مجال التعريف أيضا ، يقول فضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر بأن الترف : " هو التنعم وبطر النعمة والتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها ، وتروس نزعات الشر فيها وإظهار الطغيان بها " .

وقد ظهرت مشتقات الترف في مواضع عديدة من القرآن الكريم مرتبطة في جميع حالاتها بالكفر والبطر والفسق ونكران النعمة والاجتراء علي الحق وخراب الذمة ، ومن قبل قال تعالي في محكم أيات الكتاب : ﴿ وما أرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (سبأ: ٣٤).

ومثل هؤلاء المترفين في عصرنا كمثل الكهنة ، والكتبة ، والفريسيين في عصر بني إسرائيل ، الذين وصفهم نبي الله سيدنا عيسى المسيح بالرياء قائلا : " إنهم يحزمون أحمالا ثقيلة ، عثرة الحمل ، ويضعونها علي أكتاف الناس .. وهم لا يريدون أن يحركوها باصبعهم .." ، " وكل أعمالهم يعملونها لكي ينظرهم الناس .. فيعرضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم .. ويحبون المتكأ الأول في الولائم ... والمجالس الأولي في المجامع .. والتحيات في الأسواق .. وأن يدعوهم الناس سيدي .. سيدي ..!!".

هؤلاء هم الذين كان السيد المسيح قد أنذرهم بالويل والثبور وعظائم الأمور قائلا لهم :" ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون، لأنكم تأكلون قوت الأرامل ، ولعلة تطليون صلواتكم .. لذلك تأخذون دينونة أعظم .. (وتخسرون الأبدية)" .

وحينما سألة أحد المترفين :" ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ..؟" قال له السيد المسيح :" لاترن .. لاتقتل .. لاتسرق .. لاتشهد الزور .. لاتسلب .. أكرام أباك وأمك " ، قال الغني :" يامُعَلِمْ ، هذه كلها

حفظتها عن ظهر قلب منذ حداثتي " ، فأجابة السيد المسيح :" يعوذك شئ واحد .. اذهب بع مالك ، واعط الفقراء . واتبعني " ، فلم يستطع الغني .. فمضي المسيح حزينا وقال قولته المدوية التي اصبحت مثلا تردده الألسن وتتوارثه الأجيال :" إن دخول جمل من ثقب إبرة ..أيسر من دخول الأغنياء ملكوت السماوات ".

وهؤلاء في بغيهم لا يعيشون حياتهم المترفة بمعزل عن سائر طبقات المجتمع . فيوجد الي جانبهم المعدمين والفقراء والمهمشين وأبناء الطبقة الوسطي . والصراع بين أولئك وهؤلاء دائر لا يتوقف. والتنافس بينهم – علي حيازة الثروة والسلطة – سجال لا يهدأ أبد الدهر . فكلما ازداد المترفون ثراء ، ازداد الآخرون بؤسا وشقاءا . ولأن الأثرياء هم الأقلية ، والفقراء هم الأغلبية . فان أفراد الجماعة الأولي (الأثرياء) في سبيل تحقيق غاياتهم والوصول الي أهدافهم وبلوغ مأربهم ، يسلكون في الحياة مسلكين ، يعزز كل منهما الآخر:

- فهم في المسلك الأول ، يأخذون الناس بالقوة ويقهرونهم بسلطة الدولة .
- فهم في المسلك الثاني ، يزيفون وعيهم ويهينونهم للرضي بما هم فيه من فقر والاستكانة لما هم علية من بؤس .

فالقوة والخداع وتزييف الوعي هي أسلحة الطبقة المترفة للسيطرة علي باقي طبقات المجتمع . ومن قبل قال تعالي في محكم

آيات الكتاب : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (البقرة : ٩:١٠)

***

ونحن في هذه الدراسة ... نهدف – منذ البداية – إلي الكشف عن السلوك العدواني للطبقة المترفة ورصد خصائصها ، وفضح مفاسدها, وبيان ألاعيبها المالية ومناوراتها السياسية، وإظهار علاقاتها الممتدة، ومصالحها المتشابكة ، وتحليل التناقضات القائمة بينها وبين غرمائها : أي بين الأغنياء والفقراء، الحكام و المحكومين ، الذين يعيشون في ترف والمعدمين .

ولتحقيق أهدافنا , وبلوغ غاياتنا نخطو في دراستنا مسلحين بوصايا سيدنا عيسي المسيح لحوارييه : " ها أنذا أرسلكم غنم في وسط الذئاب ... فكونوا حكماء كالحيات .... وبسطاء كالحمام .." ونسعي – في النهاية – إلي التبشير برؤية شاملة تسهم في بناء مستقبل مشرق " ينعم فيه الناس جميعا بالحرية ... والإخاء .. والمساواة راجين أن نوقد شمعة تنير طريق أحفادنا والأجيال التالية لنا معلنين ما يجيش في صدورنا , متآسين بحكمة سيدنا عيسي المسيح : " ليس أحد يوقد سراجا , ويغطيه بإناء , ويضعه تحت سرير .. بل يضعه علي منارة , لينظر الداخلون النور ... !! "

ونحن – في مسعانا – قد نخطئ وقد نصيب ، قد نحوز النصر أو تحيق بنا الهزيمة .. لكننا لا نكف عن المحاولة . ونحن في

محاولاتنا – ومهما قست عذاباتنا واشتدت آلامنا – لنا في مقولة سيدنا عيسي المسيح هاديا ومرشدا : " كن لربك كالحمام الألوف لأهله ... تذبح فراخه .. ولا يطير عنهم " .

***

ويعود الفضل الأول في إعداد هذه الدراسة إلي قراءتي لكتاب " نظرية الطبقة المترفة " The Theory of leisure class للاقتصادي الأمريكي ثورشتاين فبلن ، المنشور عام ١٨٩٨ ، والذي ترجمه إلي العربية محمود محمد موسي ضمن سلسلة من الفكر السياسي والإشتراكي .

غير أن كتابنا الحالي يختلف في مضمونه وفحواه عن كتاب فبلن بسبب إختلاف الواقع الإجتماعي الذي عاش فيه هو عن الواقع الإجتماعي الذي نعيش فيه نحن .

- فلأن فبلن نشر كتابه في العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، وعاش في ظل نظام صناعي رأسمالي متقدم ... نظام ليبرالي وديمقراطي ، فقد انصب اهتمامه علي رصد وتفسير السلوك الترفي للعاطلين بالوراثة من القطط السمان الذين يستهلكون كثيرا ولا ينتجون علي الإطلاق . وإنما يعيشون علي ريع ما يملكون من عقارات وأسهم وسندات .

• أما نحن فلأننا ننشر كتابنا في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين ، ونعيش في واقع إجتماعي متخلف ، ونظـام سياسـي شمولي ، وفضاء فكري تعشش فيه الأشباح والخرافـات وأشـرار الجان ، فقد إنصب إهتمامنا علي كشف التحالف المدان بين رجـال السلطة ورجال المال ، وإظهار أن ما بينهم من تحالف ليس إلا زواج متعة ترفضه مبادئ الأخلاق.. و يندى له الجبين.. وتحرمه شـرائع السماء . وإلي جانب ذلك ، سوف نسعي إلي تقديم الأدلة والبراهين علي أن المترفين ليسوا إلا أفاقين وفاسدين ومفـسدين ولـصوص ولئام ومصاصي دماء يرتكبون أفظع الجرائم وأبشع الشرور في حق الجماعات والأمم والشعوب ويستحقون جزاء ذلك الحكم بالإعدام .

وليس في ذلك أي مبالغة علي الإطلاق ...

فمن يتصفح سجلات التاريخ سوف يلاحظ أنه لم تقـم أى ثـورة شعبية إلا وصادرت أملاك المترفين وقطعت رؤوسهم بالمقـصلة أو علقتهم علي أعواد المشانق أو غيبتهم سنين وراء سنين في غياهب السجون ذات الأبواب الموصودة . حدث ذلك في الثورات الفرنـسية والروسية والصينية وثورة الشيعة في جمهورية إيران الإسلامية .

***

وعلى وجه الخصوص ..

فإن ما إستفزنا وأثار فضولنا لإعداد هذا الكتاب هو ما نراه حولنا الآن من مظاهر فساد رجال السلطة ورجال المال ومن والاهم من المثقفين الأنتهازيين والفقهاء المنافقين، فساد يزكم الأنوف ويحير العقول ويدمي القلوب التي في الصدور .

فمن المشاهد لكل مراقب ..

أن المثقفين الانتهازيين و فقهاء السلطة أذناب الطغاة مع أنهم لا يملون الكلام ليل نهار عن المبادئ والقيم والأخلاق إلا انهم لا يطبقون ذلك أبداً على ظلم الحكام وفساد رجال الأعمال. فهؤلاء رغم أنهم يرفعون رايات الفضيلة ويعرفون الحق والحقيقة إلا أنهم يسيرون في الحياة مسيرة من يعرفون الحق ويتبعون الباطل. فيسيرون في ركاب الحكام ورجال الأعمال مسيرة التابع للمتبوع . و الخادم للمخدوم ، نظير منافع كثيرة وإكراميات وأجر معلوم.

وأني أعترف هنا ، أنه كثيرا ما يداهمني الأسي والحزن وينتابني اليأس والإكتئاب كلما شاهدت الفضائيات ، وتصفحت الجرائد والمجلات ، ورأيت وسمعت وقرأت أيات من الدجل والشعوذة والنفاق تنساب علي لسان كل من هب ودب - من هؤلاء - دون خجل أو حياء ، وهو ما دفعني دفعا لإعداد هذه الدراسة بغرض فضح السلوك العدواني للطبقة المترفة التى تعيث فساداً في النظم الشمولية والبلدان المتخلفة.

***

وهذه الدراسة التى بين ايدينا تتكون من خمسة فصول :

- في الفصل الاول : سعينا إلي إظهار أن الطبقة المترفة كانت وما زالت موجودة في كل تجمع بشري . وأن الأغنياء والفقراء ، والمترفون والمعدمون ، يظهرون في كل مرحلة تاريخية وهم علي طرفي نقيض أعداء طبيعيون لبعضهم البعض على مر السنين.
- وفي الفصل الثاني : سعينا إلي إظهار أن كل طبقة اجتماعية تفرز صفوة مترفة تناسبها . ومن مجمل هذه الصفوات تتشكل الطبقة المترفة التي يوصم أبنائها بأنهم يحصلون علي دخول ويراكمون ثروات تفوق بكثير مساهماتهم في الانتاج ويبددون ما يفوق بكثير احتياجاتهم الفعلية من السلع والخدمات .
- وفي الفصل الثالث : سعينا الي البرهان علي أن العدوان أساس نشوء وارتقاء الطبقة المترفة على مر الزمن ،وذلك إسترشادا بمفاهيم الدراونية الإجتماعية التي تفيد بأنه من المعتاد أن ترحب الحياة بالأغنياء وتتفاعل بوجودهم وتزدري الفقراء وتتشاءم من صورهم . فالحياة مثلها مثل الطبيعة تفني الضعفاء بينما الأقوياء يكتب لهم البقاء .

- وفي الفصل الرابع : سعينا إلي إظهار السمات التي تميز سلوك الأغنياء عن سلوك الفقراء سواء في ميادين الأنتاج أو في ميادين الإستهلاك والترفيه وخاصة سمتى الفراغ المظهري والاستهلاك السفيه .

- وفي الفصل الأخير: سعينا إلي تقديم الأدلة والبراهين علي انه لا حياد ولا موضوعية في البحوث الاجتماعية ، وأن الفلاسفة والعلماء منهم الخيرون الذين يدافعون عن الفقراء ومنهم الأشرار الذين يدافعون عن الأغنياء ..هؤلاء .. الذين يلعبون في الحياة دور محامي الشيطان فيزيفون وعي الفقراء ويبررون طغيان الأثرياء . وهم الذين تنطبق عليهم أكثر من غيرهم مقولة الفليسوف الألماني المعروف شوبنهور عن القاعدة التي ظلت سارية عبر العصور والتي تقول : إن المفكر المغرور يُغني في العادة أغنية من يشرب نبيذهم ويأكل خبزهم.

***

المنصورة
يونيو ٢٠١٠

الفصل الأول

الأغنيـــــاء والفقـــــراء

(من نير العبودية إلي جحيــم الشيوعية

الفصل الأول

الأغنيــاء والفقــراء

من نير العبودية إلي جحيم الشيوعية

في مسيرة الحياة ، كان هناك دائمــا أغنيــاء وفقــراء، أقويــاء وضعفاء، سادة وعبيد، نبلاء وأقنان، رجال أعمال وعمــال، مــلاك وأجراء، حكام ومحكومين، هؤلاء حظهم الغنى وأولئك قدرهم الفقر. الجماعة الأولى تنعم بالحرية والجماعة الثانية ترسف فى الأغلال . وقديما قال روسو: "إن الغنى الفاحش والفقــر المــدقع متلازمــان وعندما يجتمعان فى مجتمع ما.. تباع الحرية وتــشترى .. يبيعهــا الفقراء ويشتريها الأغنياء".

فجميع المجتمعات الطبقية التى وجدت - علــى مــر التــاريخ - اعتمدت فى تكوينها وحياتها على حكم الأقليــة القــاهرة للأغلبيــة المقهورة، واستغلالها وتشغيلها لمصلحتها. ولذا ، كانت حياة معظم الناس الذين وجدوا حتى الآن علي ظهر الأرض يتمثل فيها الضعف والبؤس والخضوع واليأس.

وهو ما أشار إليه الفيلــسوف الإنجليــزى جــود C.E.M. Joad (١٨٩١-١٩٥٣) فــى كتابــه "الفلــسفة Philosophy" قــائلا: "أن الإنسان قضى حياته -حتى الآن- إما عبداً أو أجيراً أو كما هو الآن

عبداً يتناول أجراً أسبوعياً ، قضاها وهو يجاهد لملء بطون سادته الكسالى المتخمين بالطعام أو حشو جيوبهم بالمال أو وهو يجاهد مع غيره ليقدم لهم المادة الخام التى يغذون بها أطماعهم للمجد والسيطرة والقوة فى صورة جنود ومحاربين يقاتل بعضهم بعضاً بلا رحمة .. ويتساءل عن ماذا كان يدفع الأغلبية لتحمل هذه المعاملة الوحشية من الأقلية حتى اليوم؟!.

ويجيب قائلاً ..

- هناك عامل القوة بطبيعة الحال.. ثم يستدرك قائلاً: أن القوة ليست هى كل شىء.
- وهناك أيضا المشاعر الخلقية التى عبئت منذ القدم لتعزز الباطل فتجعله حقا ، وتضع أصول التربية وسياستها وتشكل مستويات الرأى العام . ومنها ما هو صواب وما هو خطأ . فتجعلها تعمل فى مصلحتها.

ويضيف قائلا..

إن النتيجة المنطقية لكل هذا هو خضوع الأغلبية وقبولها للمعايير التى تعزز سلطة الأقلية الحاكمة. وإذن ، فآراؤنا الخلقية هى نتيجة قوة حكامنا ، ونحن إذن نتحمس لتلك المشاعر الخلقية ، ونقبل هذه المعايير التى نقيم على أساسها الأعمال ، ونضيف بطريقة آلية .. لا للصالح العام ، أى صالح الجماعة ، بل لصالح الطبقة الحاكمة من الجماعة".

وهذا الاتجاه فى التفكير ، كان قد ظهر لأول مرة قبل الميلاد فى بلاد اليونان على لسان تراسيماكس كما ورد فى الجزء الأول من كتاب جمهورية أفلاطون ، حيث يعرف العدالة -وهو يعنى الخلق الاجتماعى- بكونها ، مصلحة الأقوى. وهو ما ترجمه لينين فيما بعد، وطبقه على النظام الرأسمالى - مبينا أن الأخلاق تنعكس فى مجموعة من القواعد والدساتير والأحكام والعواطف والقيم التى تعكس مطالب ومصالح تلك الطبقة المسيطرة من المجتمع. فالعدالة -إذن- ليست فى الحق عدالة مطلقة بل عدالة برجوازية، وأخلاق برجوازية. وفى مواجهتها تكون أيضا عدالة للجماهير وأخلاق للجماهير ومصالح للجماهير المقهورة.

والمبدأ العام السارى فى الحياة - كما يراه ثورشتاين فبلن - هو تمير الطبقة المترفة على غيرها "إذ أن طبيعة الحياة - كما آلت إلينا من عصر الرق - تقضى بأن يكون نعيم الحياة ورخاؤها حقا للطبقة المترفة وحدها ، أما الطبقة الوضيعة المنتجة لا يجب أن تستهلك إلا ما كان ضروريا لبقائها". فمع أن الناس جميعا يمشون على ظاهر الأرض ، إلا أن بعضهم يمضى حياته ملتصقاً بترابها أسيراً لقوانينها، أما البعض الآخر.. فيبدو وكأنه يحلق فى أجواء الفضاء: "فالفقراء البائسون هم ملح الأرض ، أما الأثرياء المترفون فهم عطر السماء".

***

وهذه القضية ، قضية الأثرياء والفقراء ، المترفين والبؤساء ، سوف نسعى لمعالجتها فى هذا الجزء من الكتاب من زاوية التطور التاريخى ، أى من زاوية التحول من نظام اجتماعى اقتصادى إلى آخر عبر الزمن ، ونحن فى هذا المسعى سوف نتسلح بنظرية ماركس "المادية التاريخية" فى فهم هذه العلاقات والروابط دون أى ادعاء مسبق بالحياد العلمي والموضوعية. فالمنهج الذي يتبعه الباحث في فهم وتحليل الظواهر يحدد مقدما اتجاهه الفكري حتي وإن ادعي بغير ذلك.

والمادية التاريخية هى الركن الثالث للماركسية . إلى جانب الاقتصاد السياسى والمادية الجدلية ، وتستهدف دراسة التاريخ الاجتماعى للبشرية وتفسير تطوراته . وتسعى إلى كشف القوانين العامة التى تحكم مساره. وفى سعيها . توصلت إلى أن البشر يصنعون التاريخ أثناء قيامهم بالإنتاج ، وأن الصراع الطبقى هو محرك التاريخ ، وأن تحول المجتمع من حالة إلى أخرى يحدث نتيجة لتطور تدريجي هادئ ذى طابع تراكمى ، وأن هذا التحول يصبح ثوريا عندما تتكثف التناقضات الاجتماعية وتصبح عدائية الطابع. وهذا التحول يكون رهن التطور الحادث فى قوى الإنتاج ، وما تزاوله من تأثير على علاقات الإنتاج ، فهى التى تحكم فى النهاية جميع مظاهر الحياة الاجتماعية بما فيها ، من نظم سياسية ،

وأفكار فلسفية ، وقانونية ، ودينية. وبكلمات ماركس نفسه "إن طرق إنتاج حاجات الحياة المادية تكيف المجرى الاجتماعى والسياسى والروحى للحياة بصفة عامة" . وفى تعليقه على ذلك يقول إنجلز: "تبعا للمفهوم المادى للتاريخ، فإن العامل الحاسم فى التاريخ هو فى النهاية الإنتاج وإعادة الإنتاج فى الحياة الحقيقية" ، أى أن تطور الإنسان الاقتصادى والاجتماعى هو دائما العملية المسيطرة المحددة لمسار التاريخ.

فالمادية التاريخية ، ترى أن العامل الاقتصادي هو العامل الحاكم فى تطور المجتمعات. وفى ضوء هذه الرؤية ، تم التركيز على تطور الإنتاج الاجتماعي باعتباره يتألف من سلسلة كاملة من العناصر ، وهى: موضوع العمل ، وأدوات العمل ، وقوة العمل ، وعلاقات العمل. وهذه العناصر تشكل فى مجملها الأساس الاقتصادي للبنيان الاجتماعي بأكمله.

وموضوع العمل ، هو المادة الأولية التى تصنع منها الأشياء اللازمة لإشباع حاجة الإنسان. وأدوات العمل ، هى كل الأشياء التى يمارس بها الإنسان تأثيره على موضوع العمل بما فيها القوى الميكانيكية والفيزيائية والكيميائية . وهما معا ، موضوع العمل وأدوات العمل ، يؤلفان وسائل الإنتاج . أما قوة العمل، فهى القوة العضلية والذهنية والخبرات المتراكمة لدى الإنسان التى يستخدمها فى عملية الإنتاج . ومن كليهما معا ، وسائل الإنتاج وقوة العمل،

تتشكل قوى الإنتاج التى تعبر عن طبيعة الروابط القائمة بين المجتمع والطبيعة ، فمستوى تطور قوى الإنتاج هو الذى يعكس الدرجة التى وصل إليها الإنسان فى تحويل العالم المحيط به والسيطرة عليه.

والمادية التاريخية ..

- تبرهن أولا على أن الناس وهم ينتجون الخيرات المادية اللازمة لبقائهم أحياء يدخلون فى علاقات اجتماعية Social Relations أساسها موقفهم من ملكية وسائل الانتاج . فعلى أساس شكل هذه الملكية ، تتوقف ، مجمل منظومة العلاقات الانتاجية بما فيها كيفية تنظيم الانتاج ، ومكانة مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية وطرق توزيع الناتج الاجتماعى فيما بينها، وتشير، إلى أن الروابط التى تنشأ بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج تؤلف أسلوب الإنتاج .
- وتبرهن ثانيا على أن طبيعة العلاقات الإنتاجية تتوقف على درجة تطور القوى المنتجة. إذ أن قوى الإنتاج (أدوات الإنتاج) هى التى تفسر علاقات الإنتاج (توزيع القوة الاقتصادية) ، وأن علاقات القوى الاقتصادية تفسر البنية الفوقية (القانونية والحكومية والأيديولوجية)
- وتبرهن ثالثاً على أن التوافق بينهما (أي بين قوي الإنتاج وعلاقات الإنتاج) يعد شرطا ضروريا لتطور الإنتاج. أما عدم

التوافق بينهما ، فيولد تناقضات داخل أسلوب الإنتاج تحتم تطوير علاقات الإنتاج إلى أن تتوافق مع مستوى تطور القوى المنتجة. ولقد عبر ماركس بإيجاز عن هذه الرؤى قائلا: "تؤدى الطاحونة اليدوية إلى مجتمع يسوده الإقطاع، بينما تؤدى الطاحونة البخارية إلى مجتمع يسوده رأس المال".

* * *

والماركسية ، ترى أن أسلوب الإنتاج ، بما يشتمل عليه من قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج ، هو الذى يشكل الأساس الاقتصادي Economic Base لبناء الدولة ويحدد طبيعتها . ولأن قوى الإنتاج تتصف بالديناميكية ، وعلاقات الإنتاج تتصف بالجمود ، فإن تخلف الثانية يعوق تطور الأولى. وهنا تحدث الأزمة . ولأن الدولة تحمى علاقات الإنتاج ، فإن تغيير هذه العلاقات لا يحدث إلا من خلال الثورة الاجتماعية التى تحطم علاقات الإنتاج الرجعية وتبنى علاقات إنتاج جديدة تتوافق مع مستوى التطور الذى بلغته قوى الإنتاج.

وفى غمار التطور الإنساني عرفت البشرية أشكالا متوالية ومتداخلة من أساليب الإنتاج منها المشاعية ، والعبودية ، والإقطاعية، والرأسمالية ، والاشتراكية. وهذه هى التى أطلق عليها مسمى " اللوحة الخماسية "

- ففي المجتمع البدائي ، تكون وسائل الإنتاج ، خاصة الأرض ، مملوكة ملكية مشاعية ويتكون المجتمع من ترابط مجموعة عشائر وعائلات كبيرة ، ويتم التحول نحو مرحلة البربرية

العليا، وفيه يبدأ فجر الحضارة فى الظهور حيث تكون العلاقات الإنتاجية تعاونية.

- وفي مجتمع العبيد ، تكون كل من وسائل الإنتاج و مستخدميها ملكية للآخرين ، لمالكي العبيد ، أي يكون العبيد مملوكين ملكية خاصة أو ملكاً للدولة أو ملكاً للرئيس أو الملك أو الأمير ، ويجري العمل يدويا بواسطة العبيد ، ويحط من قدر العمل. وفيه، تتحلل الروابط المشاعية وتبدأ طبقة التجار وملاك الإقطاعيات في الظهور.

- وفي مجتمع الإقطاع ، تكون الأرض مملوكة ملكية خاصة أو مملوكة للدولة أو للكنيسة أو كهان الأديرة . ويرتبط الفلاحون بالأرض كأقنان لا يمكنهم مغادرتها بمحض إراداتهم ، وتخصص لهم قطع من الأرض لاستعمالهم الشخصي ، مقابل التزامهم بزراعة حقول الملاك . بالإضافة إلى دفع جزء من إنتاج الأرض المخصصة لهم إتاوة إلي الملاك، وفى هذا المجتمع يكون الإنتاج ريفيا ، ويعتمد علي العمل اليدوي ، ويخصص للاكتفاء الذاتي، وفي نهايته يتآكل النظام الإقطاعى من داخله ويتحول الاقتصاد تدريجيا نحو التداول النقدي وتبدأ الرأسمالية فى الظهور.

- وفي المجتمع الرأسمالي ، يجرى الإنتاج من أجل التبادل ، وهو ما يسمي بالإنتاج السلعي، وتعود ملكية وسائل الإنتاج إلي

الرأسماليين. ولا تملك بقية المجتمع ، وهي الأكثرية ، وسـائل إنتاجها الخاصة ، فهم لذلك يشتغلون عمالاً أجـراء أحـراراً ، ويشغلون وسائل الإنتاج التي يملكهـا الرأسـماليون ، الـذين يسعون إلي الأرباح قبل أي شئ آخر وفى هذا المجتمـع تنمـو المدن ، وتتطور الصناعة ، ويتعمـق التنـاقض بـين الطـابع الاجتماعى للعمل والطابع الفردى للملكية. وهو ما يمهد الطريق أمام الاشتراكية .

- وفى المجتمع الاشتراكى ، تعود ملكية وسـائل الإنتـاج إلـي المجتمع كله (ملكية اجتماعية). ويجرى الإنتـاج عـن طريـق المنظمات الممثلة لكل المجتمع ، بتخطيطها وتوجيهها ، تخطيطا وتوجيها مقصودا يفضي إلي إشباع حاجات جميـع أعـضائه ، وفيه يتم حل كل التناقضات الاجتماعية الأساسـية ، وينتهـي التاريخ The End of History، لأن عصر الاشـتراكية سـيمتد للأبد ، وينعم فيه الناس بالخيرات ، من كل حسب طاقته ، ولكل حسب حاجته (وهو حلم نبيل لم يتحقق أبدا طوال التاريخ) .

- أما أسلوب الإنتاج السلعى البسيط ، فيتداخل مع كل هذه الأشكال من أساليب الإنتاج . و فيه تكون وسائل الإنتاج مملوكة ملكيـة خاصة للمنتجين الذين يقومون بأنفسهم و أحياناً مع عـائلاتهم باستعمالها واستبدال منتجاتهم الحرفية مع غيرهم .

وطبقاً للعقيدة الماركسية ذاتها ، فإن أياً من هذه التشكيلات الاجتماعية لا تهلك قبل أن تتطور القوي المنتجة التي تفسح هذه التشكيلة مجالاً كافياً لها . وفي مجرى التطور التاريخي، انقرضت معظم هذه الأشكال تقريباً في البلدان الصناعية المتقدمة وبقيت الرأسمالية و حدها صامدة وقادرة على أن تجدد نفسها .

وفيما يلى استعراض لبعض صور العلاقة بين الأغنياء والفقراء فى مراحل التطور التاريخى بدءا من العبودية وانتهاء بالشيوعية(*).

* * *

(*) راجع كتابنا "الطريق الثالث".

(١) نير العبودية

تعرف دائرة المعارف الفرنسية الرق بأنه حالة الإنسان الذى هو ملك إنسان آخر. ويرى أحمد فؤاد بلبع فى كتابه "مؤسسة الرق" أن الإنسان حينما يقع فى أسر الرق يتحول إلى "شيء" يكون لمالكه عليه مطلق حقوق الملكية شأنه فى ذلك شأن "بهيمة" يمتلكها ، من حقه أن يتصرف فيها بكل أنواع التصرفات ، وأن يستخدمها فى كل أنواع الاستخدامات التى يراها ، بما فى ذلك حق الحياة والموت ، دون أن يسائله فى ذلك عرف أو قانون. كما يكون له حق بيعه أو هبته ، أو الإيصاء به ، أو التخلى عنه ، هذا اذا كان الرقيق ذكراً ، أما اذا كان أنثى فإنه يكون لمالكها عليها -فضلا عن ذلك- الحق فى أن تخدمه وترعاه . وفى أن يعاشرها ويتسرى بها ، بل وأن يرغمها على ممارسة البغاء لتحقيق كسب من ورائها. أما إذا كان غلاما ، فقد كان باستطاعته أن يشتريه خصيا من اسواقه أو أن يأمر بخصائه، وكان فى مقدوره أن يمارس اللواط معه. والرق ظاهرة اجتماعية سادت فى كل الحضارات الغابرة ، ولكنها تجلت بصورتها الكاملة فى الحضارة اليونانية الرومانية القديمة ، فقد تطور الرق فيها إلى "مؤسسة متكاملة" الأركان ، مستقلة الكيان ، لها سلطانها ونفوذها ومسئوليتها وشرائعها، وترسخت جذورها على مر العصور وكانت لها آثار اقتصادية واجتماعية شديدة القسوة على الإنسان ،

وهو ما تجلى فى أوضح بيان فى كل من مصر القديمة والامبراطورية الرومانية قبل الميلاد.

* * *

ففى مصر القديمة ، عاش المصريون عبر تاريخهم الطويل أسرى نظام العبودية المعممة ، الذى يتساوى فيه الناس جميعا فى عبوديتهم للفرعون حاكم مصر ، الملك الإله في ذاك العصر , لدرجة أن القيامة والخلود بعد الممات كانت حكرا مقصوراً على الفرعون والكهنة والأغنياء ومحرمة على عامة الناس . وعندما ثار المصريون على الحكام في ذلك الزمان كانت ثورتهم لأجل أن يكون لهم أيضا خلود بعد القيامة مثلهم فى ذلك مثل السادة.

وبموجب هذا النظام القائم على العبودية افتتح المصريون القدماء سجل التاريخ ببناء الأهرامت . فقد ظل هؤلاء مسخرين للعمل ليل نهار لما يزيد عن ربع قرن من الزمان لبناء مقبرة للملك خوفو تليق بمقامه بين الآلهة في العالم الآخر ، فبنوا له الهرم الأكبر الذي مازال يعد أثرا فريدا بين عجائب العالم أجمع. فقد كان الفرعون هو الإله الذى يملك - دون غيره - الأرض ومن عليها ويهب الناس الحق فى الحياة.

ومع عظمة الهرم الاكبر كبنيان معمارى هندسى يطاول الزمان الا أن له دلالة واضحة للعيان ، وهى انه شاهد على أن السخرة بما تتضمنة من خضوع وذل وهوان كان لها تقاليد راسخة وطقوس

مقدسة فى عصر الفراعنة . ومن سوء حظ المصريين المعاصرين والقدماء انهم عاشوا تاريخهم الطويل أسرى لحكم الطغاة سواء كانوا من المواطنين او من الغزاة .

وعموما..

فانه فى ذلك العصر لم تكن النقود قد عرفت بعد ، ولم يتم تداولها بين الناس . فقد أظهرت الكشوف الأثرية أن حكام الأقاليم كانوا يجمعون نصيب فرعون من الحاصلات الزراعية وينقلونه عبر السفن إلى المخازن الملكية لحفظه ، ولم يرد فى هذا التراث الأثرى أية إشارة إلى استخدام النقود فى التبادل السلعى . فلم يشى هذا التراث سوى مظاهر تسليم وتسلم عينى للمنتجات .

وفى كتابه "قصة العلم" (١٩٦٩) ، يسجل ج.ج كراوثر أن الدولة المصرية القديمة بجميع ما فيها كانت ملكا للملك (الفرعون) ، والملكية الخاصة لم يكن مسموحا بها ، وكان الملك الإله ومستشاروه من الكهنة هم الذين يقدرون نصيب كل فرد فى المحصول . فالمجتمع المصرى القديم ، شأن غالبية المجتمعات آنذاك ، كان مجتمعا طبقيا ذا بنية متدرجة ، أى يتكون من عديد من الطبقات المتفاوتة فى الشأن والأهمية . وكان لأفراد كل طبقة حصة مقررة من الحبوب .

ويقول المفكر المصرى الدكتور فوزى منصور "أن مصر الفرعونية لم تعرف اقتصاد المبادلة ، ولم تعرف النقود كأداة للتبادل

وإنما عرف المصريون القدماء النقود كمقياس للعملة ، أى عرفوا الأموال ولم يعرفوا السلع . وعرفوا المقايضة المباشرة بين الأفراد ولكن لم يعرفوا التبادل السلعى من خلال الأسواق.

وشيوع طريقة المقايضة ، على هذا النحو ، لم يساعد فى تكوين طبقة تجارية ، تبنى نفوذها على الربح التجارى المتراكم من خلال التبادل ، لذلك فإن الثروة لم تكن آنئذ تتراكم فى صورة أموال مختزنة، بل كانت تتداول فى صورة محاصيل وماشية وحلى وممتلكات عقارية . فقد كانت الأجور تدفع والأنصبة توزع فى صورة أشياء مادية ومنتجات عينية .

* * *

وفى اليونان وروما القديمة ، عندما كانت الزراعة هى النشاط الرئيسى للإنسان ، وكانت الأرض هى المصدر الأساسى للثروة ، وكان الرقيق هم قوة العمل الوحيدة للإنتاج ، لم تكن هناك حاجة إلى نظرية فى الأجور، حيث كان الإنتاج مخصصا للاستهلاك الذاتى ، وموجها لتلبية الاحتياجات المعيشية المباشرة للأسرة ، ولذا فلم تكن هناك حاجة إلى نظرية فى الأسعار . ولما كان الأرقاء مملوكين ملكية مطلقة للأسياد ، لم تكن هناك حاجة أيضا إلى نظرية للتوزيع تحدد معدلات الفوائد والأرباح وغيرها من عوائد الملكية ، لأنه لم تكن هناك مشكلة توزيع ملحة . فانتفاضات العبيد وتمردهم الاجتماعى، كان يتم وأده وتصفيته أولا بأول لأنه لم يكن قد تبلور بعد فى صورة ظاهرة عامة قادرة على زلزلة البنيان الاقتصادى

والاجتماعى للإمبراطورية الرومانية وحتى عندما قاد اسبرتاكوس ثورة العبيد ضد الأسياد استطاع الرومان وأدها فى الحال.

ويصف الدكتور حسين حرب فى كتابه "الفكر اليونانى قبل أفلاطون" حالة المجتمع اليونانى فى ذلك الزمان بقوله: "أن هذا المجتمع كان يرتكز بشكل أساسى -فى القرن الثامن قبل الميلاد - على اقتصاد زراعى تتولى السلطة فيه طبقة من ذوى الأملاك العقارية الواسعة.وإلى جانب هؤلاء كان هنالك فلاحون صغار يملكون بعض الأراضى ويعيشون عيشة قاسية فى أرض قليلة الخصب فقيرة الدخل . كذلك قام قسم من سكان الريف بأعمال مأجورة فى حقول ذوى الأملاك الزراعية الواسعة " .

وفى كتابهما "تاريخ الحضارات العام" يقول أندريه إيمار وشريكه جانيق أوبوايه: أن ذوى الأملاك الواسعة وحدهم عرفوا سعة العيش ليس هذا فحسب . بل كرسوا قسما من مواردهم لإرضاء شهواتهم ، وقد برهنت الأرستقراطية عن ميل للبذخ والزينة وحرصت على أن تتميز فى استعمال الأسلحة وأن تعنى بالمحافظة على صفاتها الجسمانية . وأحيت الولائم الفاخرة والمشروبات الروحية ، وسخرت لخدمتها فى مساكنها الرحبة الكثير من الأرقاء الممتثلين لأهوائها وجلبت الأقمشة والحلى النادرة وإنشاد المغنيين والموسيقى الهادرة".

ولقد اختلطت الثروة العقارية بالنبل والشرف ، وطاب للأغنياء التباهى بنسبهم البطولى ، وحتى الإلهى ، رغبة منهم فى الارتقاء إلى عالم الأسطورة هادفين التدليل على الدم الكريم الذى يجرى فى

شرايينهم. وهكذا ، فإن رؤساء الأسر الكبيرة ، بفعل مكانتهم الاجتماعية وطاقتهم الاقتصادية . قد تمتعوا بنفوذ لا يعادله نفوذ.

وفى ذلك الزمان الغابر ارتقى المجتمع اليونانى إلى مرحلة أصبحت فيها قوة عمل الانسان تعطى فائضا ملحوظا يزيد على نفقات إعالته. مرحلة غنية بالنجاحات من جميع المراحل السابقة. مرحلة التبادل بين الأفراد وتحول المنتوجات إلى بضائع أى مرحلة الاقتصاد البضاعى. ولذا ، فقد أثيرت أفكار عابرة وأحيانا عميقة حول قضايا اقتصادية ذات اعتبار . ففى ذلك الحين أشار "أفلاطون" (٤٢٧ – ٣٤٧ ق م) إلى ضرورة بناء الدولة وتقويتها لأسباب اقتصادية ، منها إشباع الحاجات الأساسية للسكان الذين يعجزون منفردين عن تحقيقها. كذلك أشار إلى أهمية تقسيم العمل بينهم . إلى : نبلاء مهمتهم التفلسف والحكم . ومواطنين أحرار. مهمتهم العمل والدفاع وشن الحروب ، وعبيد مملوكين لغيرهم ملكية رقبة يقومون بالخدمة فى أدنى الأعمال وأكثرها خطرا ومشقة وقسوة. هذا بالإضافة إلى ، إقراره بضرورة قصر حق الملكية الخاصة على المواطنين الأحرار حافزا لهم على الإنتاج ، وحرمان الحكام منها مانعا لهم من الطغيان.

وتلاه أرسطو (٣٣٢-٣٨٤ق.م) ، الذى ارتكز تحليله الاقتصادى مباشرة على الحاجات وإشباعها ، ونشر أفكاره حول القيم الاستعمالية والقيم التبادلية والسعر العادل ، وحرم الفائدة ، واعتبرها ربا لأن النقود فى رأيه لا يجب أن تلد نقودا أخرى عن

طريق الفائدة ، وفرق بين الثراء الطبيعى الذى مصدره الإنتاج ، والثراء غير الطبيعى الذى مصدره التبادل . ويميز أرسطو بين نوعين من الثروة:

* الأول ، يسميه الاقتصاد Oikonomia وهو الثراء الناتج عن عمل رب الأسرة وأولاده وعبيده ليكفوا به حاجاتهم وهو يزداد بفضل ارتقاء العمل نفسه وزيادته .
* والثانى ، يسميه فن تداول المال Krematike "خريماتيكا" وهو الغنى الناتج عن الربا والتجارة .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن أرسطو أدان الاحتكار فى التجارة واعتبره خطرا وغير صالح للمجتمع ، لأن غنى الفرد هنا لا يرتبط بغنى المجتمع ، ولا يعود على المجتمع بأى فائدة" .

وجاء من بعد ذلك ، القانون الرومانى ، ليكسب الملكية الخاصة الشرعية والقداسة التى ظلت ملازمة لها منذ ذلك الحين حتى عصرنا الحاضر .

وفى ذلك الزمن البعيد ، أيضا ، عندما تحول النشاط الاقتصادى إلى التبادل النقدى ولعبت النقود دور الوسيط ، اهتم بها المفكرون . ولأن بعض الناس كانوا أثرياء وكثير منهم كانوا فقراء ، ولأنهم جميعا كانوا من المواطنين الأحرار ، الذين يطلبون النقود لتلبية احتياجات التبادل، فقد تم تحريم الربا بينهم ، وأدانه أرسطو واعتبره أسوأ وأبغض ما يقترفه الإنسان ، لأن النقود فى مذهبه ، لا يجب أن تلد نقودا أخرى عن طريق الفائدة . وذلك، لأن الإنسان الأثينى الحر

كان يصبح آنذاك مملوكا لدائنه حالة عجزه عن سداد دينه ويظل فى رق إلى أن يفى به ، وهو ما كان يتنافى مع الروح الإغريقية التى كانت تبجل مواطنى أثينا وروما الأحرار وتدين وقوعهم فى أسر العبودية. ففى عام ٦٠٠ ق.م أنقذ الحكيم صولون أهل مدينة أثينا من الوقوع فى أسر الرق ، عندما أسقط الدين من فوق كاهل مواطنى أثينا، وحظر أن يصبح أى مواطن أثينى عبدا بسبب ديونه . وكان هذا أول تشريع فى التاريخ سن ليحفظ حرية المواطنين ويحرم وقوعهم فى أسر العبودية .

وفى ذلك الزمن البعيد ، لم تكن المفاهيم الاقتصادية لها وجود مستقل عن الفلسفة والأخلاق ، فقد كانت تذكر فى سياق أخلاقى ينبذ الرذيلة ويحض على الفضيلة ، يرفض الظلم وينشد العدل ، يدين الاكتناز ويحبذ الانفاق . ففى الشرق ، عندما كان العهد القديم ، من الكتاب المقدس ، هو أساس الشريعة ، وكان الاقتصاد العبرى بدائيا وكان التنظيم الاجتماعى أبويا . وكانت الأرض هى مصدر الثروة . لذا ، أقرت اليهودية حق الملكية الخاصة ووثقت شرعية توريثها من الآباء للأبناء .

ولأن اليهود يزعمون بأنهم شعب الله المختار فقد حرموا الربا بينهم وأباحوه مع غيرهم .. "لا تقرض أخاك بربا فضة أو ربا طعام شىء مما يقرض برباه . للأجنبى تقرض بربا ، ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب : تثنيه :"٢٣ من العهد القديم "

***

ولأن عمل الرقيق ، فى ذلك الزمان الغابر ، كان ضروريا لخلق المنافع وتسيير عجلة الحياة ، ولأن الأسياد من الحكام والنبلاء والأشراف والفلاسفة ، فى اليونان وروما القديمة ، كانوا يرفلون فى الخيرات وينعمون بمنتجات العمل الوفيرة ويتفرغون لشئون الحكم والقتال والتفكير والحكمة ، فقد أباحوا عبودية الأغيار وحرموها بينهم، ولذا فإن استرقاق مواطنى أثينا وروما لغيرهم -من الأجانب- كان وقتها نظاما مبررا وعرفا مقبولا ، وكان استرقاق إنسان اغريقى لإنسان آخر نظاما مقدسا وحقا مشروعا ، لأنه كان يلبى حاجة اجتماعية ويمثل ركنا أساسيا لا غنى عنه فى تكوين الحضارة الإغريقية ومن بعدها الحضارة الرومانية .

فبموجب أحكام الألواح الاثنى عشر الرومانية كان " للدائن أن يسترق مدينه -العاجز عن الوفاء- وأن يبيعه ، أو أن يقتله ، وإذا تعدد الدائنون فلهم الحق بتقطيع جثة المدين إربا إربا فيما بينهم "

والرق ، هو ما كان أرسطو قد تبناه واعتبره نظاما عادلا أقرته الطبيعة، لدرجة أنه انزل استخدام العبيد منزلة استخدام الدواب المستأنسة فى العمل . وكان أفضل العبيد - عند أفلاطون - هم الأجانب المستولى عليهم فى الحروب . وكان أسير الحرب فى نظر الرومان ، ليس أكثر من كائن هجرته الآلهة ، فلم يعد إنسانا حقيقيا، بل صار مجرد شىء يخضع لسلطة سيده خضوعا تاما ومطلقا .

إذ أن جوهر العدل –عند أرسطو- يكمن فى المعاملة المتماثلة للأشخاص المتماثلين ، ولما كان البشر عموماً غير متماثلين لهذا فإن العدل يقضي بمعاملتهم معاملة غير متماثلة تتناسب مع ما هم عليه من التباين والاختلاف. وهو ما يعنى ، الدعوة إلى تكريس الأوضاع السائدة والحفاظ عليها دون تغيير. ولذا فقد كان الحديث عن العدل وإعادة توزيع الثروة فى ذلك الزمان من المحظورات.

وعلى هذا النحو.. ينبغى أن يتبوأ كل فرد ذلك المركز الاجتماعى الذى هو مهيأ له بحكم طبيعته ، وبحكم الوظيفة التى هو قادر على أدائها , وينبغى بالتالى أن لا يحصل من الثروة أو الدخل أو سائر المزايا الأخرى إلا على القدر الذى يتناسب مع ظروف طبقته الاجتماعية والذى لا يكون على حساب الطبقات الأخرى فيعوق أداءهم لوظائفهم.

ويشير الدكتور نصار عبد الله فى كتابه "فلسفة العدل الاجتماعى عبر العصور" إلى أن نظام الرق قد أتاح للأغنياء أن يستمتعوا بثرواتهم دون إرهاق لمواطنيهم الأحرار ، وهو نظام كان اليونانيون يعتبرونه أمرا طبيعيا لا غبار عليه وأن عملاقى الفكر اليونانى أرسطو وأفلاطون قد باركا هذا النظام واعتبراه جزءاً من طبيعة الاشياء ، وليس هذا غريباً بأية حال على مفكرين مثليهما ربما لما كان يتاح لهما ما أتيح من التفرغ اللازم للتأمل لولا وجود طبقة من

العبيد تكدح وتمارس أعباء الحياة اليومية لكى تتيح لطبقة أخرى من السادة أن تمارس الفن والثقافة والفلسفة والسياسة.

ولهذا، كان التوسع الاستعماري للإمبراطورية اليونانية ومن بعدها الإمبراطورية الرومانية وشن الحروب على الأغيار مصدرا هاما لجلب العبيد وتكوين قوة عمل بشرية معدومة الأجر مسلوبة الحق ، حتى من حق الحياة. ففى ذلك الحين وصل عدد الرقيق من أسرى الحروب وأبناء الشعوب المهزومة عام ٢٤ ق. م إلى نحو ٢٠ مليون نسمة مقابل ٢١٤ ألف نسمة فقط من المواطنين الأحرار.

***

ومن المثير للتأمل . وما يستحق الدراسة ويستوجب التبرير . أن الأديان السماوية وإن دعت إلى تحرير الإنسان بصفة عامة إلا أنها لم تحرم استرقاقه بنص قاطع . وإنما ، تركت ذلك اختيارا للإرادة الإنسانية . ونتيجة طبيعية من نتائج التطور الاجتماعى للبشرية . بل وأكثر من هذا فإن بولس الرسول دعا عبيد الإمبراطورية الرومانية لطاعة الأسياد كطاعة الخراف للراعى ، لأن ما عندهم فى الأرض فان وما عند الله فى السماء باق : "أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح، لا بخدعة العين كمن يرضى الناس ، بل كعبيد المسيح ، عالمين مشيئة الله من القلب حازمين بنية صالحة كما للرب" .

وفى رسالته الأولى إلى أهل قورنتس دعا القديس بولس الناس إلى الاستسلام لما هم عليه من حال :" فليبق كل واحد على الحال التى كان عليها حين دعاه الله " من الكتاب المقدس . (العهد الجديد). فعدم المساواة الاجتماعية المتجسدة فى الهرم الاجتماعى الساكن الذى يتدرج فيه الناس بين القمة والقاع على وجه الأرض سوف تعوضها المساواة التامة بينهم وهم وهم بين يدى خالقهم فى مملكة السماء .

ففى ظل اضطهاد الرومان الوثنيين للمسيحيين أعلنت الكنيسة أن المساواة التى تدعو إليها المسيحية إنما هى مساواة فى الروح ، وأن الأرواح المؤمنة تلتقى وتتساوى فى مملكته السماوية ، أما الجسد فقد خلق لهذه الدنيا وعليه أن يخضع لكل ذى سلطان عليه ، وأن يتحمل ما يلقاه من عذابات وآلام مثلما تحملها جسد الرب يسوع المسيح وهو يعذب على الصليب.

ولذا ، فقد ظل الرق مرتبطا بالزراعة والتعدين والعمارة فى النظام العبودى . وتحرر نسبيا فى النظام الإقطاعى اللاحق له ، ثم تحرر كليا فى ظل الصناعة لأن شرط تطورها ونموها كان رهنا باستخدام العمل المأجور الحر من أى قيد قانونى يحد من حركة الإنسان ونشاطه وحريته . ولهذا فقد ظل نظام الرق مشروعا إلى أن حرمته الثورة الفرنسية عندما نشرت إعلان حقوق الإنسان (١٧٨٩

Declaration of human Rights) فى الحرية والإخاء والمساواة ، وحذا حذوها باقى دول أوروبا والمستعمرات التابعة لها . إذ أعلن الدستور الفرنسى الأول فى مقدمته "كل البشر يولدون أحرارا متساويين فى الحقوق" .

* * *

(٢) الاقطاع وكهنوت الكنيسة

قبل أفول العصر اليونانى الرومانى ، كانت الإمبراطورية الرومانية قد أظهرت سطوتها وفرضت سلامها على العالم Pax Romana وتبنت المسيحية واعتمدتها ديانة رسمية بعد عناد لم يطول ، ثم أهدتها إلى العالم ونشرت تراثها وبشرت بقيمها بين الشعوب ، وتبلور اتجاهها الأساسى ، فى المساواة بين الناس واحترام حقهم فى الحياة ، وتحريم الربا بينهم فى المعاملات ..

كما كان نمو المصانع اليدوية Manufactures وسيطرة طوائف الحرفيين Cast system على النشاط التجارى والحرفى ، من السمات المميزة للنشاط الاقتصادى فى تلك العصور ، وكان الاحتكار والاستغلال وحجب السلع عن التداول مظاهر ملازمة للتمايز الطبقى والتفاوت الاجتماعى واستغلال النفوذ .

ففى بداية القرن الرابع الميلادى ، كان الإمبراطور قسطنطين (٢٨٥-٣٣٧) قد اعتنق المسيحية ، وجعلها الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية حوالى عام٣٢٠ ميلادية . ومن يومها ، بدأت قوة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى الظهور والنمو إلى أن نشرت ثقافتها وفرضت سطوتها الشاملة فى جميع أنحاء أوروبا.

وفى القرن الخامس بعد الميلاد ، جاء انهيار الإمبراطورية الرومانية على يد أتيلا (٤٠٦-٤٥٣) ملك الهون، من شعب المغول

عندما غزا أرضها ، ودخل فرنسا سنة ٤٥١ ، ثم دخل إيطاليا سنة ٤٥٢ . وكان كلما دخل أرضا نشر فيها الخراب .

ومن بعد ذلك ، حلت العصور الوسطى ، التى استطالت لتغطى عشرة قرون كاملة من عمر الزمان (من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر بعد الميلاد) فهي تنحصر بين سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب سنة ٤٧٦م واكتشاف أمريكا على يد كريستوفر كولمبوس سنة ١٤٩٢م ، وهي بذلك تمثل فترة انقطاع بين عصرين مزدهرين بالعلم والمعرفة ، وهما عصر الحضارة الإغريقية الرومانية (من القرن الخامس قبل الميلاد الى القرن الخامس بعد الميلاد) . وعصر النهضة الأوروبية (فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر).

وفى مسيرة التاريخ ، وبعدما تحللت العبودية وحل محلها الإقطاع Feudalism ، كانت الاقطاعية تمثل وحدة اقتصادية واجتماعية شبه مستقلة Autonomous unit تشتمل على ضيعة Mainer أو أكثر ، حيث كان الإنتاج موجها فى الأساس لتلبية احتياجات الاستهلاك المباشر Substance Economy وكان توزيع الناتج بين السادة والعبيد ، وبين الملاك والمزارعين ، وبين الأشراف وعامة الناس يتم عادة فى صورة عينية ، وكانت المنتجات والمحاصيل تسلم ولا تباع لذلك ضاقت السوق ، ومثلت استثناءً لمجموعة قليلة من

البشر ، ورغم تزايد أهميتها مع مرور الزمن ، إلا أنها ظلت بصفة عامة تلعب دورا هامشيا فى الحياة الاقتصادية .

* * *

وبعد كمال تحلل الإمبراطورية الرومانية وتمزقها إلى دويلات متناحرة ، وحلول العصور الوسطى بما فيها من تخلف وظلام ومحاكم يفتش فيها الكهان عن الخطيئة فى ضمير الإنسان Recomquista ، تخلت الكنيسة تدريجيا عن الفضائل المسيحية ، وأبيح للكهنة تملك الأموال وتجميعها، وبيعت مناصب الكنيسة بأسعار معلومة ، وبيع الغفران للناس بطريقة منظمة ، واتسع الطريق بين الكنيسة والجنة أمام الأثرياء .. وضاق أمام الفقراء . هؤلاء المعدمين من ثمن الغفران ، الذين تبددت أحلامهم فى الاستئثار دون الأغنياء بالجنة بعد الممات ، تعويضا عن حرمانهم من خيرات الدنيا وهم أحياء .

وهو ما يبرهن على أن الأخلاق والفضيلة ذاتها ، كثيرا ما تستجيب لاختيارات الطبقات الاجتماعية ذات النفوذ.

وكان الدور المهيمن للكنسية على هذا النحو قد تنامى ليشمل الحياة بكل جوانبها ووصل ذروته فى القرن العاشر الميلادى . حينما نجحت الكنيسة فى بناء نظام الكهنوت Priesthood الذى سيطر على حياة وأفكار كل سكان العالم المسيحى ، ابتداءً من إقامة الشعائر

وفرض الضرائب إلى تحجيم الفنون ، وتقييد العلوم ، والانفراد بالتعليم ، وسن مراسم تتويج الملوك .

وفى ذلك الزمان تجسدت نظرة القديس أوغسطين(٣٥٤-٤٣٠) ST.Ougustine "فى سلوك البابوات من بعده ، حيث انه كان قد اعلن فى موعظته" أن السلطة الزمنية ، ما لم يباركها هو بالتفويض بالحكم، تصبح ظاهرة لصوصية. إذ قرر أن القاعدة الاساسية هى أن الدولة العلمانية تكون ميتة روحيا ما لم تتحالف مع الكنيسة تحالفا وثيقا" .

ففى ذلك الحين ، ادعى البابا أنوسنت الثالث (١١٩٠-١٢١٦) أنه يستمد سلطته مباشرة من الله . وبعد أن كان البابا جريجورى السابع قانعا بأن يكون نائبا عن القديس بطرس ، فإن أنوسنت أدعى أنه نائب المسيح (أي نائب الله). وأعلن فى موعظة ألقيت فى حفل تكريمه . أنه "فى منتصف الطريق بين الله والإنسان ، أقل من الله ولكن أكثر من الانسان ، إنه يحكم على جميع الناس ، ولا يحكم عليه أحد ". ومن شدة بأسه ، وفى يوم تنصيبه "بابا الكاثوليك" ذكر فى موعظته الآية من الإنجيل التى تقول: "انظر .. إنى نصبتك اليوم على الأمم والممالك، لتسحق وتحطم ، وتبيد وتخلع ، ثم لتبنى وتزرع". كما أطلق على نفسه لقب ملك الملوك وأمير الأمراء. وقد ظل الحال سارياً على هذا المنوال بين البابوات حتى القرن السادس عشر.

وتجسيدا لنظرة القديس أوغسطين مثل عهد البابا أنوسنت الثالث قمة ازدهار النفوذ البابوى فى مواجهة الملوك والاباطرة حيث أرغم الكثير من ملوك أوروبا وأباطرتها على الإذعان لإرادته والامتثال لقراراته. وإلا كان جزاؤهم الحرمان من رحمة الكنيسة وما يستتبعه هذا من المتاعب التى لا قبل لهم بها فى بلادهم وخارجها وهو ما حدث بالفعل لامبراطور ألمانيا هنرى الرابع عندما رفض تسلط الكنيسة ، وفريدريك الثانى لتمرده , فقد أذيقا من اوجه التحقير والتجريس ألوان إلي أن عفا عنهم البابا بعد ذلك بسنوات .

وفى هذا العصر الوسيط سلك الكهنة سلوك غير أخلاقى ضد المعارضين ، ورفضوا الفكر العلمى بل وكفروه . وانتشرت الخرافات والاساطير والخزعبلات ، وشمل التفسير الغيبى الظواهر الطبيعية والاجتماعية ، فخيم الظلام على العقول وساد الخوف والجمود وارتد الزمن بالناس إلى سالف العهود.

وهذا الانحراف الكنيسى عن الصراط المستقيم يؤكده ، أيضا ، ول ديورانت فى كتابه "قصة الحضارة" قائلا: "إن الضرائب التى كانت تفرضها الكنيسة قد أثقلت كاهل الشعب المسيحى ، وأن بعض هذا المال كان يذهب ليتخم بطون رجال الدين ، بل إن منه ما كان يذهب إلى جيوب الخطايا اللاتى كانت تزدحم بهن حجرات بيوت الباباوات" ثم يضيف ، على لسان أمين سر البابا يوحنا الثالث والعشرين "أن البابا غوى مائتى عذراء ، وزوجة ، وأرملة ، وراهبة" . ويزيد ،

بأن هذا الفساد قد استشرى وتفاقم لدرجة أن وليام ديوراند أسقف منذ كتب رسالة إلى مجلس فيينا (عام ١٣١١) جاء فيها : "... أن كنيسة روما قد ساءت سمعتها فى جميع الأقطار ، حتى أصبح الناس خارج روما يعلنون أن جميع من تضمهم من الرجال -من أكبرهم مقاما إلى أصغرهم شأنا- قد امتلأت قلوبهم بالطمع والجشع ... وأنهم يضربون، لجميع الشعب المسيحى ، أسوأ المثل فى النهم... لأنهم أكثر انغماسا فى الترف من الملوك والأمراء" .

وفى رد فعله على ذلك الفساد ، رفع الأسقف الأسبانى الفارو بلايو، عقيرته صائحا فى وجوههم "إن الذئاب تسيطر على الكنيسة وتمتص دماء الشعب المسيحى" . ومن بعده بجيل كامل : وصف الراهب سفنرولا كنيسة روما بأنها "كالعاهر تبيع نفسها بالمال" . ومن بعد جيل آخر ، قال أرزمس : "إن العار الذى يكلل المحكمة البابوية العليا وصل إلى ذروته" .

وعلى نفس الدرب ، أعلن الكاهن البيوريتانى اسكندر ليتون Leighton : "أن نظام الأساقفة ، نظام شيطانى معاد للمسيحية"، وأيده فى ذلك شريكه فى الفكر وليم برين (١٦٣٦) قائلا : "إن الأساقفة خدم للبابا وللشيطان" .

***

ففى العصور الوسطى ، كانت القوى المسيطرة على دفة الحياة هى سلطة رجال الدين وهيمنة الكنيسة من ناحية ، وسلطة الملوك

وأمراء الإقطاع من ناحية أخرى . وكان ميزان القوى متأرجحا بين القوتين . وآنذاك، كان الفكر السياسى منشغلا بكيفية التوفيق بين هاتين السلطتين، السلطة الدينية والسلطة الزمنية ، واستقر الأمر على الاعتراف العام بوجود سيفين مقدسين :

- أحدهما روحى ، أى كلمة الله وتستخدمه السلطة الدينية فى جرح الخطاة .

- والآخر مادى ، وهو الذى تُشَرعه السلطة الزمنية لعقاب العصاة.

لذا ، ظهرت نظرية الحق الإلهى Divine right التى تعطى السلطة الكلية إلى الله الذى يورثها للكنيسة فى الأمور الدينية وللملوك فى الأمور الدنيوية ، وهى بذلك ، أصبحت سلطات مطلقة ، مستمدة من الذات الإلهية ، التى شاءت ولا راد لمشيئتها ، إذ احتكرت الكنيسة جميع أشكال التفكير الفلسفى وأجهضت أية آراء مستقلة أو معتدلة .. كما أحبطت ، بهمة ونشاط ، أى رؤية عقلية أو تجارب علمية باسم السلطة الكنسية.

ففي النصف الأول من القرن السادس عشر كان النظام الكنيسى الكهنوتى قد وصل إلى ذروة الفساد والطغيان ، باتجار القساوسة فى صكوك الغفران ، وعلى سبيل المثال فقد بلغت ملكية الكنيسة الإنجيلية من الأرض الزراعية الخصبة فى ذلك الوقت نحو ٢ مليون فدان تمثل سدس أرض انجلترا .

ولما كان القساوسة يدعون الناس إلى تطبيق المبادئ الأخلاقية ، ولكن لا يلزمون أنفسهم بها . ظهر فى حينه شعار "اعمل بموعظة القساوسة ولكن لا تفعل فعلهم ولا تسير على دربهم" .

فحتى القرن السادس عشر . من مسيرة التاريخ ، كانت الكنيسة تسيطر على حكم وحكام أوروبا باسم نظرية الحق الإلهى. الحكم لله وحده . ويختار لأدائه من يشاء. ولما كان البابا هو نائب المسيح أى ممثل الله فى الأرض . فقد كانت كلمته لا ترد وصارت مصدر الشرعية والحرمان. وساد القانون الكنسى بعد أن تفككت أوروبا ولم يعد بها قانون يطاع .

* * *

وفى عام ١٥٢٤ نشبت ثورة الفلاحين ضد الكنيسة . وكانت مجزرة من طرف واحد انتصر فيها أمراء الإقطاع علي الفلاحين مما أجج ثورة الإصلاح الدينى بقيادة القس الألمانى مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦) . عندما دمغ البطاركة بالفساد ووصفهم بأنهم : "أكبر الذئاب" . وحرض على قتلهم : "كان من الخير أن يقتل كل أسقف وأن تقتلع جذور كل مؤسسة أو دير" .

وفى نفس الفترة ظهر جون كالفن اللاهوتى والمصلح الدينى السويسرى ، الذى رسخ مبدأ الفصل بين الدين والدولة ، ونادى بحق الشعب في أن يختار من يرعاه داخل الكنيسة ، وأن تكون مؤسسات الدولة مفصولة فصلا تاماً عن أى مؤسسة دينية .

وفى تلك الفترة نشبت الحروب الدينية فى كل أوروبا بين الكاثوليك المحافظين أتباع البابا ، والبروتستانت الثوريين أتباع لوثر الذين وصفوا البابا بلقب " المسيح الدجال " وفى تلك الحروب قتل من أتباع كل مذهب الاف مؤلفة من البشر وعذبوا وذبحوا وأحرقوا فى النار أحياء بيد المخالفين لهم فى العقيدة ، فكل جانب جَرم الجانب الآخر ووصفه بالكفر والهرطقة والإلحاد .

ولأن الناس على دين ملوكهم يسيرون . فقد اختلط الدين بالسياسة والطموح بالجشع والدم بالوحل . فتحاربت الدول فى كل أوروبا مع بعضها البعض فى حروب دينية لمدة تزيد على مائة عام سقط فيها نحو خمسمائة ألف إنسان ما بين قتيل وجريح ، ومن المفارقات ان تلك الحروب كانت تجري تحت راية الرب الذى طالبهم بالرحمة وأمرهم بالعفو.. ولكن الناس فى العادة يصيرون في أتون الصراع وحوشا بلا ضمير أو دماغ .

وأخيرا ، وفي منتصف القرن السابع عشر ، اتفقت دول أوروبا على إنهاء الحروب الدينية وسمحت لأتباع المذاهب المختلفة بالتعايش جنباً إلى جنب.. ووثقت ذلك الاتفاق فى معاهدة ، وإستفاليا عام ١٦٤٨.

وكل تلك المفاسد ، كانت قد دفعت الفيلسوف الألمانى المرتد نيتشه، فيما بعد ، إلى القول أن "المسيحيين عموما غشاشون من

الناحية العقلية ، ومنحطون من الناحية الخلقية ، وأن ذلك راجع إلى ما يعتقده الفرد المسيحى". كما شكك فى العقيدة المسيحية وأعلن وفاة الإله ، قائلاً : "إن الإله قد مات ونحن الذين قتلناه ".

وفيما بعد قال كرين برنتون وهو يقيِّم تلك الموجة الفكرية المعادية للكنيسة : " كان فلاسفة القرن الثامن عشر ، قد أدركوا بالفطرة الغريزية السليمة ، التى ندرك بها أعداءنا ، أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية هى العدو فاختصوها بأشد الهجمات وأقساها " .

***

وفي نفس السياق، يجمل الاقتصادى المصرى المتميز الدكتور محمد دويدار ملامح ذلك العصر فيقول : " أن نظام الكهنوت كان نظاما إقطاعيا احتكر إدارة النظام الاجتماعى ، وهو ما مثل أساسا لقوته بما أكسبه من تماسك ، كما كان سببا لضعفه لما اتسم به من التعصب وضيق الأفق ، ويضيف ، بأن النظرية العامة لهذا الفكر الكهنوتى Priestly thought فيما يتعلق بحياة الإنسان ومصيره ، تبلورت فى مقولة أن الدنيا مرحلة عابرة فى حياة الإنسان تؤهله إلى الحياة الأبدية بعد الموت ، إما نعيما فى الجنة Heaven أو خلودا فى النار Hades

***

وعليه..

فإن حركة الإصلاح الدينى البروتستانية قد مثلت -أبرز الإرهاصات الليبرالية فى تلك الفترة- عندما كشفت فساد الكنيسة

وتكالب البابوات والكهان على جميع الأموال بالوسائل المشروعة وغير المشروعة. وأنكرت على الكنيسة دعواها باقتصار حق تفسير الكتاب المقدس على البابوات وحدهم، ونادت بأن تفسير الكتاب المقدس يكون حقاً لكل مسيحي وأن الكنيسة ليس من حقها أن تفرض وصاية على ضمير المواطن المسيحي وعقله أو أن تلزمه بتفسيرات معينة للكتاب المقدس كما فعل بابوات الكنيسة الكاثوليكية في روما. وبذلك فإن حركة الإصلاح الديني قد حررت العقل والضمير المسيحي من سيطرة الكنيسة ، فصار لكل إنسان حرية التوصل بعقله إلى الحقيقة الدينية دون حاجة إلى وساطة رجال الكنيسة. وكانت تلك الأفكار من أهم دعائم الفكر الليبرالي في القرن السابع عشر.

وفي ذلك العصر ظهر الفكر الاقتصادي بشكل عارض ضمن المواعظ والإرشادات الدينية التي تبشر الناس بالسعادة في الدنيا ، وبالجنة في الآخرة ، إن هم اتبعوا العدل واستمسكوا بالحق وأقاموا الوزن بالقسط ولم يطغوا في الميزان وتجنبوا الباطل وترفقوا بالفقراء. وقد تشدد القس الألماني مارتن لوثر رائد الإصلاح الديني في هذا المجال ووصف الربا بأنه " بدعة من عمل الشيطان" ووصف التجارة بأنها " مهنة مرذولة " وندد بالمحتكرين الذين كانوا يتآمرون لرفع الأسعار ووصفهم بأنهم "لصوص ظاهرون للعيان".

***

(٣) الرأسمالية التجارية

لأن إرادة الله شاءت أن تتحول الحياة من حال إلى حال ولا تدوم لأحد ، فإن سيطرة الكنيسة على الحياة كانت قد تزعزعت ابتداء من القرن الثانى عشر ، عندما تعارض جمود الاقتصاد الريفى الذى ترعاه الكنيسة ، مع ديناميكية الاقتصاد الحرفى والتجارى الذى ترعاه البرجوازية الحضرية الصاعدة فى المدينة . "وجاء الإصلاح الدينى اللوثرى ، كثورة شاملة حررت الضمير جاعلة منه الحكم الأعلى حتى على حقائق الكتاب المقدس . حيث تحرر كل من العقل والضمير كى يؤديا واجباتهما" ، ولم تعد القوانين -كما كانت فى العصور الوسطى- قوانين الله المتجسدة فى الكنيسة . وأصبحت الحجة القائلة بأن للبابا ولاية روحية على الإمبراطور باعتباره مسيحيا حجة لا يمكن تنفيذها. ودافع أنصار الإمبراطورية عن طابع الملكية المقدس المستمد من الله مباشرة ، مثلها فى ذلك مثال السلطة البابوية ذاتها.

ولأن المعاملات بين الناس لا تتوقف ، سواء كان يعمها العدل أو يشوبها الاستغلال ، ولأنهم يتبادلون المنتجات سواء كان ذلك يتم داخل السوق أو خارجها ، ولأن هذه المعاملات لا تتسم بالنزاهة المطلقة فإن ذلك كان يتسبب فى تحقيق السعادة لبعضهم وإلحاق الشقاء بالآخرين .

وفى ظل عتمة ذلك العصر الوسيط ، الذى لفه الظلام لمدة عشرة قرون كاملة ، ظهرت شمعة مضيئة أنارها القديس سام توماس الاكونى (١٢٢٦-١٢٧٤) ، من داخل الكنيسة الفرنسية ، وعم نورها القارة الأوروبية بأكملها . ثم حمل مشعلها من بعده ، الأسقف نيكول اورسيم (١٣٢٠- ١٣٨٢) . وقد اتفق هذان القديسان ، مع أرسطو وأفلاطون ، فى بعض الشأن واختلفا معهما فى شئون أخرى.

فعلى أيديهما ، جرى إحياء مبدأ العدل عند أرسطو بعد إلباسه ثوبا مسيحيا ، فكان العدل فى التسعير حلال والغش والتدليس حرام دون الإشارة لكيفية تحديد هذا السعر العادل Moderate price ، فقد ظل تحديده مسألة أخلاقية ، وعلاقة تقديرية ، متروكة لضمير المتعاملين. ونفس هذا المبدأ ، تم تطبيقه عند تقدير الأجور والأرباح فى المعاملات الاقتصادية .

وإذا كان أفلاطون قد نادى بشيوع الملكية العامة ، وأرسطو قد نادى بحق الملكية الخاصة ، فإن الفكر اللاهوتى على يد هذين القديسين ، "توماس وأورسيم" قد أرجع ملكية المال إلى الله ، وأبقى الإنسان مستخلفا فيه ، وحبذ الملكية الفردية وانتهى إلى أنها رغم مشروعيتها ، فإنها ليست ملكية مطلقة ، وإنما اعتبرها ملكية مقيدة بالمنفعة العامة .

وعليه ، فقد مهدت أفكار كل من سام توماس ايكوينى ، ونيكـول أورسيم ، ومارتن لوثر الطريق أمام نهضة الأمم الأوروبيـة ممـا ساهم فى تحلل النظام الإقطاعى ونمـو الراسـمالية فـى صـورتها التجارية.

ففى بداية عصر النهضة Renaissance كانت الكشوف الجغرافية التى أدت إلى اكتشاف العالم الجديد قد ضاعفت معلومات الناس عن سطح الأرض، ومنهـا رحـلات برتلوميزديـار (١٤٨٨) ، وتبعـه كريستوفر كـولمبس (١٤٩٢) ، وفاكـسودى جامـا (١٤٩٨) ، وماجلان (١٥١٩-١٥٢٢) . وكان لهذه الرحلات أكبر الأثـر فـى توسيع التجارة وتراكم الثروة فى البلاد الأوروبية . كمـا أدى إلـى اكتشاف قارة أمريكا (عـام ١٤٩٢) ، واسـتعمار الأوربيـين لهـا واستيطانهم أرضها واستعبادهم لشعوبها.

وفى القرن السادس عشر . كان الحلم الأمريكـى . فـى العقـود المبكرة من اكتشاف هذه القارة الجديدة . يمثل نموذجا فريدا للوفرة المترفة والفرص المتكافئة بما يتضمنه ذلـك مـن آفـاق واسـعة لممارسة الانتاج ، ومصادر متنوعة لكسب الدخل ، ومجالات وفيرة لجنى الربح . بدرجة لم تكن معهودة فى الغرب الأوروبى فـى ذلـك الزمان . وفى ظل سعة الرزق ، ووفرة فرص العمل ، وحق الحيازة الحرة للأراضى ، لم تكن هناك حاجة إلى نظرية للأجور أو نظريـة

للريع ، وبالتالى لم تكن هناك فرصة لظهور نظرية الأسعار أو ظهور ما يمكن اعتباره نظرية اقتصادية .

ومن بعد ذلك بنحو أربعة قرون صدرت قوانين هومستد Homested عام ١٨٦٢ . الخاصة بتكوين مزارع عائلية . التى قضت بمنح كل مواطن فوق الحادية والعشرين من العمر ، الحق فى امتلاك مزرعة مساحتها ١٦٠ فدان دون مقابل شريطة أن يزرعها بنفسه لمدة خمس سنوات على الأقل . ويذكر روبرت دوريمان أن الفكر الذى كان سائدا حينذاك هو "دعه يعمل" وكان كل شخص هو اقتصادى نفسه. لذلك اختلط الاقتصاد دون تمييز بالسياسة والفلسفة وكذلك باللاهوت .

ولأن الاستيطان الأوروبى ، لأمريكا ، اعتمد أساسا على عمل العبيد المختطفين من أفريقيا ، دون أن يدفع لهم أجر أو تحسب لهم كلفة ، لذلك ، تكرر فى أمريكا ما سبق أن حدث فى اليونان وروما القديمة . فقد حكمت المحكمة الأمريكية العليا عام (١٨٥٧) بأن العبيد ليسوا مواطنين . وكان هذا الحكم من الأسباب المباشرة لاندلاع الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١-١٨٦٥) ، بين ولايات الشمال المطالبة بالحرية وولايات الجنوب المدافعة عن العبودية ، التى أسفرت عن الاعتراف بحق العبيد فى الحرية والمواطنة بمقتضى التعديل الثالث عشر للدستور (عام ١٨٦٥) والتعديل الرابع عشر للدستور (عام ١٨٦٨) . وحينئذ ، أعلن إبراهام لينكولن

الرئيس الأمريكى السادس عشر تحرير العبيد وأعتق فى حينه نحو أربعة ملايين نفس من الرق وحررهم من نير العبودية . ومن ثم اهتم الفكر فى تلك الفترة بنشر القيم الأخلاقية التى تدعو إلى الرفق بالحيوان والرأفة بالإنسان.

وكان للتوسع التجارى بين أوروبا والعالم ، وانتشار الحرف ، وتداول النقود على نطاق واسع دور كبير فى ظهور ثلاث طبقات اجتماعية هى : التجار ، والصناع ، والصيارفة . وهم الذين كانوا فى مرتبة أدنى من أمراء الإقطاع فى بداية العصر الوسيط ، غير أنهم ما لبثوا فى نهايته أن تبوءوا مراكز رفيعة فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، عندما تكدست خزائنهم بالثروات ، ولمع فى أيديهم بريق الذهب ، وظهر على محياهم دلائل النعم ، وأقبلوا على الحياة مستبشرين حتى صاروا الطبقة المترفة . ونشروا أفكارهم وثقافتهم ومثلهم وقيمهم ، وغدوا القوة المسيطرة فى المجتمع . وصبغوا الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية بصبغة مصالحهم . ورفعوا شعارهم التاريخى "لا ضرائب بدون تمثيل سياسى No Taxation without Representation".

***

وفى مجال الفكر السياسى..

كان أول من عبر عن فكر هذه الطبقة هو "كتاب الأمير" لميكافيللى Niccolo Machiavelli (١٤٦٧-١٥٣٢) الذى حرر السياسة والدولة فى العصور الوسطى من سلطة الأخلاق الكنسية رافعا شعار

أن الأخلاق والسياسة لا يجتمعان ، مبشرا بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة. وصار بذلك رمزا للسياسة الانتهازية والمنطق العملى النفعى على مر التاريخ . إذ أن وحدة الدولة كغاية تبرر فى نظره كل وسيلة يتخذها الأمير لتحقيقها . قائلا : "الواقع أن الأمير سوف يجد أن بعض الفضائل المفترضة سوف تحطمه ويفقد بسببها الدولة ، فى حين أن بعض الرذائل الظاهرة سوف تجلب له الأمان والرخاء وتحقق له العزة".

- وتلاه برنارد ماندفيل (١٦٧٠-١٧٣٣) فى بداية القرن الثامن عشر، بكتابه "رذائل فردية وفضائل عامة" Privatevices Public virtues مبشرا بأن الخير العام يمكن أن ينتج من الأطماع والأنانية الفردية .

- ومن بعده نشر الفقيه والفيلسوف الفرنسى جان بودان كتاب عن "السيادة" عام (١٧٥٦) ليدعم سلطة الملك فى مواجهة الكنيسة والكهان، وروج لمقولة أن "الملك" يتمتع بالسيادة المطلقة لأنه يستمد هذه السلطة من الله مباشرة لا من البشر.

- ومن بعد هؤلاء جاء نيتشه (١٨٣٣-١٩٠٠) ليقرر "أن الأقوياء وأصحاب الأرواح التى يغلب عليها الشر هم الذين حققوا أعظم قدر من التقدم للبشر" .

وبدأ الأمر ، فى ذلك الحين ، وكأن العالم يشهد إرهاصات عصر جديد . عصر الرأسمالية التجارية وازدهارها ، عصر تداول السلع ونمو القيم التبادلية فى الحياة الاقتصادية وسيادة القيم النفعية فى الحياة الاجتماعية. وغدت السلعة باعتبارها المنتج المعد للتداول ،

هى شرط وجود رأس المال التجارى الذى يتولى تنشيط حركة تداول السلع بما يترتب على ذلك من توليد القيم التبادلية ونموها .

وقد أطلق آدم سميث على هذا العصر فيما بعد ، شعار التجاريين Mercantilism ، الذى امتد بطول ثلاثة قرون متواصلة ، من منتصف القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن الثامن عشر . وكان من أهم ظواهر التطور فى ذلك العصر هو انتشار الأسواق Markets ، وصعود طبقة التجار Merchants ، والتوسع فى الكشوف الجغرافية ، وتدفق الثروات النقدية ، وظهور الدولة الحديثة وتكيف الفكر الدينى والمعرفة العامة مع كافة هذه الظواهر الجديدة.

فقد أدت الكشوف الجغرافية إلى غزو عوالم جديدة بشعوبها وعاداتها وأديانها المختلفة . مما زعزع الإيمان بعظمة "الكتاب المقدس" وأدى إلى سيطرة النزعة الإنسانية Humanism على المعرفة العلمية . وظهرت وقتئذ نظرة جديدة للعالم ، ووضعت المعتقدات الكبرى موضع تساؤل . إذ خضع الإيمان للمنطق وأصبح المعقول هو فقط ما يمكن فحصه وتخيله ولمسه .

ومن بعد ذلك ، أزيح الفكر الدينى إلى هامش الحياة الثقافية وتعززت القناعة بأن كل تجليات النشاط الإنسانى المتنوعة -فى الاقتصاد والسياسة .. فى العلم والأخلاق- تخضع لمفعول القوانين العامة للطبيعة ، وتشكل جزءا من سير الأمور الطبيعى . وانتشرت أفكار الدين الطبيعى (قانون الطبيعة هو قانون الرب) ، والقانون الطبيعى والإنسان الطبيعى ، وبذلك ، غدا الإنسان سيد نفسه . فقد

حطم الأغلال الفئوية والعائلية وحتى الدينية ، غير معترف بأية سلطة على نفسه وبأى قسر ، ما خلا صوت ضميره والإحساس بكرامته الشخصية ، وأصبح الإنسان ، بذلك ، فعالا واعيا متمتعا بحرية الاختيار .. وهو الإنسان الملائم للرأسمالية .

* * *

فحينما بدأت الإقطاعيات فى التحلل، وتهدمت أسوارها ، بدأت السوق القومية Nation Market تنمو تدريجيا على حساب الأسواق المحلية Local Markets ، مفسحة الطريق أمام تطور الفن الإنتاجي، وتسارع معدل تراكم رأس المال وتوسع التقسيم الفنى والاجتماعى للعمل . إذ تطور الإنتاج من الصناعة الحرفية Handcraft إلى المصانع اليدوية Manufactures التى مهدت السبيل لاستخدام الآلات البخارية فقد كان لاستخدام طاقة البخار دوره المؤثر فى أن تصبح الصناعة الآلية Industry قلب النشاط الرأسمالى. وهنا يشير الاقتصادى المصرى الدكتور إسماعيل صبرى عبد الله إلى الأثر الذى أحدثه إنشاء السكك الحديدية والسفن البخارية من ثورة فى انتقال الأفراد والسلع وتوسيع الإنتاج واضطراد الأرباح كان دوره كبيرا فى تكوين طبقة عاملة عريضة تعانى من قسوة العمل وقلة الأجر .

ومع نمو التطور المادى فى إنتاج السلع وتبادلها ، نمت علاقات السوق وتوطدت دعائمها وفرضت قواعدها تدريجيا على وقائع

الحياة، حتى تكيفت معها المبادئ والقيم والأخلاق . وبدأت إرهاصات الفكر العلمى والنظر العقلى فى الشيوع والازدهار . فقد أشار "جالبريث" إلى أن كلا من الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية قد قدمت التنازلات وأجرت التسويات التى تطلبتها الظروف الاقتصادية الجديدة، وأصبح تمويل العمليات التجارية بأموال مقترضة (ربوية) عملا مشروعا ، ولم يعد فى ذلك ما يحرم التجار من دخول الجنة بعد أن كانت إقامتهم فيها بعد الممات أمرا مشكوكاً فيه من جانب الكهنة والباباوات. وقد أثرت هذه البيئة المتسامحة على فكر رجال الدين ، على نحو ما يتجلى فيما سجله السكرتير البابوى لورنزو فى كتابه "اللذة بوصفها الخير الحقيقى" الذى دافع فيه عن أخلاقيات تدعو إلى القول بأن نعيم الحياة إنما هو تعبير عن الفضيلة المسيحية" . وعن هذا يقول والتر ليبمان فى كلمته عن المجتمع الطيب "أخيرا جدا ، أصبح من الممكن إغلاق الهوة التى تفصل بين المادة والروح ، وبين المنفعة الذاتية والنزاهة" .

* * *

وفى هذا السياق، ظهرت الدولة القومية Nation State كوحدة سياسية جديدة ، وظهرت معها اتجاهات فكرية حديثة تمجد الدولة وتبحث فى تقوية وتدعيم سلطاتها الناشئة . وبدا واضحا ، أن قوة الدولة تكمن فى وحدتها وثرائها وتوسعها ، فكانت الكشوف الجغرافية سببا فى ازدهار التجارة وتدفق الثروة وتراكم رأس المال.

وقد تكيف كل من الفكر الاقتصادى ومبادئ الأخلاق مع هذه التغيرات.

فقد أصبح النجاح المادى فى الحياة ، دليلا ملموسا على الرضا والعناية الإلهية ، وتم تبرئة باعث الربح بعد أن كان مدانا ، وتم إضفاء المشروعية على الفائدة بعدما كانت حراما . لدرجة أن بنتام Jermy Bentham أباح الربا، ودعا إلى عدم فرض أى قيود على ممارسة الربا ، حتى لا تختنق المبادرة الخاصة والحرية الفردية، وصاغ مبدأه عن المنفعة ، وخلاصته : ينبغى أن نفعل كل شىء بهدف ضمان أعظم قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس ، إذ أن الناس تنشد اللذة وتتحاشى الألم .

وبذلك أزيحت من أمام البرجوازية الناشئة الحواجز اللاهوتية، بين حق التمتع بالرفاهية فى الحياة الدنيا ، مع ضمان الغفران والاستمتاع بالنعيم فى الحياة الآخرة .

وفى هذا المناخ ، ظهرت المدن التجارية القوية وتوطد نفوذ التجار الذين اقتربوا أكثر فأكثر من دائرة السلطة ومركز صنع القرار Insider Traders ، وجلبت المعادن النفيسة إلى الدول القديمة فزادتها قوة وأكسبتها منعة ، وتوحدت إرادة السلطة مع نفوذ التجار ، لتصفية بقايا الأرستقراطية الزراعية ، وتسريع عملية تحلل العلاقات الإقطاعية ، وبناء العلاقات الرأسمالية الناشئة وتقويتها .

وقد سجل ج . دى . لاجارد J. De Lagarde: رأية حـول هـذا التطور قائلاً : " لقد انتهت ظاهرة القرون الوسطى ، وبدأت المدنية تنبثق من جديد كوحدة ثقافية ، وبدأ المجرى الرئيسى لنهر الحضارة يفيض من جديد . وأصبحت المدنية خير حليف للملكية الجديدة ؛ كما شق البرجوازيون والملوك طـريقهم لاحـتلال مراكـز البارونـات الاقطاعيين ورجال الدين والرهبان . وهكذا ارتبط المعاديـان لنظـام القرون الوسطى (الملكية والبرجوازية) ؛ وكان عليهما فـى نهايـة الأمر أن يخلقا حضارة جديدة ، بعد أن تمـثلا إنجـازات العـصور الوسطى وحلا محلها".

* * *

ويجمل الاقتصادى المصرى المعاصر الدكتور حـازم البـبلاوى ، مذهب التجاريين الذى ساد فى ذلك العصر فى أنه كان فكرا عمليـا من نتاج بعض رجال الإدارة ورجـال الأعمـال ، يلبـى المـصلحة المباشرة ، ويتبلور فى ضـرورة تـدخل الدولـة لتنظـيم الحيـاة الاقتصادية ، واحتكار الصادرات ، والرقابة على الصرف ، وتكـوين فائض دائم فى الميزان التجارى ، وتحقيق أكبر قدر من الكسب على حساب الدول الأخرى واقتطاع حصة أكبر من الثروة العالميـة مـن خلال التجارة الخارجية ، وهو ما يوجزه جورج جلدر فى مؤلفـه (الأغنياء والفقراء) بقوله ، إن الأمم فى ظل نظام التجاريين كانـت تستخدم التنظيمات والحملات التجارية التى تقوم على مبدأ : فلتجعل

جارك فقيرا كى تجنى الفوائد وتجمع السبائك الذهبيـــة Bigger My Neighbour Policy . وهذه الحالة عبر عنها جين بابتنت كـــولبرت Gean Baptint Colbert قائلاً: "التجارة تؤدى إلى عراك مستمر بين الدول سواء فى حالة السلم أو فى حالة الحرب" وأيـــده فـــى ذلـــك Fratncoisde Forbonnais قائلاً: "إن ميزان التجارة هو فى واقـــع الأمر ميزان القوة!" .

- وكان احتكار الدولة للصادرات، يتضمن فـــرض رســـوم وإقامـــة حواجز جمركية ، وهو ما ينفع الدولة وإن كان يضر باقتصاديات الدول الأخرى .
- أما فى السوق الداخلية ، فإنهم أخذوا بمبدأ حرية التجـــارة ، لأن الاحتكار فى هذه الحالة يسبب فرض أســـعار علـــى المـــستهلكين تفوق تكلفة الإنتاج ، وهو مـــا يـــؤدى إلـــى نقـــص الرفاهيـــة الاقتصادية.
- واتساقا مع هذه المبادئ ، نادوا أيضا ، بالرقابة علـــى الـــصرف الأجنبى لتمكين الدولة من توظيف حصيلة التجارة الخارجية فيما يعود عليها بالمنفعة.
- وتأتى رغبتهم فى تحقيق فائض فى الميزان التجارى ، كمحـــصلة منشودة لسياسة احتكار الدولة للتجارة الخارجية ورقابتها علـــى الصرف الأجنبى ، بهدف تعظيم ثروة الدولة من المعادن النفيسة وخاصة الذهب والفضة باعتبارهما عنصرين هامين فـــى تكـــوين الثروة.

وفى نهاية عصر التجاريين ، ظهرت أفكار جديدة ، تحض الدولة على زيادة ما تنتجه وتصدره من السلع والخدمات ، باعتبارها المصدر الحقيقى للثروة بدلا من تكديس المعادن النفيسة ، بما فيها الذهب والفضة ، التى تسبب توليد الموجات التضخمية ، وتؤدى إلى ارتفاع الأسعار ، وتدهور مستوى معيشة السكان ، واختلال الميزان التجارى .

وقد شبه دافيد هيوم (١٧١١-١٧٧٦) سياسات التجاريين التى تسعى إلى تقييد وتنظيم النشاط الاقتصادى عن طريق إصدار التشريعات والقوانين ، بأنها "أشبه بالجهاد لمنع الماء من بلوغ مستواه الطبيعى ".

* * *

وفى إطار الصراع الدائر بين الرأسمالية التجارية البازغة ، والأرستقراطية الزراعية البائدة ، ظلت الأخيرة ، تقاوم بشراسة دفاعا عن مواقعها التى احتلتها قرونا عديدة وعن مصالحها وامتيازاتها ، التى آلت إليها بالميراث والإكراه . واعتبرتها حقوقا مقدسة لا تمس . فجاء فكر الطبيعيين مناقضا ومعاديا لفكر التجاريين ، فانصب على إعلاء دور الطبيعة وتمجيد نشاط الزراعة واعتبارها مصدر الثروة الوحيد المنتج الذى يخلق القيم ويولد السلع ، وما يترتب على ذلك من سلطة سياسية ومكانة اجتماعية لملاك الأراضى وأصحاب العقارات . أما الأنشطة الأخرى ، مثل التجارة والصناعة ، فهى فى نظرهم ليست أكثر من تحولات فى

صور المواد التى تنتجها الزراعة . وقد تم توظيف هذا الفكر لتبرير تميز الملاك العقاريين والأرستقراطيين الزراعيين ، الذين يحصلون على دخول ريعية دون أن يبذلوا جهدا إنتاجيا . وهو بالطبيعة ، كان فكرا معاندا ومقاوما لطموحات وتطلعات الرأسمالية التجارية والصناعية الصاعدة فى ذلك الوقت .

وتعتبر فكرة الناتج الصافى ، الذى تولده الزراعة ، هى الفكرة المحورية لدى الطبيعيين . حيث يتدرج التقسيم الاجتماعى للعمل من الأرستقراطيين ملاك الأراضى ، ومهمتهم ، توجيه الإنتاج الزراعى، وإليهم، يرجع العائد الصافى ، وعليهم ، تقع المسئوليات الاجتماعية والسياسية ، ويليهم المنتجون الزراعيون ، ثم فى مرتبة أدنى يأتى التجار والصناعيون والحرفيون على التوالى .

وعلى عكس التجاريين ، نادى الطبيعيون بحرية التجارة الخارجية والداخلية لأنها تتفق مع القانون الطبيعى للحياة القائمة على الحرية وتوافق الإنسان مع البيئة وتؤمن لهم فتح الأسواق أمام المنتجات الزراعية ، كما نادوا أيضا بسياسة عدم الاحتفاظ بالثروة فى صورة سلع نفيسة من ذهب وفضة ومعادن ، لأنها فى نظرهم ليست إلا ثروات عقيمة ، لا تلد منتجات أو تخلق منافع .

وعلى الرغم من إسهامات بعضهم ، مثل فرانسوا كينيه (١٦٩٤-١٧٧٤) Francois Quesnay مؤسس هذه المدرسة ، الذى نشر مؤلفا عن الجدول الاقتصادى ، ونشر آخر عن القانون

الطبيعى ، وقدم أساسا نظريا لكيفية توزيع الناتج الصافى بين طبقات المجتمع ، ووضع بعد ذلك أساسا لنماذج المدخلات والمخرجات ، فإن هذه الأفكار لم تلق رواجا وتوارت عن الأنظار عندما زال أساسها الاقتصادى والسياسى المتمثل فى نفوذ طبقة ملاك الأراضى الذين أطاحت بهم الثورة الفرنسية (عام ١٧٩٨) وما تلاها من ثورات برجوازية عمت أوروبا الغربية .

فلقد أنهت الثروة الفرنسية النظام الإقطاعى والكهنوتى ، وحررت المجتمع من سلطة الملك والكنيسة ، وهيأت الظروف لإقامة نظام رأسمالى وصناعى جديد أكثر تقدما ، تأسس على العلم والتكنيك والصناعة والديمقراطية التى مثلت من بعد ذلك نهاية التاريخ . End of History

* * *

(٤) الرأسمالية الصناعية

من المعروف أن الثورة الصناعية لم تحدث فجأة أو بدون مقدمات، ولكنها نشأت وتطورت على مراحل :

- فى المرحلة الأولى: من ١٥٧٠ إلى ١٦٥٠ تحددت خطوطها العريضة.
- وفى المرحلة الثانية: من ١٦٥٠ إلى ١٧٥٠ انتشرت كل آثارها وظهرت تجلياتها.
- وفى المرحلة الثالثة: من ١٧٥٠ إلى ١٨٥٠ ، تطور التقسيم الفنى للعمل، وشق التطور الصناعى مجراه فى الحياة ، وشكل الأساس لكافة التطورات الاجتماعية والسياسية والفكرية والعلمية فى أوروبا فى الماضى وفى الحاضر.

فالثورة الصناعية ومعها "المجتمع الصناعى" : هى منظومة متكاملة من النظم القانونية والاقتصادية والسلوك الاجتماعى مع بنية أساسية من الثقافة الرفيعة و القيم الراقية حسبما يقول الدكتور حازم الببلاوى.

فطوال تلك المراحل الثلاث عانت القارة الأوروبية مخاض التحول من المجتمع الإقطاعى المنهار إلى المجتمع الصناعى الرأسمالى الصاعد. وفيها تم إلغاء نظام الطوائف الحرفية Cast system بداية فى كل من فرنسا (١٧٩١)، ثم إنجلترا (١٨١٤) . وبالغاء هذا النظام، أصبح لكل فرد الحق المطلق فى مزاولة أية حرفة أو مهنة يبغى احترافها

وفى إبرام أى عقد مع الآخرين فى شأن بيع سلعته أو بيع خدمة عمله أو جهده .

وفى ذلك الحين ، تولدت ظواهر جديدة لم تكن مألوفة من قبل، وهى :

- تكدس آلاف وملايين العمال الذين لا عمل لهم فى المدن والذين عانوا من شظف العيش وبؤس الفاقة ، والذين - من بينهم - كان الحظ يصادفهم فى الحصول على فرصة عمل ، كان يوم عملهم يصل إلى ست عشرة ساعة يوميا ، فى ظروف غاية فى الشقاء والقسوة ، وكذلك كانت معدلات أجورهم تنحدر إلى حد الكفاف أو تنخفض عنه .
- وعلى الجانب الآخر ، يتبارى الرأسماليون فى تكديس الأرباح ، ويتنافسون فيما بينهم على إنتاج السلع وتصريفها فى سوق تنافسية، لا تكل ولا تمل ولا تعرف للرحمة سبيلا . حتى غدت هذه السوق Market هى المنظم لنوع جديد من الحياة الاقتصادية . وأضحت هى الميدان الذى تنصب فيه كل النشاطات الاقتصادية ، والإطار الذى يبلور كل أنواع التناقضات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية .

***

ويجمل المفكر المصرى المبدع السيد يس فى مقاله "تنمية الثقافة فى عصر الحداثة" تلك التحولات العميقة التى انتقلت بسببها أوروبا من التخلف إلى التقدم ومن الإقطاع إلى الرأسمالية ومن المجتمع

الزراعى إلى المجتمع الصناعى فى ثلاثة مبادئ أساسية وهى : الفردية والعقلانية والحرية.

• والفردية: هى أهم هذه المبادئ قاطبة ، ومرد ذلك إلى أن وجود الفرد باعتباره كائناً متفرداً له خصوصيته لم يتحقق إلا فى إطار المجتمع الصناعى الذى قام على أنقاض المجتمع الزراعى التقليدى الإقطاعى. هذا المجتمع الذى لم يكن يضع اعتباراً للأفراد من حيث هم ، لأنهم كانوا يذوبون فى كيانات أوسع ، قد تكون القبيلة أو الجماعة العرقية أبرز أشكالها.

ولذلك يمكن القول أن البرجوازية الأوروبية وهى فى سبيلها للتطور والنمو عمدت إلى أن تستخلص الفرد من قبضة البنية الشمولية فى المجتمعات الزراعية التقليدية ، لذلك كان شعار الرأسمالية المبكرة الشهير هو "دعه يعمل دعه يمر" Laissez faire Laissez Passe.

- ومعنى الشق الأول (دعه يعمل) ، أن يترك للفرد حرية اختيار العمل الذى يتفق مع إمكاناته وقدراته بدلا من أن يجبر على العمل إجباراً فى المجتمع الزراعى والإقطاعى، بدلا من أن يقوم بأعمال لم يخترها بإرادته الحرة.
- ومعنى الشق الثانى (دعه يمر) ، أنّ الفرد الذى كان أسير حدود المجتمع الزراعى الإقطاعى القديم ، والذى لم يكن يستطيع الانتقال من مكان إلى آخر إلا بأمر السيد الإقطاعى ، أن

الأوان فى ظل الراسمالية كى يكتسب حرية التنقل كاملة بغير حدود ولا قيود.

ولأن السوق هو الوحدة الاساسية التى قام على أساسها المجتمع الصناعى، قامت الرأسمالية الأوروبية المبكرة بإطلاق عنان الأفراد لكى يتنافسوا منافسة حرة فى الأسواق ومن ثم كان لابد من تحرر الفرد من كل القيود التى كانت تحد من حركته ، وإعطائه الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تجعله مشاركا فى عملية التنمية.

- والعقلانية: هي المبدأ الثانى لثقافة التنمية فى عصر الحداثة، غير أنها لم تترسخ كقيمة من قيم ثقافة التنمية فى المجتمع الصناعى إلا بعد أن قام المجتمع الأوروبى بثورة ثقافية . ثارفيها على الكنيسة التى سيطرت بجمودها الفكرى وتأويلاتها الدينية الجامدة وأحكامها المتطرفة على المجتمع ، عندما استندت إلى النص الدينى كاساس لإدارة شئون المجتمع فى ظل مناخ سياسى واجتماعى ساده القمع ، وقد تولد عن هذه الثورة فصل الدين عن الدولة ، واعتبار العقل -وليس النص الدينى- هو محك الحكم على الأشياء بما فيها التعليم والبحث العلمى والتنمية ، وهو ما ساعد على النهوض بأحوال البشر فى ضوء فلسفة إنسانية جديدة وغير مسبوقة مبناها أن الإنسان يستطيع السيطرة على الطبيعة

ويشكلها كما يشاء ، وبالتالى فإن مصيره -عكس ما تم فى القرون السابقة- لن يترك لتصاريف القدر أو للمصادفة.

- والحرية: هي المبدأ الثالث لثقافة التنمية في عصر الحداثة، فقد جعل المجتمع الصناعى من الإرادة البشرية الحرة أساس بناء المجتمع الحديث والدولة الحديثة أى مجتمع الطبقات المفتوحة، وليس مجتمع الطوائف المغلقة . والمجتمع المفتوح هو المجتمع المدنى الذى يمارس فيه الفرد حريته ، بعيداً عن الخضوع للدولة. مجتمع المواطنين لا الرعايا . والدول الحديثة ، هى دولة الدستور لا دولة الاستبداد ، ودولة حرية التفكير ، وحرية التغيير وحرية الاعتقاد ، لا دولة اعتقال التفكير أو تحريم التعبير أو اضطهاد من لا يدينون بالعقيدة السائدة فى المجتمع.

وفي كلمة ختامية يقول السيد ياسين أن هذه الحداثة الغربية قد تجلت فى المجتمع الصناعى الذى يعتمدُ على العلم والتكنولوجيا لإشباع الحاجات الأساسية للسكان. لذلك لم يكن من قبيل المصادفة على الإطلاق أن تنعم الشعوب الأوروبية بالرخاء ، بينما ظلت شعوب العالم الثالث تراوح فى مكانها عند مستويات دنيا من التخلف والانغلاق والفساد.

***

(٥) جحيم الشيوعية

على النقيض من القيم الرأسمالية التى عمت بلدان غــرب أوربــا "تأسست الشيوعية" فى الإتحاد السوفيتى والــصين وبلــدان شــرق أوربا *..

ففى عام ١٩١٧ قاد الحزب الشيوعى بقيادة لينين ثورة ناجحــة على النظام الإقطاعى شبه الرأسمالى القيصرى فى روسيا كى يبنــى مجتمعاً مثالياً لا طبقياً ينعم فيه النــاس جميعــا بالحريــة والإخــاء والمساواة الاجتماعية. وفيما بعد أسست الأحــزاب الــشيوعية فــى البلدان الآسيوية والأوروبية الــصغيرة المجــاورة لروســيا نظمــاً شيوعية تحالفت معها وكونت الاتحاد السوفيتى. وبعد توقف الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) وبمساعدة من الاتحاد الــسوفيتى استولت الأحزاب الشيوعية على السلطة فى بلدان أوروبا الــشرقية وتحالفت مع الاتحاد السوفيتى مكونة المعسكر الاشــتراكى بقيــادة روسيا (USSR)، فى مواجهة المعسكر الرأســمالى بقيــادة أمريكــا U.S.A. وإثر ذلك مباشرة قامت الثورة الشيوعية بقيــادة ماوتــاس تونج فى الصين (١٩٤٩) ، والثورة الشيوعية بقيادة هومش منــه فى فيتنام الشمالية ، تبعتها ثورات شعبية شيوعية فى كل من لاوس وكمبوديا وكوريا الشمالية فى آسيا، تلى ذلك ثورة شيوعية بقيــادة كاسترو وجيفارا فى كوبا بأمريكا اللاتينية. وفى غمار ذلك ، قامــت ثورات التحرر الوطنى ضد الاستعمار فى البلدان المتخلفة وأســست نظماً شمولية واستبدادية وإن كانت ترفع رايات الاشتراكية.

---

(١) راجع كتابنا الطريق الثالث

* وفى مجال التطبيق ، تكشفت المقابلة بين النظاميين ، الرأسمالى ونقيضه الاشتراكي ، عن ظهور ثلاث طبقات متعارضة المصالح والأهداف هم : الملاك ، والإجراء، والبيروقراط :
* والملاك ، هم حائزوا وسائل الإنتاج وهم أسياد النظام الأول .
* والبيروقراط ، هم حائزوا جهاز الدولة وهم أسياد النظام الثاني . وفى حال التحول من النظام الأول إلى النظام الثاني ، تتلاشى طبقة الملاك، وتتوحش طبقة البيروقراط .

والبيروقراط ، هم سلطة بغير ملكية : فرغم عدم تجانسهم إلا أنهم واعون تماما لمصالحهم الخاصة . وهم يتدرجون فى المراكز الاجتماعية ، وتتفاوت أنصبتهم من الفائض الاقتصادي تبعا لتفاوت درجاتهم فى سلم النظام الهرمى للدولة ، فهم حراسها وحماتها والمستخدمون لديها ، ومسيروا دولاب العمل فيها ، وحملة مباخرها ، ومرددو شعائرها ، وحائزو مفاتيح خزائنها . منهم : البنكير ، وموظفو الدواوين ، وترزية القوانين ، والعسكر على اختلاف مراتبهم، ورجال السلطة أينما احتلوا مواقعهم . والبصاصون ، والصحفيون، والإعلاميون ، ورجال الدين ، وإلى غير ذلك من الصفوة ورجال النخبة المميزين .

أما الطبقة العاملة ، فقد ظلت على ما هى عليه ، كسيرة القلب مسلوبة الحق ، أسيرة فى قاعدة الهرم الاجتماعي بكلا النظامين. وفى مجال الإنتاج ، ظهر التمايز بين هذه الطبقات الثلاثة:

• فالرأسمالية ، طبقة ثورية ، تسعى إلى تطوير وسائل الإنتاج . بغية تعظيم الأرباح والفوز فى حلبة المنافسة الاقتصادية التي لا ترحم الضعفاء ، حيث تغرس قيم الانضباط والنظام والدأب والدقة واحترام التكامل فى العمليات الإنتاجية ، وغير ذلك من قيم النشاط الإنتاجى ، وخاصة ما حققته من إبداع نظام المصنع من حيث كفاءة إدارته وضبط عملية تقسيم العمل فيه. وهو ما اعترف به ماركس ذاته ، عندما أعلن أن الرأسمالية خلقت ، خلال سيطرتها التى لم تكن مسيرتها قد جاوزت مائة عام آنذاك، من قوى الإنتاج. قدرا أكبر وأضخم مما خلقته كل الأجيال السابقة عليها مجتمعة.

• والعمال ، هم أيضا طبقة ثورية ، تسعى إلى تنمية المهارات وتعظيم القدرات عن طريق الارتقاء بالتعليم والتدريب والتأهيل ، بغية الفوز بفرص العمل عالية المهارة، مرتفعة الإنتاجية ، ثرية الدخل ، التى يولدها التطور المتسارع فى وسائل الإنتاج.

• أما البيروقراط ، فهم طبقة خاملة وغالبا فاسدة :

- ففى ظل الرأسمالية ، يلعب المستخدمون دورا هامشيا فى الإنتاج ، ودورا ثانويا فى الصراع الاجتماعي . فهم ليسوا من العمال ، وليسوا من حائزي وسائل الإنتاج، وإنما هم مسيرو دولاب العمل فى مؤسسات الدولة ودواوين الحكومة .

- أما فى ظل الاشتراكية ، حيث تتوحش الدولة ، حينما تمتلك جميع وسائل الإنتاج، وتسيطر على كافة مصادر الرزق وينابيع

الحياة ، وتمد أزرعها إلى كافة مواقع العمل ومراكز الخدمات ، وتنشب مخالبها فى كافة خلايا المجتمع، وشـــرايينه المغذيـــة . آنئذ تتحول البيروقراطية إلى كائن خرافى يفترس كل ما تـــراه عيناه ويدهس كل ما تطأه قدماه .

***

وفى الجملة..

لم يتغير حال الشعب كثيرا بعد التحـــول مـــن الرأســـمالية إلـــى الشيوعية. فقد تم قهر الإنسان مرتين ، وتبددت أحلامـــه فـــى كـــلا النظامين. فى الأول ، وهو يحلم بالثروة . وفى الثاني ، وهو يحلـــم بالدولة. فلم ينعم بالثروة ، ولم يحظ أبدا بالعدل من الدولة .

ولم تكن قضية البيروقراطية وأثرها المدمر على الاقتصاد والمجتمع والشعب غائبة عن وعى رواد الماركسية الأوائل . فقد كان إنجلز قد تنبأ بأن نمو بيروقراطية الدولة هو بداية مـــسار يهـــدد بـــافتراس المجتمع كله . وهو ما حدث بالفعل وأدى إلى انهيار النظام الشيوعي بأكمله.

ومنذ البداية ، حذر " لينين " من خطر تضخم دور الدولة علـــي النظام الاشتراكي، واعتبرها مرضا سرطانيا يمكن أن يقـــضى علـــى الدولة برمتها. عندما أشار إلى أن قوة الدولة يجب أن تتناسب مـــع حدة التناقضات الاجتماعية الكامنة فيها .

ففى ظل الاشتراكية ، تتلاشى هذه الحدة ، وتصير الدولـــة ملكـــا للغالبية الساحقة من الشعب ، وبذلك تصبح وظيفتها هى منع الأقلية الرأسمالية من استعادة السلطة ، ومن ثم ، لا يجب أن تصل الدولـــة

الاشتراكية إلى حالة من التضخم أو العنف أو القمع بحيث تعوق نمو القوى المنتجة .

فالدولة ، من وجهة نظر لينين ، لا تمارس عمليات القهر إلا فى النظام الطبقي، الذى يوظفها لخدمة الأقلية وحماية استغلالها واضطهادها للغالبية العظمى من الشعب ، مثلما هو حادث بالفعل فى النظم العشائرية والإقطاعية والعسكرية والرأسمالية المستبدة ، أما فى النظام الاشتراكى ، حيث يعم الوفاق وتسود العدالة بين الناس فانه يجب على الدولة ألا تمارس عمليات القهر مطلقا .

واتساقا مع هذا ، أيد لينين، أيضا ، حق العمال فى تكوين مجالسهم العمالية لمراقبة سلوك البيروقراطية ، وأشار إلى أن دولته الاشتراكية، هى دولة عمالية مشوهة بيروقراطيا.. ودعا البروليتاريا إلى أن تنظم صفوفها جيدا كي تدافع عن نفسها، وحرض المنظمات العمالية علي الزود عن العمال فى مواجهة البيروقراطية، وحفزهم فى نفس الوقت إلى الدفاع عن دولتهم الاشتراكية ضد أعدائها .

* * *

كان ذلك هو النموذج والمثال ، أما التطبيق.. فكان نقيض ذلك.

حيث أعلن جاجا نوفيتش ، المسئول الأول عن الصناعات الثقيلة فى روسيا فى الفترة ٢٨-١٩٣٣ ، أنه بات من الضروري ، الانطلاق من افتراض أساسى يقر بأن المدير **Administrator** هو المسئول الأعلى للمصنع، وأن على جميع المستخدمين فيه أن يخضعوا له كل الخضوع .

وهكذا ، ثبت منذ البداية عدم قابلية النظرية للتطبيق . فقد تم وأد المجالس العمالية التى نادى بها لينين فى مهدها، وصدر قرار ستالين بحلها، فلم تكن أكثر من مجرد حلم جميل تبدد عند ظهور شمس الصباح.

وعليه ، ففى عهد الشيوعية، لم يتغير حال الشعب كثيرا عنه فى عهد الرأسمالية . فقط ، لم يتغير سوى نوع السلاسل .

- فبعد أن كان الهرم الاجتماعي مدرجاً فى مستويات متلاحقة من الملكية ، صار هرما مدرجا فى مستويات متلاحقة من السلطة . هرما يتوسد الشعب أساسه ، ويتسيد الحاكم قمته ، وتتدرج فيه البيروقراطية صعودا وهبوطا بين القمة والقاع .
- وكما كان فى الحال فى عهد الرأسمالية ، ظل هرم توزيع الدخل مقلوبا . يضيق كلما اتسعت قاعدة السكان . ويتسع كلما ضاقت قمة السلطة . أي أن قضيتي الثروة والسلطة . ظلتا على حالهما مصدرا للسخط ومولدا للثورة .

* * *

ومما لا شك فيه أن صمود الرأسمالية ، على هذا النحو، رغم طبيعتها الاستغلالية ، وانهيار الشيوعية مع دعواها بالعدل والحرية ، يعزى فى المقام الأول إلى استقرار التقاليد الديمقراطية التى ترسخت فى البلدان الرأسمالية واكتسبت طابعا مقدسا لدى الشعوب التى آمنت بها وناضلت طويلا من أجلها حتى نالتها .

* ففى ظل النظام الرأسمالي ، تمكن ممثلو الطبقة العاملة والفئات المتحالفة معها من الولوج إلى مؤسسات الدولة البرجوازية ،

ونجحوا فى تمرير سياسات إصلاحية تحد من الآلام المصاحبة للنمو الرأسمالي ، وتخفف من غلوائه ، وتمتص الغضب الثورى للعمال . كما نجحوا كذلك ، فى إصدار تشريعات مناهضة للاحتكار والإغراق . وهو ما وفر البيئة المناسبة لنمو روح المنافسة والاختيار الحر . وبذلك ، برهنت الرأسمالية عالية التطور على قدرتها على تخطي أزمتها العامة وتطوير قوى الإنتاج بمعدلات عالية، ومعالجة العديد من الأعراض الجانبية المصاحبة لهذا التطور.

* وتأكيدا لهذا ، يقر لينين بأن الجمهورية الديمقراطية ، والحق الانتخابي العام فى الدول الرأسمالية ، هما ، تقدم هائل مكن البروليتاريا من بلوغ ما بلغته من الاتحاد والتراص ، ومن تشكيل تلك الصفوف المنظمة والمدربة التى تقوم بنضال منظم ضد رأس المال . وأضاف ، أن الجمهورية البرجوازية والبرلمان والحق الانتخابي العانم ، هي كلها، من وجهة نظر التطور العالمى للمجتمع ، تمثل تقدم هائل بكل المعايير. وأكد على أنه لولا البرلمانية ، ولولا ممارسة الحق الانتخابي فى حرية ، لكان تطور الطبقة العاملة هذا يعد أمرا مستحيلا .

* وفى إطار الفكر الاقتصادي الرأسمالي ، وفرت الكينزية تبريرا نظريا لتدخل الدولة في الاقتصاد ، من أجل تنشيط الطلب الفعال لدي طبقات السكان الأقل دخلاً والأكثر عدداً والأعلى ميلاً إلى الاستهلاك . فأقرت تعويضات البطالة ، وتوسيع منظومة التعليم العام ، ونشر مظلة الضمان الاجتماعي ، وحظر تشغيل الأحداث ،

وتوفير دور الرعاية للمسنين والمعاقين والأطفال ، وكان هذا إيذانا بحلول طور الرأسمالية الاجتماعية، محل طورها الوحشي ، الذي ساد مراحل نموها وصعودها والذي لم تعد ظروف العصر الحديث تسمح بتكراره.

*وكان للتطور التكنولوجي والتوسع في الإنتاج أثر كبير في توفير فائض متدفق من السلع والخدمات يجد طريقه إلي جموع العمال ، ويخفف عنهم آلام البؤس والفاقة ويلطف جموحهم نحو التمرد والثورة. ولهذا ، لم تنجح الشيوعية في الولوج إلى البلدان الرأسمالية الصناعية المتقدمة ، كما كان كارل ماركس يتمناه ويتوقعه . ولكنها نجحت إلي حد كبير في اجتياح البلاد التي يسودها التخلف الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، ويعمها البؤس ، ويتجول فيها الفقر حرا من أى قيد ، كما كان الحال في روسيا وكوريا وفيتنام وكوبا والصين، في سياق ظروف الحرب والفوضى. كما نجحت كذلك في بلدان شرق أوربا ، في ظل حماية القوات السوفيتية المنتصرة إثر الدمار الشامل والفوضى العارمة التي خلفتها النازية وراءها بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية.

وكان لينين ، على النقيض من ماركس ، قد نادى بذلك داعيا إلى ضرب الرأسمالية فى أكثر حلقاتها ضعفا وتصفيتها وإحلال الشيوعية محلها، وهو ما تم بالفعل في تلك البلدان .

وبذلك ، برهنت الرأسمالية ، في الدول الصناعية المتقدمة ، علي أنها محصنة إلي حد كبير ضد انتصار الثورة الشيوعية .

وتأكيدا لذلك يقول " جالبريث " أن التغيير الذي حدث في روسيا في سنوات ثورة أكتوبر ١٩١٧، لم يكن هو التغيير الذي تنبأت به الماركسية .

ففي حين كانت الماركسية قد تنبأت بأن التغيير يقوم به العمال ضد سلطة الرأسماليين واستغلالهم في البلدان الرأسمالية الصناعية المتقدمة مثل ألمانيا وانجلترا وأمريكا . فإن الانتفاضة الثورية التي حدثت في روسيا، لم تقم ضد نظام رأسمالي متقدم ، ولكنها قامت ضد نظام زراعي وقمعي عتيق. وضد تسلط حكومة تمثل تلك المصالح بطريقة استبدادية وفاسدة في الوقت نفسه . كما أن الزراعة وملاك الأراضي، لا الصناعة والرأسماليين، هم الذين كانوا من الأسباب الممهدة للثورة في القرن الأخير.

وتعليقا على ذلك قال كرين برنتون : "أن اعظم خدمه أداها لينين عمليا للماركسية ، هى ما قدمه لها كمنظم لثورة ناجحة فى بلد متخلف" .

***

وهكذا ، كانت الماركسية هى النظرية ، وكانت الشيوعية هى التطبيق.

فالشيوعية جاءت تطبيقا عمليا للماركسية ، وأساسا لتحولها من مجرد كلمات ومعاني إلى نظام ودولة .

- فالأولى (الماركسية)، هى النموذج والمثال.
- والثانية (الشيوعية) ، هى الواقع المعـــاش.

فالماركسية ، صورة من تجليات الوعى وحالة من حالات الفكر . أما الواقع المعايش، فهو كائن اجتماعي حي متغير علـــى الـــدوام. وعلى سبيل المثال ، فإن فكرة الحزب الطليعى الذى يـــضم صـــفوة المثقفين الثوريين هو اختراع لينينى خالص . كذلك فـــإن الهيمنـــة الشاملة للدولة هى تطبيق ستالينى خالص .

وبمنهج الماركسية ذاته ، فإن الوجود الاجتماعي هو الذى يحـــدد الوعى الاجتماعي. فالأول ، متغير مستقل. والثاني ، متغير تابع . وهما مترابطان معا ، ويغذى كل منهما الآخر في وحدة جدلية. ولذا، فإنه عندما تتحول النظرية إلي عقيدة جامدة ، ويتم تقديس النصوص ، يستحيل تغييرها وتفقد وظيفتها كأساس حر متطـــور لعلـــم نمـــو وتطوير المجتمع .

وهو ما يتعارض مع قول ماركس أن الثورات البروليتارية " تنتقد نفسها بنفسها على الدوام ، وتتوقف بين فترة وأخرى فى ســـيرها ، وتعود إلى نقد ما بات يبدو منجزا ، كى تبدأ مرة أخرى بعد بذلك من جديد ، وتسخر بطريقة لا رحمة فيها من الصفة النصفية والجوانب الضعيفة والطابع غير الصالح لمحاولاتها الأولى ".

وعلى النقيض من ذلك ، فبدلاً من أن تتغيـــر النظريـــة اســـتجابة لتغيرات الواقع الموضوعي والوجود الحي كما قال ماركس، جـــري

تطويع الواقع وتكييفه ليتلاءم مع نصوص النظرية كما فعل ستالين ومن قبلة كان لينين.

ولأن النظريات المقدسة لا تشرح نفسها بنفسها ، لذا كان من الطبيعي أن يتحلق حولها مفسرون وشراح وكهنة معصومون ، يصفهم ستالين وهو منهم ، قائلا : " نحن الشيوعيين بشر من طبيعة فريدة ولم يسبق لنا مثيل ".

ولأن هؤلاء في الواقع ، قاصرون عن امتلاك الحقيقة المطلقة لكونهم بشر. ولأن مصالحهم تتعارض مع غيرهم باعتبارهم أفراد. ولأنهم يستحوذون بالقوة والقهر علي السلطة الحاكمة فى بلادهم باعتبارهم ثوار. فإنهم كانوا يقربون من والاهم . ويبعدون من عاداهم، ويسعون إلي إخضاع الناس واسترقاقهم واستحلال عائد قوة عملهم بكل شكل من أشكال العنف المقدس والمدنس في آن واحد .

وتدليلا على ذلك . يستشهد الدكتور حازم الببلاوى برواية للكاتب البريطانى جورج أورويل (١٩٠٣-١٩٥٠) تنبأ فيها بأن سلطة الدولة الشمولية سوف تقضى على حرية الأفراد بما تمارسه عليهم من رقابة (احترس ، فالأخ الأكبر يراقبك) وبما دأبت عليه من مصادرة للمعلومات وتطويعها وتحريفها عن طريق وزارات الحقيقة (أو قل بالأحرى وزارات التزييف) فالأخ الأكبر لم يكن سوى الزعيم أو الحزب الذى يراقب الكل ويصيب الجميع بالرعب .

ومثل هذا السلوك المؤدى إلى عبادة الفرد وتقديس الحاكم يتعارض مع فكر ماركس وممارساته السياسية . فقد ذكر فى رسالة بعث بها إلى بلوس: " إن انتمائى وانتماء إنجلز - إلى عصبة الشيوعيين السرية - جرى تحت شرط لابد منه ، وهو : أن يحذف من نظامها كل ما هو من شأنه أن يساعد على الركوع الخرافى أمام الشخصيات المهيبة " .

وهكذا ، تحول حلم الماركسية الجميل ، إلي كابوس الشيوعية الأليم.

فتحولت وسائل الإنتاج من الملكية الخاصة إلي ملكية الدولة . وتحولت الدولة من ديموقراطية البرجوازية إلي ديكتاتورية البروليتاريا ، وتحول تخصيص الموارد من اقتصاد القواعد إلي اقتصاد الأوامر ، وتحولت قوة العمل من التبعية لصاحب العمل إلي الخضوع لرئيس العمال Administrator ، وانتقل فائض القيمة من رصيد الرأسمالية إلي جيوب البيروقراطية ، وبعد أن كانت الأولي تسلب العمال عائد قوة عملهم وتمنحهم حرية الحركة ، فإن الثانية، سلبت كليهما معاً ، الحرية وعائد قوة العمل ، في آن واحد .

لا فرق إذن بين النظامين . غير أن البيروقراطية اتسمت بالجمود أما البرجوازية فإنها اتسمت بالديناميكية وامتلكت القدرة علي تجديد قواها وتصحيح أخطائها بنفسها ، لذلك انهارت الشيوعية، وظلت

الرأسمالية علي حالها ، أبواقهـا مدويـــة ، وأعلامهـــا مرفوعـــة ، وسيوفها لامعة .

***

وهكذا ، ثبت، بما لا يدع مجالا للشك ، أن الاشتراكية لا تنمو ولا تتطور ولا تستمر دون ديمقراطية.

والديمقراطية Democracy ، تعنى تنظيما للدولة والمجتمع يكرس التداول السلمي للسلطة ، ويتيح مـــشاركة المـــواطنين فـــى الإدارة والحكم. ويكفل حرية الرأي ، ويقدر شرف الكلمة، ويـــضمن حـــق الاجتماع ، ويصون كرامة الإنسان ، بحيث يصبح المواطنون جميعا أمام القانون، وفى الحياة ، سواء بسواء دون وصاية أو إكـــراه أو حرمان.

وتـــداول الـــسلطة Authority Deliberation ، هـــو جـــوهر الديمقراطية. وهو بالضبط ما حرمت منه الرعية Subject فى نظـــام الدولة الشيوعية .

فقد تم اختزال الشعب اجتماعيا فى الطبقـــة العاملـــة . واختـــزال الطبقة العاملة سياسيا فى الحـــزب الـــشيوعي . واختـــزال الحـــزب الشيوعي عمليا فى اللجنة المركزية . واختزال اللجنـــة المركزيـــة إرهابا فى المكتب السياسي . واختزال المكتب السياسي إذعانا فـــى الحاكم الفرد.

***

ففي ظل الدكتاتورية ، أي نوع من أنواع الدكتاتورية ، تتجمد إرادة الأمة كلها فى قبضة رجل واحد ، حاكم واحد أحد ، لا راد لمشيئته ، ولا عاصم من قضائه ، وهو ما لا يستقيم مع أمور الدنيا و لا يتفق مع صحيح الدين ، وإن سكت عن ذلك فقهاء السلطة الذين أعتادوا السكوت عن الظلم.. سكوت الشيطان الأخرس عن إعلان الحق .

وفى هذا الصدد يمكن رصد قليل ، من كثير ، من المؤشرات الدالة على تعسف السلطة الشيوعية وعدوانيتها تجاه الطبقة العاملة والشعوب التي انطوت تحت رايتها :

- ففي عام ١٩٢٤ ، حذر ستالين قواعد الحزب الشيوعي وجماهير الطبقة العاملة معلنا لهم " أن التفكير ممنوع لأن اتخاذ القرارات من اختصاص الرؤساء وذوى الشأن الذين يفوقونكم فهما وذكاء"..
- وفى عام ١٩٢٧ ، أنذرت جريدة البرافدا ، الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوفيتي ، المعارضين للحزب داخل اللجنة المركزية وتوعدتهم بأنه " فى ظل دكتاتورية البرولتياريا يمكن أن يوجد حزبان أو ثلاثة أو حتى أربعة لكن بشرط واحد فقط ، أن يكون أحدهم فى السلطة ، والآخرون فى السجن " ثم شددت الوعيد لهم فذكرتهم " أن من لم يفهم هذه الرسالة ، فإنه لم يكن قد فهم ذرة واحدة من جوهر دكتاتورية البرولتياريا ، ومن جوهر دكتاتورية الحزب البلشفي .
- وفى عام ١٩٥٦، كشف تقرير الزعيم الروسي " نيكيتا خرو تشوف "أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي ، عن

أنه قد تم اعتقال وإعدام ٩٨ عضوا من جملة أعضاء اللجنة المركزية البالغ عددهم آنئذ ١٣٩ عضوا، وهم الذين إنتخبوا فى المؤتمر السابع للحزب . أى أنه فى عامين فقط هما عامى ١٩٣٧، ١٩٣٨ . قد تم اغتيال وإعدام ٧٠% من أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي على يد ستالين وعصابته. وكان قد سبق له اغتيال تروتسكى فى منفاه الاختياري فى المكسيك عام ١٩٤٣ ، وهو واحد من أكبر قادة الحزب الشيوعي السوفيتي ومنظريه، إلى جانب لينين وستالين.

- واتساقا مع هذا ، نشير إلى ما عاناه اقتصادي اشتراكي قدير وقيادي شيوعي كبير هو" أوسكار لانج " الذى ضحى بالحياة الرغدة في الغرب وعاد إلى بولندا . بعد أن أصبحت شيوعية . ليتولى فيها منصبا رفيعا وهو رئاسة المجلس الاقتصادي الأعلى للدولة . فقد صرح لصديقه الحميم " بول سويزى " الماركسي الأمريكي ، أنه في تلك السنوات التى عاشها فى بولندا ، لم يكن يأوى إلى فراشه في أي ليله دون أن يتساءل في نفسه عما إذا كان سيقبض عليه قبل طلوع الفجر أم لا . فقد كانوا هناك قد أنتجوا زوار الفجر قبل أن ينتجوا للناس أسباب الحياة .
- ففي خلال السنوات من ١٩٣٨ حتى تاريخ وفاة ستالين عام ١٩٥٣، وهي الفترة التي تولي فيها "بيريا " وزارة الداخلية

بالاتحاد السوفيتي ، كانت حصيلة القمع قتل أكثر من عشرين مليون مواطن سوفيتي ، ونفي حوالي ١٤ مليون آخرين إلي سيبيريا وباقي أصقاع روسيا ، أي أنه خلال نحو ستة عشر عاما فقط قد تم قتل ونفى نحو ٣٤ مليون من البشر، أى بمعدل ٢مليون مواطن كل عام . وفى حديقة منزله عثر الباحثون على هياكل عظمية لفتيات صغيرات كان "بيريا " وزير الداخلية قد قتلهن بعد اغتصابهن . وهكذا توحدت أهداف ستالين مع ممارسات بيريا . توحد الطاغية مع السفاح فى نظام واحد .

- وعلى نفس الطريق ، المعمد بالدم . سارت الأمور فى كل الدول ذات النظام الشيوعي . وما حدث للثورة الثقافية الصينية ، من تخريب وتدمير للقوة البشرية والمادية مازال عالقا بالأذهان . أما ما حدث فى كمبوديا عندما تم إبادة ثلث الشعب وإعادة الباقين منه إلى بيئة العصور الهمجية فإن التاريخ لن ينساه أبدا وسيظل وصمة عار تطارد البشرية لأنها سكتت عن ذلك ولم تغيره ولم تمنعه .

ولكى يتحقق ذلك كله ، كانت تلك الدول قد أنتجت أنواعا شتى من آليات الإكراه الاقتصادي والسياسي والاجتماعي . فحل اقتصاد الأوامر Command Economy محل اقتصاد القواعد Rule Economy ، وتشكلت منظومة كاملة من هيئات السيطرة البيروقراطية ، مدعمة بالحوافز ، محصنة بالوسائل والأدوات السياسية والتشريعية والأيديولوجية والقمعية ، المخصصة لاسترقاق

الجماهير، وممارسة أقصى درجات القهر والقمع ضد الانتفاضات السياسية والهبات الاجتماعية. فقد تم سحق كل شكل من أشكال السلطة العمالية المباشرة .

فقد كان شعار الدولة آنذاك ، أن الاعتراض هو معارضة، والمعارضة هى خيانة ، والخيانة جزاؤها الإعدام.

فساد الظلم والقهر فى الحياة السياسية والاجتماعية وعم -الناس- الإحباط ودب فى نفوسهم اليأس من إمكانية التحرر من القهر والطغيان ، وتفشى بينهم شعار "خير لنا أن نخضع للشيوعية من أن نموت فى سبيل الحرية Rather Red Than Dead .

ولعله من المناسب هنا ، أن نستحضر مقولة ماركس الخالدة وهو يتبرأ من خطايا التطبيق ويستنكر الافتئات على الماركسية حتى قبل ميلاد الدولة الشيوعية "إذا كانت هذه هى الماركسية ، فأنا -ماركس- لست ماركسيا".

غير أنه عندما تدهورت أحوال الطبقة العاملة والقوى الحليفة لها ، وتخلفت مستويات معيشتها عن مثيلتها فى البلدان الرأسمالية وعمها البؤس وأحاط بها الشقاء، تمردت على جلاديها ، ثم تحول تمردها إلى ثورة هادرة عصفت بالسلطة الشيوعية وقوضت دعائم الدولة الاحتكارية .

* * *

وبنفس منهج التحليل الماركسي ذاته ، يمكن ربط النتائج بالأسباب.

فعندما تكلس البنيان الفوقي ، السياسي والاجتماعي والأيديولوجي ، واتسم بالجمود وتوحشت الدولة ، وتحولت النظرية إلى عقيدة لا تمس، وامتلك الحاكم سيف السلطان وذهبه ، أصيب الأساس الاقتصادي بالشلل وتيبست علاقات الإنتاج البيروقراطية ، المحمية بدكتاتورية الدولة الاحتكارية ، حتى صارت عائقا أمام نمو القوى المنتجة ، خاصة القوى البشرية ، صانعة الثورة والتقدم .

وقد اتسع هذا التعارض ، ليشمل كافة أركان النظام ، إلى أن شلت آليات حركته ، وتعمقت التناقضات بين قوى الإنتاج المتحركة ، وعلاقات الإنتاج الساكنة ، والبنيان الفوقي المتجمد . فكانت هذه التناقضات هى مصدر الحركة وباعث الثورة .

وعليه ..

فلم يتغير وضع الطبقة العاملة ، حيثما كانت . فقد ظلت أسيرة وضعها الاجتماعي فى كلا النظامين . ولم يكن للأسرى من حرية سوى اختيار أنواع السلاسل . فلم يكن أمام الطبقة العاملة وحلفائها سوى بديلين أحلاهما مر : إما الخضوع للدب الروسي الغاشم ، أو الإذعان للنسر الأمريكي الجارح : والأول ، واقعه اليم . والثاني، ذكرياته مريره . فاختاروا الإذعان للنسر الجارح ، عسى أن يتطهر يوما من آثامه ويصبح من عصافير الجنة .

وهكذا ، دار الزمن دورة كاملة ، واختارت الشعوب ، بحرية، من جديد ، طريق النضال السياسي والاجتماعي تحت وطأة النظام

الرأسمالي وفى حماية ضماناته الليبرالية ، بديلا ، للنظام الشيوعي تحت إكراه من ديكتاتورية البروليتاريا وحزبها الشيوعي.

***

حقا إن مآسي الديكتاتورية ، ومخازيها ، في كل بلد وفي كل نظام، لا تتوقف عن حد ولا يواريها حجاب ، أيا كان لون الراية التى ترفعها ، أو نص الكتاب الذي تبشر به ، أو شكل الرداء الذي تستر به عورتها .

***

وفي الفصل الأخير ، لدراما الهزيمة والنصر ، ظهر علي خلفية المسرح الدولى واحد من أكثر المشاهد مأساوية في التاريخ المعاصر. فحينما غربت شمس الشيوعية ، وأشرقت شمس الرأسمالية ، استدعت ذاكرة التاريخ صور هؤلاء الشهداء ، الذين بذلوا النفس وضحوا بالحياة علي مذبح الماركسية ، ثم تبددت أحلامهم وتلاشت آمالهم في صبيحة انكسارها وهزيمتها . آلاف وملايين الشرفاء في كل مكان ، آمنوا بها ، وقاتلوا تحت رايتها ، وقتلوا في سبيلها ، وضحوا بحياتهم من أجلها دون انتظار لجزاء في الحياة أو بعد الممات . قاتلوا من أجل بناء الاشتراكية فردوسا أرضيا للفقراء، وإرساء دعائم العدل في دولة الحرية والرفقة والمساواة . آلاف من هؤلاء ، قد تعرضوا للتنكيل والمطاردة والذبح بسكين الدولة التي حلموا بها، وغرسوا بذورها ، ورددوا شعاراتها ، ورووها بدمائهم حتى أينعت ثمارها .

هؤلاء ، هم الذين سبق أن ابتلعتهم سجون الرأسمالية من قبل، وهرستهم ماكينة الفاشية ، وداستهم أحذية الحكومات العسكرية وهم

يرفعون رايات الماركسية ، هم أنفسهم ، الذين ابتلعتهم سراديب الشيوعية واستضافتهم أقبيتها سنين من بعدها سنون ، نزعت أظافرهم وسملت عيونهم، وشردت أسرهم ، وروعت نفوسهم ، وأزهقت أرواحهم وهم يرفعون نفس الرايات المقدسة .

لا فرق ! . فقد ضاعت سنوات العمر هباءا ، وتبددت أحلام الشرفاء، وذهبت أرواحهم أدراج الرياح ، فلم يتلقوا عزاءاً في الأرض ، ولم ينالوا رحمة في السماء .

وفي المشهد الختامي ، جاءت النهاية المحتومة ، وثارت الشعوب علي جلاديها، وتصدعت أركان الدولة ، وانهارت أعمدة السلطة ، ولفظت الشيوعية أنفاسها الأخيرة . ودفنت ووارها التراب في ذات القبر الذي حفرته هي لغيرها . آنئذ .. أقفل الستار . وخمدت نار الشيوعية ، وسطعت أنوار الرأسمالية فى سماء العالم من جديد.

* * *

الفصل الثاني

الطبقة المترفة فى البلدان المتخلفة

الفصل الثانى

الطبقة المترفة فى البلدان المتخلفة

التقدم والتخلف ظواهر نسبية تقاس علي غيرها، ومعيار القياس هو مدي قدرة البشر في السيطرة علي الطبيعة وتسخيرها لتحقيق رفاهيتهم وتلبية رغباتهم واشباع حاجاتهم . فالمتخلفون هم الذين يخضعون للطبيعة. إن أعطتهم عاشوا وإن بخلت عليهم ماتوا . أما المتقدمون فهم الذين يخضعون الطبيعة لسيطرتهم ويحولون قواها الكامنة وموادها الخام الى موارد توجه لانتاج السلع والخدمات التى تشبع حاجة الانسان.

والسيطرة على الطبيعة . وهى السمة التى تميز الشعوب المتقدمة. وسيلتها الوحيدة هى توظيف العلم والتكنولوجيا لخدمة الانسان. وليس الأمنيات والادعية وإشعال البخور وتسخير الجان و صنع الأحجبة وهى من الظواهر العامة التى تسود البلدان المتخلفة .

وفى هذا يقول الدكتور أحمد زويل الحاصل على جائزة نوبل في الكيمياء : "لقد صار العالم المتقدم على ما هو عليه بسبب قوته العلمية والتكنولوجية ، إذ يوجد ارتباط قوى بين نسبة الأرباح والإسهام العلمى والتكنولوجى ، ولا يرجح أن يكون هذا الارتباط قد حدث مصادفة ".

وهو ما أشار إليه كوفى أنان السكرتير العام السابق للأمم المتحدة بقوله أن ٩٥% من العلوم الحديثة فى العالم نشأ فى بلـــدان تـــشكل فقط خمس التعداد العالمى للسكان".

وعلى سبيل المثال:

- يبلغ إسهام الولايات المتحدة الأمريكية فـــى الاقتـــصاد العـــالمى السنوى نحو ٣٠% وهو يماثل نصيبها فى المنتجات العلمية على الصعيد العالمى.
- ويبلغ الناتج الاقتصادي الأوروبي الشئ نفسه.

* * *

ولأن البلدان المتخلفة، ومنها بلادنا ، هى محور اهتمامنا، فاننـــا في هذا الجزء من الكتاب سوف نتناول بالدراسة والتحليل الخصائص الاقتصادية والاجتماعية المميزة للبلدان المتخلفة . ثـــم نـــستعرض التعريفات المتداولة للطبقات الاجتماعية . ثم نتبع ذلك باســـتعراض سمات الصفوات الاجتماعية وخصائصها كما تناولتها أدبيـــات علـــم الاجتماع السياسى ، ونتوصل فى النهاية إلى أن الطبقة المترفة تضم صفوة ونخبة الطبقات الاجتماعية ، من الذين يحصلون على دخـــول ويراكمون ثروات تفوق بكثير مساهماتهم فى الإنتاج، ويستهلكون ما يفوق بكثير حاجتهم الفعلية مـــن الـــسلع والخـــدمات ، ويـــسببون بسلوكهم أذى كبير للمجتمع وللأفراد.

(١) البلدان المتخلفة

فى كتابه " الموجه الثالثة " بيَن توفلير أن تطور المجتمع البشرى يمثل تعاقبا متواصلا لثلاث موجات من المتغيرات :

- الموجة الاولى : وتتمثل في الثورة الزراعية التى بدات منذ حوالى عشرة آلاف عام مضت واستمرت حتى أواخر القرن السابع عشر .
- والموجة الثانية : أسفرت عن قيام الحضارة الصناعية فى البلدان الرأسمالية . واستغرقت قرنين ونصف القرن .
- أما الموجة الثالثة : فقد بدأت فى أواسط خمسينات القرن العشرين فى الولايات المتحدة ومن ثم فى سائر البلدان الصناعية الأكثر تطورا . وهذه الموجة جلبت معها نمط حياة جديد أساسه الحاسبات الالكترونية . وصناعة الفضاء ، واستغلال أعماق المحيطات . والصناعة البيولوجية والهندسة الوراثية.

ولذا ..

فان السؤال الذى يطرح نفسه علينا الآن هو : فى أى من هذه المراحل مازالت البلدان المتخلفة تراوح فى المكان ؟

وللاجابة على هذا التساؤل يجب أن نأخذ فى الاعتبار أن الإنتاج ، لا الاستهلاك ، هو الميدان الذى يجرى فيه فرز البلدان المتخلفة عن البلدان المتقدمة سواء من حيث تطور قوى الانتاج ، أو علاقات

الإنتاج ، أو البنيان الفوقى الذى يشمل الدولة ومنظمات المجتمع المدنى .ولذا، فاننا إذا نظرنا لطريقة الإنتاج السائدة فى البلدان الرأسمالية المتقدمة سوف يتبين لنا على الفور أنها تختلف بشكل جوهرى عن نظيرتها السائدة فى البلدان المتخلفة.

* فمن المشاهد أولاً: أن تطور الإنتاج يتوقف على تطور قوى الإنتاج ، وهى: البشر ، والأدوات ، والمواد الخام والآلات.

- فالإنسان البدائي كان يستخدم أدوات من الطبيعة مثل الأحجار والعظام وفروع الأشجار.

- أما الانسان المعاصر فيستخدم أدوات يصنعها بنفسه من مواد البيئة . مثل ما ينتجه من آلات ومعدات وماكينات ومستلزمات إنتاج.

وفى البلدان المتخلفة يوجد خليط من أولئك وهؤلاء. تتوقف نوعية ما ينتجونه من السلع والخدمات على درجة تطور ادوات الإنتاج. وفى جميع الأحوال يجب أن نأخذ فى الحسبان أن من يصنع قاطرة أو طائرة ليس كمن يصنع عربة يجرها حصان ، وأن من يحارب بسيوف خشبية ليس كمن يحارب بأقمار صناعية وقنابل ذرية وصواريخ عابرة للقارات ، وأن من يكتفى بالعنتريات ليس كمن يحول أقواله الى أفعال ، وتلك ليست فكاهة أو مزحة وإنما هى حقيقة واضحة وضوح الشمس الحارقة وسط

النهار..فليس من يقود طائرة أو سفينة فضاء كمن يركب الجمل ويمتطى الحمار.

* ومن المشاهد ثانياً: أن الناس وهم ينتجون السلع والخدمات تنشأ بينهم علاقات إنتاج ، وهى علاقات الملكية والتبادل والتوزيع.

- والملكية تكون مشاعية فى المجتمعات البدائية.
- ثم تتطور إلى أسياد يملكون أرقاء فى ظل العبودية.
- ثم إلى نبلاء يملكون الأرض ومن عليها من أقنان فى ظل الاقطاع.
- ثم إلى أحرار يبيعون قوة عملهم إلى من يشتريها من رجال الأعمال فى ظل الرأسمالية.
- ثم إلى علاقات يسودها العدل والندية والانصاف فى ظل الاشتراكية.

وفى جميع الحالات يتعرض المشتغلون ، سواء كانوا أرقاء أو اقنان أو أحرار ، إلى أشكال متباينة من صور الاستغلال عند توزيع عوائد الانتاج. وهذا التطور التاريخى يظهر بوضوح فى المجتمعات المتقدمة عنه فى المجتمعات المتخلفة. ففى المجتمعات المتخلفة من المعتاد أن نشاهد أولئك وهؤلاء وكانهم خليط غير متجانس من البشر فى سلة واحدة تعج بالمتناقضات .

وفى هذا المجال ، من الجدير الانتباه إلى أنه فى كل مجتمع ، سواء كان متقدماً أو متخلفاً ، بدائياً أو متحضراً ، يجرى فرز البشر بآلية التخصص وتقسيم العمل إلى طبقات وشرائح وقوى اجتماعية متعارضة المصالح والأهداف. فيوجد المحرومون والمترفون ، المحكومون و الحكام ، الأجراء والملاك ، هؤلاء قدرهم الفقر وأولئك حظهم الثراء. فالفقراء هم ملح الأرض أما الأثرياء فهم عطر السماء.. وتلك قسمة ضيزى وغير عادلة بأى حال من الأحوال.

ويستخلص من ذلك ، أن تطور علاقات الإنتاج يتوقف على تطور قوى الإنتاج ، وهذا التطور بدوره يحدد درجة نمو وتشعب التخصص وتقسيم العمل فى المجتمع. وكلما نما وتشعب التخصص وتقسيم العمل الى قطاعات وأفرع وأغصان وأوراق فى شجرة الإنتاج، أدي إلي تطور ونمو تبادل السلع والخدمات وإلي تنوع المشروعات واتساع الأسواق وإلي تسارع معدل نمو الاقتصاد وتحسن مستوي معيشة السكان.

* ومن المشاهد ثالثا: أن كل نمط إنتاجى يفرز بنيان فوقى يناسبه، بنيان فوقى من الحكام والنظم والدساتير والقوانين والقيم والأعراف، ويفرز أيضاً أوهام وخرافات وأساطير ما أنزل الله بها من سلطان. ومن المفارقات ، أن أبناء الشعوب المتخلفة العاجزون عن تسخير الطبيعة لإنتاج السلع والخدمات ، هم أنفسهم الذين يخضعون لحكم الطغاة ، و هم كذلك الذين يبددون

طاقاتهم فى تحضير الأرواح ، ورجم الشيطان ، واستشارة الموتى وتفسير الأحلام ، وقراءة الفنجان ، وضرب الودع ، ووشوشة الأحجار. والتباهي بمآثر السلف ، وتسخير الجان لتلبية رغبات البشر.

فمن علامات التخلف: نهب الثروة... وانتشار الخرافة... واحتكار الحكام للسلطة.

***

وفى هذا المجال يقول الدكتور السيد نصر الدين السيد الأستاذ بجامعة كونكورديا بكندا ، أن السمة الأساسية التى تميز أى مجتمع حديث عن مجتمع متخلف هى سمة التعقد الشديد بأبعادها الثلاثة: التنوع الفائق . و الاعتمادية المتبادلة . والتغير المتسارع.

- فمن ناحية التنوع الفائق Hyper diversity: يقول على سبيل المثال بأن عدد السلع المتداولة فى مجتمع مدينة نيويورك الأمريكية يقدر بنحو عشرة بليون (عشرة أمامها عشرة أصفار) بينما لا يتجاوز عدد هذه السلع فى مجتمع قبيلة "يانو مامو" التى تعيش فى غابات الأمازون نحو اربعمائة سلعة.
- ومن ناحية الاعتمادية المتبادلة Interdependence: يقول أن طبيعة العلاقات بين مكونات المجتمع الحديث تتميز بأن كل مكون يعتمد فى وجوده وأفعاله على إمكانيات وأفعال بقية المكونات.
- أما من ناحية التغير المتسارع Excess Change: فيقول بأن معدلات التغيير خلال العقد الأول من القرن الحالى (الواحد

والعشرين) قد بلغت خمسة أضعاف متوسط معدلات التغيير في القرن الماضى (العشرين) وذلك يرجع إلى أن الفترة اللازمة لتحويل الاكتشاف العلمى إلى منتجات تبلغ حالياً حوالى ٨ سنوات ، بعد أن كانت تبلغ ٣١ سنة فى أوائل القرن العشرين.

ويضيف قائلاً..

بأن العقل البسيط يقف أمام التغيير المتسارع موقف قلة الحيلة إذا لا تسمح له إمكانياته بالمشاركة فى صنعه ولا تسمح له قدراته باستيعابه والتكيف معه ليقع فى فخ الاغتراب ، وهكذا لا يكون أمامه من سبيل للهرب من هذا الفخ إلا طريقين:

- الطريق الأول: هو التشبث بإعادة إنتاج حقبة تاريخية سابقة يطلق عليها العصر الذهبي.
- أما الطريق الثانى: فهو الهروب من عالم الشهادة إلى عالم الغيب متلمسا الراحة والأمان فى الفردوس المنشود . أنئذ . تنتشر الخرافة ويعم الفساد ويهتز الاستقرار.

* * *

والخلاصة..

أن التخلف ظاهرة تعم جميع أركان البنيان الاجتماعى، وهي : القاعدة الإنتاجية.. والعلاقات الإنتاجية.. والبنيان الفوقي. وأن الشعوب في تطورها عبر الزمن مثلها في ذلك مثل من يسبح ضد

التيار: إما أن يتقدم إلي الأمام أو ينجرف إلي الخلف وتغرقه الأمواج.. ويخرج من السباق.

ومن المشاهد الآن ، أن معظم شعوب البلدان المتخلفة مازالت تراوح فى المكان ولا تتقدم أبدا إلى الأمام.

***

وبناءا عليه فان البلدان المتخلفة تعانى من اختلاط أنماط متباينة من علاقات الإنتاج حيث تتزامن علي أرضها العلاقات العشائرية والإقطاعية مع العلاقات الرأسمالية ، وشبه الرأسمالية ، مع صور متنوعة لقطاع الدولة ... فهى علاقات مختلطة تتسم بالتشوه إلى حد كبير وتعكس التداخل الواضح بين أزمنة تاريخية مختلفة. فالنشاط الاقتصادى لهذه البلدان مصدره فى الأساس دخول ريعية ، تتولد فى الغالب من موارد طبيعية . سواء كانت منجميه ، أو زراعية ، أو سياحية.

وفى محاولة للتفسير . يقول هارفى ليبنشتين : "أن التخلف حالة تعيد إنتاج نفسها بنفسها Self producing state . فالدخول الريعية تحدث آثارها فى النشاط الاقتصادى بما تولده من موجات دخلية فى صورة عمالة أو سياحة أو تجارة فى السلع والخدمات أو أنشطة مالية وبنكية تلبى حاجات المستهلكين النهائية ، وما يترتب على كل ذلك من زرع علاقات اجتماعية وقيما استهلاكية رأسمالية فى بيئة متخلفة اقتصاديا واجتماعياً .

ومن الطبيعي ، أنه فى مثل هذه الظروف تتركز الثروة وتتراكم الأرباح لدى الأسر الحاكمة والطبقات الطفيلية والفئات الاجتماعية

الملتفة حولها والمساندة لها التى تمتلك أو تشرف علـــى المــوارد الطبيعية وتسيطر على مفاتيح السياسه والاقتصاد.

ومن الطبيعى أيضاً ، أن جزءاً يسيراً مما يفيض عن حاجة هؤلاء تتطاير قطراته ويتساقط رذاذه متدرجا على هرم السكان ، ويتناثر فى صورة فتات عند القاعدة حيث توجد الطبقة العاملة والقوى الشعبية العريضة والجماعات السكانية الضعيفة والمهمشة اجتماعيا . وهــو مــا جــرى التنــظير لـــه فيـــما يسمى بنظرية التساقط Trickling Down Theory تلك النظرية التى تعنى بالنمو ولا تأبه بـــالتوزيع ، والتى أولاها الاقتصادى الأميركى سيمون كـــوزنيتس S. Kuznets اهتماما خاصا . فحالة العلاقات الاجتماعية فى البلدان النامية توصم بالاختلال الفاضح والاستغلال المشين .

وذلك ، لأن تلك العلاقات المختلة قد صارت قيدا على نمو القاعدة الإنتاجية المتخلفة . وهاتان الظاهرتان ، الاختلال و التخلف ، ظلتــا على حالهما تغذى كل منهما الأخرى باطراد Feed Back فى حمايـــة نظم حكم شمولية استبدادية عفا عليها الدهر وتجاوزها الزمان حتى صارت تعرض على طلاب المدارس والجامعات فى العـــالم المتقـــدم كحفريات أثرية ونماذج متحفية وصور حسية لنظم الحكـــم العائليـــة والعشائرية والعسكرية التى كانت تسود أوروبا فى العصور الوسطى فهى نماذج حية للسلطة المطلقة التى تسود البلدان المتخلفة.

وهذه الخصائص ترتب عليها زيادة التسرب الكلى للدخل من دائرة النشاط الاقتصادى ، و اختلال توزيع الثروة ، وسوء تخصيص الموارد ، وتشوه هيكل الأسعار، وضعف فاعلية سعر الفائدة فى ترشيد استخدام الموارد ، كما أنها تحد أيضا من فاعلية كل من السياسة المالية التى تتبناها المدرسة الكينزية ، والسياسة النقدية التى تتبناها المدرسة التقليدية المعاصرة فى إخراج المجتمع من أزمته كلما تفشت البطالة وحل الكساد.

* * *

وهذه الظواهر فى مجملها قد عمقت حالة اللامساواة الاجتماعية فى البلدان المتخلفة، وهو ما دفع ماكنمارا رئيس البنك الدولى الاسبق أن يعلن عام ١٩٧٢ أن اللامساواه داخل كل بلد يعتبر عقبة كبرى فى طريق التنمية.

* * *

وفى مجال تفسير هذه الظاهرة . اشار بول بران وشريكه إيف لاكوست في كتابهما "الاقتصاد السياسي للتخلف" إلى أن "الفائض الاقتصادى فى البلدان المتخلفة . المحصورة بين الاقطاع ورأسمالية الدولة الاحتكارية لا يستخدم من أجل أهداف إنتاجية . نتيجة لتبديد جزء منه على استهلاك الطبقات الحاكمة والنفقات العسكرية ، وإعالة البيروقراطية . واستحواذ رأس المال الأجنبى على جزء آخر".

وهنا ينقل إلينا غيورغى ميرسكى فى كتابه "الجيش والمجتمع والسياسة فى البلدان النامية" (١٩٨٧) على لسان الباحثين التقدميين الأفارقة قولهم : "أن البرجوازية البيروقراطية تجمع بين أسوأ سمات كل الطبقات الاستغلالية التى عرفها التاريخ ، ولذا فإنهم يسمونها بالبرجوازية المزيفة . فالفئة البرجوازية البيروقراطية الجشعة الوقحة التى تحتقر الشعب البسيط ولا تفكر بالمصلحة الوطنية وتفضل ميادين النشاط المرتبطة بأقل قدر من المجازفة – وتحصل على أكبر قدر من الأرباح – هى المذنبة الرئيسية فى الفساد المذهل واسع النطاق، هذا الفساد الذى يعم الحياة فى البلدان النامية الذى يكتب عنه هؤلاء الباحثون بلا نهاية ، وأيضا يتحدثون عنه ويصرخون فى وجهه بلا طائل.

ومن جانب أخر : يشير الثنائى بول باران و إيف لاكوست إلى أن الطبقتين السائدتين فى البلدان المتخلفة . وهما الرأسمالية الطفيلية و البرجوازية البيروقراطية ، تستحوذان على معظم الثروة . وتتركان باقى الشعب فقير الدخل خالى الوفاض. فاغلبية السكان بما فيهم البروليتاريا الصناعية ، يعيشون حياة هامشية ويشكلون ما يمكن تسميته بالبروليتاريا – الدنيا Souse - Proletariat .

وهؤلاء (الذين يشكلون البروليتاريا – الدنيا) لا يملكون عمليا إمكانية العيش عيشة اقتصاد كفاف، ولم يجدوا ، فضلا عن ذلك ، وسيلة لكسب أجر منتظم ، فهم يتعيشون من أجور عارضة ، أو منتجات قطعة أرض صغيرة الحجم شحيحة الرزق ، أو نشاطات

ليست مشروعة تماما (سيما فى المدن) ، أو من المساعدة التى يقدمها الأهل الذين كان لهم حظ إيجاد عمل ، أو من المحسنين الطيبين وأهل الخير .

ويشير بول باران ورفيقه إيف لاكوست . إلى أن ثلاثة أرباع السكان، بل أكثر أحيانا . فى عدد كبير من البلدان المتخلفة ، يعيشون فى إطار ليس هو بإطار اقتصاد كفاف ، ولا هو بإطار اقتصاد رأسمالى عادى.

إذ أن القنوات النقدية فى هذه البلدان ضامرة هزيلة . والمداخيل الثابتة المنتظمة هى الاستثناء . إن هذه البروليتاريا - الدنيا، هى فى جانب كبير منها ريفية : فهم فلاحون بلا أرض ، وبشر بلا عمل . لكن جانبا منها ايضا حضري : فلاحون اقتلعوا من قراهم واتوا يتكدسون فى ضواحى المدينة البائسة . وحرفيون انقرضت حرفهم الخ ... هؤلاء قد اضاعوا . أو هم على وشك أن يضيعوا كل وسائل رزقهم . لكنهم وقد أصبحوا بروليتاريين لا يجدون أبدا من يؤجرونه قوة عملهم .

ويشير ج . تيلون إلى أن النتائج النفسية لهذا التحول- إلى بروليتاريا دنيا- تتسم بالخطورة ؛ فالعامل الحقيقى للأزمة النفسية ، أزمة المعنويات ، التى يعانى منها سكان البلدان المتخلفة ، ليس هو

البؤس فى حد ذاته ، فالبؤس ليس بالأمر الجديد عليهم ، بقدر ما هو التفكك الاجتماعى ؛ لقد كانوا سابقاً يعيشون فى قلب مجتمعات متوازنة ، يقوم التضامن العرقى فيها مقام ضعف الفرد من الناحية التقنية ، هذا الفرد العاجز عن تدبير حاجاته بمفرده ، وتلبيتها . إذ أن مأساة هؤلاء الناس ، الذين تنهار من حولهم أنواع التضامن القديم ، لا يستطيعون أن يجدوا عملاً ، هذا العمل الذى كان يمكن أن يعطى وحده معنى لفرديتهم الجديدة . والفقر الذى كان الفرد يعيش فى ظله ، دونما قلق أو انزعاج ، وبواسطته يجرى تأدية الطقوس بصورة منتظمة ، تحت كنف الجماعة وحمايتها ، قد حل محله بؤس الإنسان الوحيد فجأة ، الذى صار نهبا لضروب المغامرات فى عالم لم ينفك يتغير بلا انقطاع.

(٢) الطبقات الاجتماعية

لم يتفق المفكرون على تعريف عـام (جـامع شـامل) للطبقـات الاجتماعية ، فقد اختلفوا فـى تعريـف الطبقـة الاجتماعيـة تبعـا لاختلافاتهم الأيديولوجية وانتماءاتهم الاجتماعية. وفى هذا المجـال تشتمل أدبيات الفكر الاقتصادى على تيارين رئيسيين متميزين ، هما: الماركسية ، والليبرالية.

حيـث .. يستند الماركسيون فى تحديد الطبقات الاجتماعية إلى المعايير الاقتصادية ، بينما يستند الليبراليون الى المعايير السلوكية. وفى محاولة للاحاطة بهذه المعايير خصص عالم الاجتماع الروسـى الأصل الفرنسى الجنسية جـورج جـروفتش (١٨٩٤ – ١٩٦٦) كتابه "دراسات فى الطبقات الاجتماعية " لمقارنـة ونقـد تعريفـات الطبقة الاجتماعية عند الماركسيين والليبراليين.

* * *

• المـاركسيـون

كتب لينين Lenin يعرف الطبقة الاجتماعية بأنها إسم يطلق على مجموعة بشرية كبيرة تتميز بوضعها فى نظام تاريخى معـين مـن الإنتاج الاجتماعى ، والعلاقات بينها وبين وسـائل الإنتـاج (وهـى علاقة يحددها القانون فى الغالب) ودورها فى التنظـيم الاجتمـاعى للعمل ، وبقدرتها بالتالى على الحصول على نصيبها مـن الثـروة ، كما تتميز أيضاً بحجم معين لهذه الثروة .

ويشير أفربرج Overbergh الماركسى البلجيكى فى كتابه "الطبقات الاجتماعية ١٩٠٥" إلى أن الطبقات الاجتماعية ما هى إلا تدرجات اجتماعية متراكمة مبنية على ملكية وسائل الإنتاج ، ويفيد بأن قضية الطبقات الاجتماعية لا يمكن أن تثور إلا فى المجتمعات التى توجد فيها ملكية فردية لوسائل الإنتاج ، وتوجد دولة باعتبارها أداة السيطرة التى تمارسها طبقة اجتماعية على غيرها من الطبقات.

* وقد ميز ماركس Marx بين أربع طبقات اجتماعية:

- البرجوازية الرأسمالية: التى يزداد تألقها باضطراد .
- والبروليتاريا: التى تندلع الثورة بسبب ما تعانيه من بؤس وعسف واضطهاد.
- والملاك العقاريون : الذين ينحدرون من طبقة نبلاء الإقطاع.
- والبورجوازية الصغيرة : ويتدرج فيها الفلاحون و الصناع .

أما الطبقات المتوسطة فتتشكل بالتحديد -فى رأى لينين- من أرباب الحرف وصغار التجار من جهة (ويشكلون البورجوازية الصغيرة بالمدن) ، والفلاحين المتوسطى الثروة من جهة أخرى Sorednıaks ، ويضيف بأن هاتين الطبقتين الأخيرتين يمكن أن تنضما فى النضال السياسى إلى قضية البروليتاريا ، حيث أنهما لا تخسران شيئا فى تغيير النظام .

وينتقد جورج جروفتش المنطق الساذج البسيط الذى يقسم المجتمع إلى طبقات اعتماداً على حجم الثروة أو مقدار الدخل وحدهما (مسألة كيس النقود) ، معتبراً أن معيار كيس النقود هو

فارق كمى بحت ، يمكن بواسطته المقابلة بين فردين ينتميان إلى طبقة واحدة.

ويستشهد على ذلك بما جاء فى البيان الشيوعى الذى نشره ماركس وانجلز Engels . Marx : " أن الطبقة الاجتماعية لا تتشكل بصورة نهائية إلا بظهور التضامن الطبقى ، بالإضافة إلى وحدة الدور فى الإنتاج ، والمصالح الاقتصادية المشتركة ، ويفترض هذا التضامن الطبقى وجود الوعى الطبقى الذى لا يمكن بالتالى إيجاده إلا عن طريق الأيديولوجية الطبقية" .

- فالبرجوازية التى لعبت فى التاريخ دورا ثوريا فى جوهره ، قد أدى تفوقها فى مجال الأيديولوجية إلى إيقاظ وعيها الطبقى قبل الأوان .
- أما البروليتاريا التى تضم جماهير هائلة العدد وتعيش وضع المقهورين حتى من الناحية النفسانية . فلا تعى نفسها إلا تدريجيا وعلى مراحل ، والأيديولوجية الشيوعية هى الخليقة بمساعدتها على أن تشكل نفسها نهائيا فى صورة طبقة. وتتمثل المرحلة النهائية لهذه العملية فى تنظيم حزب سياسى يقودالثورة بغية الاستيلاء على السلطة وتأسيس الإشتراكية.
- وإذا كان الدور الاجتماعى فى الإنتاج ، والموقف من ملكية وسائل الإنتاج ، يشكلان معاً الشرط الضرورى لوجود الطبقات فإن الوعى الطبقى ، والأيديولوجية الاجتماعية، تمثلان معاً الشرط

الكافى لخوض غمار الصراع الاجتماعى والفوز فى حلبة المساومة الاجتماعية.

ويستخلص من ذلك ، أن مختلف الأفراد لا يشكلون طبقة ما ، إلا إذا حملوا على عاتقهم عبء كفاح مشترك ضد طبقة أخرى ، أما فى غير ذلك فإنهم يتصارعون فيما بينهم فى مجال المنافسة .

***

وفى غمار الصراع الاجتماعى والسياسى يقوم - فوق أشكال الملكية المختلفة وظروف الحياة الاجتماعية - بناء علوى من الانطباعات والأوهام وأساليب التفكير والمفاهيم الفلسفية الخاصة ؛ والطبقة بأجمعها هى التى تخلق هذه الأشياء وتشكلها تبعا لظروفها المادية والعلاقات الاجتماعية المقابلة لها .

والأبنية الأيديولوجية العلوية تشتمل على: كل الأعمال الثقافية بما فيها: القانون والأخلاق واللغة والمعارف الفلسفية والعلمية وكل المذاهب والمواقف الاجتماعية والسياسية ، وكل المنتجات الفكرية والأحوال والآفاق النفسية التى تميز الوعى الطبقى أو الوعى الفردى.

ولأنه لا شىء يبقى على حالة إلى الأبد ، فإنه لمن المشاهد أن ثمة حركة مستمرة فى مسيرة التاريخ تلاحظ فى نمو القوى المنتجة

وفى الهدم فى العلاقات الاجتماعية ، والتكوين المتجدد فـى الآراء ، وليس هناك فى رأى ماركس شىء ثابت فى الحياة لا يتغير سوى تجريد الحركة moors Immortals .

وعمومـا .. فقد توصل ماركس إلـى أن الآراء الـسائدة فـى مرحلة تاريخيه معينه هى آراء الطبقة السائدة اجتماعيا وسياسيا فى تلك المرحله.

* * *

• الليبراليـون

تستند تعريفات الليبراليين للطبقـات الاجتماعيـة إلـى المعـايير السلوكية والمعالم الثقافية . ومن هؤلاء :

- شمولر Gustave Schmoller الذى استند إلى معيار المهنة .
- وبوخر Kar Bacher الذى استند إلى معيار الثروة (الملكية) .
- وباريتو Vilfredo Pareto الذى استند إلى معيار الصفوة .
- وفيبر Max Weber الذى استند إلى معيار إحتكار الفرص.
- وشومبيتر J.Aschumbeter الذى استند إلـى معيـار الوظيفـة الاجتماعية .
- وهالفاكس Maurice Hallbwachs الذى استند إلى معيار الحاجات الانسانية والميول الاستهلاكية.

ويرى جورج جورفتش أن مثل هذه التعريفات غير الماركسية للطبقات الاجتماعية تتسم بتنوع كبير يتضمن طائفة كبيرة من المعايير كالمهنة ، والدخل ، والثروة ، وارتفاع درجة الكفاءة الشخصية والقيمة الذاتية ، واحتكار المركز ، والطريق إلى المال ، والوظيفة ، ونوع المعيشة بل وحتى القدرة على التزاوج أو مجرد تبادل الزيارة بين زوجات أو أفراد الطبقة الواحدة .

ويفيد ، بأن الشيء الذى يميز كلا من هذه التعريفات هو التحرر من التقيد بمذهب اجتماعى وسياسى معين ،والتخلي عن إي فلسفة تتكهن بزاول الطبقات والشك في مصدقية نظرية صراع الطبقات.. . كما انها تتميز بإنكار المادية التاريخية كأساس لنظرية الطبقات الاجتماعية . ونبذ الرابطة بين هذه النظرية ونظرية " الدولة السياسية"؛ وأخيرا تدعو إلى الاهتمام بسيكولوجية الطبقات الاجتماعية أكبر بكثير من الاهتمام بأعمالها الثقافية التى تخصها الماركسية باصطلاح " الأيديولوجية " .

***

وإذا أمعنا النظر فى مفهوم كل من الماركسيين والليبراليين للطبقات الاجتماعية سوف يتبين لنا أن الجماعة الثانية قد أولت اهتماماً كبيراً للخصائص الفرعية التى تتميز بها الطبقات الاجتماعية

عن غيرها ولم تول اهتماماً يذكر بروابط الإنتاج تلك الروابط التـــى يرى ماركس أنها تشكل فى كل مجتمع الأساس الذى يحـــدد بنـــاءه وتقسيمه إلى طبقات وتشكل أيديولوجيته ووعيه الطبقـــى وثقافتـــه وهذه الروابط الإنتاجية هى التى أولاها الماركسيون اهتماما كبيرا .

وعليـــه...

فإن الصيغة الماركسية لتعريف الطبقات الاجتماعية مازالت تعـــد أكثر الصيغ قبولا لأنها ترى أن أساس تكوين الطبقات الاجتماعيـــة. هو الدور الذى تؤديه فـــى الإنتـــاج . وعلاقتهـــا بتـــداول الأمـــوال الاقتصادية وتوزيعها . وهذا الدور يحدد بدوره مستوى المعيـــشة . والوعى الطبقى . والأيديولوجية والثقافة والنزعة السياسية وغيـــر ذلك من الخصائص الفرعية التى تتميز بها الطبقـــات الاجتماعيـــة . والتى يثبت وجودها بالصراع المضطرم فيما بينهما . والذى تمارسه من أجل الاستيلاء على السلطة.

***

(٣) الصفوات الاجتماعية

تنبؤنا اللوحة الخماسية للتطور التاريخى عن تطور الصفوات الاجتماعية تبعا لتحول البشرية من تشكيلة اجتماعية اقتصادية إلى أخرى عبر الزمن.

ففى البداية نشأت الحياة المشاعية التى يتعاون فيها الناس على قدم المساواة فى مواجهة الطبيعة ، تلاها مرحلة العبودية التى يتدرج فيها الناس من مستوى الأسياد فى القمة إلى مستوى العبيد فى القاع ، ثم المرحلة الإقطاعية التى يتدرج فيها الناس من النبلاء ملاك الأراضى إلى المزارعين الأرقاء (الأقنان) ، ثم المرحلة الرأسمالية التى يتدرج فيها الناس من البرجوازية إلى البروليتاريا . وأخيرا الشيوعية التى يتدرج فيها الناس من مستوى البيروقراطية البرجوازية فى القمة إلى سود الشعب فى القاع (كما كان عليه الحال فى بلدان الاتحاد السوفيتى وشرق أوروبا قبل انهيار الشيوعية).
وفى مجال المقارنة بين البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة..

* يتضح أن التطور التاريخى ، يتجلى فى أوضح صوره عبر مسيرة الشعوب الأوربية التى وصلت الآن قمة التطور الاقتصادي والاجتماعي للبشرية أما بالنسبة للشعوب النامية ، كما هو الحال فى معظم بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، فإنها لم تتبع فى مسيرة تطورها التاريخى هذا المسار الغربى للتطور ، ولكن – بسبب الغزو الاستعمارى– تزامن على أرضها خليط غير متجانس من صور اللوحة الخماسية.

وذلك لأن بنيانها الثقافى قد لقح بالقيم الغربية المتحررة رغم واقعها التقليدى المحافظ. فعلى أرضها يتصارع بشكل دائم الأصيل والمعاصر ، الوطنى والوافد ، الوحدات الاقتصادية القزمية والشركات الاحتكارية العملاقة، الفقراء المعدمين والأثرياء المتخمين ، أنها مجتمعات تعج بمتناقضات معقدة يصعب حلها ، فهى مجتمعات مشوهة تاريخياً واجتماعياً ، ويعانى أبناؤها من مرض ازدواج الشخصية الحضارى، وهذه الظواهر رصدها كل من غيورغى ميرسكى و بول باران:

* فالأول (غيورغى ميرسكى) : يلاحظ وجود نقوش عجيبة للتقسيم الاجتماعى حسب العائلات والافخاذ والقبائل والعشائر والاقاليم والنشاط الاقتصادى والموقع فى جهاز الدولة البيروقراطى بدلا من الخطوط الدقيقة للتمايز الطبقى والفروق الاجتماعية الواضحة التي تميز البلدان الصناعية المتقدمة فأبناء البلدان المتخلفة – خاصة المتعلمون منهم – يعانون من تناقضات صعبة. فهم – فى حياتهم– يعيشون بأحلام الأثرياء فى واقع الفقراء ، وجذورهم مغروسة فى ظلام القرون الوسطى وعيونهم مفتوحة على نور القرن الحادى والعشرين.

* أما الثانى (بول باران ورفيقه ايف لاكوست)، فيلاحظ أن التركيب الاجتماعى لبلد متخلف يختلف اختلافاً كبيراً عن نظيره

فى بلد متقدم. فهو يتميز بالتعارض (الذى لا ينفى ، مع ذلك ، التداخل) بين:

- قطاع رأسمالى: يتكون من طبقة برجوازية ، ومن طبقات متوسطة هزيلة لحد ما ، ومن طبقة بروليتارية عاملة ، وبين:
- قطاع شبه رأسمالي واسع ،و شبه بروليتارى معقد التركيب ، يتلقى تأثيرات القطاع الأول دون أن يستطيع الاندماج فيه ، ويحتوى على بقايا كبيرة لحد ما من اشكال التنظيم الاجتماعى السابقة عليه.

والقطاع الرأسمالى ، يتركز فى يديه اكبر قسم من الثروات ويضم حوله عددا قليلا من السكان. أما في القطاع شبه الراسمالى . فتتراكم أعداد متزايدة من السكان بشكل مستمر. وبين هذين القطاعين لا توجد فعلا ، قنوات نقدية تستطيع أن تعوض عدم توازنهما المتفاقم. وذلك لأن طبقة البروليتاريا الدنيا تتكون من اناس لا عمل لهم غالبا ، ولا إنتاج تجارى قابل للتداول.. لذلك يجدون أنفسهم عادة خارج قطاع الانتاج.

بالاضافه إلى ذلك ، فإن الحدث الأكثر خطورة أيضا ، هو أن السوق الداخلية البالغة الضيق فى هذه البلدان لا تسمح بتنمية إنتاج القطاع الرأسمالى الذى يمكن أن يفتح مجالاً كافياً لاستيعاب هذه البروليتاريا الدنيا. وبذلك تنغلق الحلقة المفرغة: إذ بدون مال لا

يستطيعون أن يشتروا ، ولكونهم غير قادرين على الشراء فلا مجال لاستخدامهم.

***

وعليـــــــه..

فإن تشوه الأبنية الاقتصادية والاجتماعية فى البلـــدان المتخلفـــة، الذى تناولناه على نحو ما سبق ، عادة ما يفرز صفوات اجتماعيـــة تطفو على سطح المجتمع ، وهى غالبا صفوات مترفة تحصل علـــى دخول وتراكم ثروات تفوق بكثير مساهماتها فى الانتاج وتستهلك ما يفوق بكثير حاجاتها الفعلية من السلع والخدمات. ومن ثـــم يمكـــن تعريف الصفوة الاجتماعية بانها الشريحة العليا لكل طبقة اجتماعية ومن مجمل هذه الصفوات تتشكل الطبقة المترفة.

فالطبقة المترفة اذن.. تتكون من مجمل الـــشرائح العليـــا للطبقـــات الاجتماعية..

وفى مجال التفسير...

يمكن القول أن الناس فى كل طبقة اجتماعية يتماثلون عادة فـــى الطريقة التى يكسبون بها عيشهم ، إلا أنهم يختلفون فـــى مـــستوى دخولهم باختلاف المهارة والذكاء والإنجـــاز والمراوغـــة وانتهـــاز الفرص والحركة السريعة والقدرة على الإبداع، إلى جانب الاختلاف فى سعة الحيازة إن كانوا مزارعين، أو الاختلاف فـــى حجـــم رأس المال إن كانوا من رجال الاعمال ، أو باختلاف موقعهم فـــى هـــرم السلطة إن كانوا من المحاسيب أو من رجال الدولـــة. فكـــل طبقـــة

اجتماعية تفرز صفوة اجتماعية يحصل أفرادها على دخول تفوق كثيراً المتوسط العام لدخل أفراد الطبقة مقابل أعمال يقومون بها سواء كانت: تلك الأعمال ونتائجها تعد إضافة حقيقية للاقتصاد أم مجرد أوهام ونصب واحتيال على العباد. فالأفراد داخل كل طبقة اجتماعية يتدرجون فى شكل هرمى من حيث مستوى الدخل. ومن البديهى أن من هم فى القمة يحصلون على دخول تفوق دخول من هم فى القاعدة أضعافاً مضاعفة.

وفيما يلى ينصب اهتمامنا على استجلاء مفهوم الصفوات الاجتماعية. خاصة فى البلدان المتخلفة والنظم الشمولية.

أولا: الصفوة البرجوازية

يصف العالم الفرنسى موريس غيرنية حالة البرجوازية – فى البلاد النامية – بقوله: "لا يوجد فى العالم الثالث أرباب عمل بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة . وإذا كانوا موجودين فهم إما يخدمون الانتاج الصناعى الشمالى أو يقلدونه . وإما يعملون فى قطاعى التجارة والمال" ويضيف : إلا أنه لا توجد فى مثل هذه البلدان بوجه عام عناصر تشكل أساس التطور الصناعى كما تميز به العالم الغربى خلال القرنين الآخرين.

وهذه الظاهرة يقرها العالم السوفيتى غيورغى ميرسكى قائلا أن برجوازية أغلبية بلدان آسيا وإفريقيا لا تتمتع بخبرة فى مجال نشاط أرباب العمل الصناعى . فمنذ القدم تعود الأثرياء هناك على توظيف الأموال فى شراء الأراضى والعقارات ، وفى الحالات القصوى فى

ميدان التجارة والخدمات . ولم يكن بالإمكـان منافسة الرأسمال الأجنبى فى الميدان الصناعى خاصة فى عهد الاستعمار .

وبعد إحراز الاستقلال أعاق تحقيق ذلك ..

أولا : عدم الاستقرار السياسى أو الاجتماعى.

ثانيا: الثورة العلمية التكنيكية وقيمة التوظيفات الأولية التى ازدادت بشكل لم يسبق له مثيل .

ولأن توظيف رأس المال فيه مجازفة ، فإن القليلين مـن رجـال الاعمال هم الميالون إلى توظيف أموالهم فى المؤسسات الصناعية ، وخصوصاً فى الصناعة الثقيلة . فى وضع لا يمكن من استرجاع تلك الأموال بسرعة ، ولا أحد يعرف ما الذى سيحدث فـى البلـد غـدا فالأمان مشكوك فيه والمخاطرة عالية والتوقعات بالنسبه للمـستقبل لايوثق بها.

لـذا ، فـإن رأسمالى البلدان المتخلفة ، الـذين تربوا عـلى تـقاليد صـنع السلع الاستـهلاكـية وبيـعها... و هذه خاصـية من خواص المرحلة المبكرة من التطور الرأسمالى – قـد اعتـادوا الحصول على مردود سريع ، وعلى مجازفات كبيرة ولكنها قـصيرة المدى ، لذلك فإنهم يرون أن تجميد الأموال فـى مـشاريع لا تـدر أرباحاً عدة سنوات أمر مستهجن وغير مقبول ومحفوف بالمخاطر.

ورغم عدم واقعية التعميم علـى كـل البلـدان الناميـة – لتفـاوت مستويات تطورها التاريخى– إلا أنه يمكن المجازفة بالقول بأن هذه

البلدان تعانى بصفة عامة من تخلف اقتصادى واجتماعى وتراوح عند مرحلة دنيا من التطور .

وهنا يشير غيورغى ميرسكى فى كتابه " الجيش والمجتمع والسياسة فى البلدان النامية " (١٩٨٧) إلى أن : " ضعف هذا التطور يرجع إلى غياب الطبقتين الأساسيتين القويتين القادرتين على الزعامة الاجتماعية وهما: البرجوازية والبروليتاريا اللتان تؤثران بنشاط على تطور البلدان المتحررة ، ولكن فلا هذه ، ولا تلك ، تمتلك بعد – فى أغلبية هذه البلدان – سنداً اجتماعياً لائقاً .

وفى مثل هذه المجتمعات ، الخالية من هاتين الطبقتين الأساسيتين ، البرجوازية والبروليتاريا ، المتميزة بسيطرة المنتجين الصغار القليلى (أو المعدومى) المشاركة فى نظام الإنتاج السلعى الرأسمالى لا تستطيع جهة غير الدولة أن تهيئ الأموال الضرورية للتنمية .

ففى عصر الثورة العلمية التكنولوجية ، تزداد أهمية رأس المال بما لا يقاس إذا كانت الدولة تتجه إلى التصنيع ، وهو ما لا يقدر عليه القطاع الخاص فى تلك البلدان ولكن يمكن أن توفره الدولة .

ومن ثم ، فإن الضعف الاقتصادى لرأسمالية القطاع الخاص فى هذه البلدان يدعم ويغذى الاستقلالية النسبية للبناء الفوقى ، مما يفسح الطريق وينمى الاتجاه نحو الاستبداد السياسى على أساس رأسمالية الدولة الاحتكارية, ويضع فى يد البيروقراطية الحكومية ،

والبيروقراطية العسكرية، والرأسمالية الطفيلية سلطات مطلقة وثروات هائلة ويحرم منها سواد الشعب.

ثم يضيف ميرسكى قائلاً : أن الرأسمالية المحلية ليست عملاقاً يقوم على كتفه أسباب النهضة ، بل هى كيان خائر القوة قليل الحيوية لا يمكن أن يعيش إلا على المساعدة من جانب الرأسمال الأجنبى أو يتطور تحت رعاية الدولة التى تحميه . وغدا واضحاً أن " الرأسمالية الجديدة " فى تلك البلدان هى بديل ردىء عن تلك الرأسمالية التى غدت محركة للنهوض الاقتصادى فى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية واليابان .

ولذا ، فإن الرأسمالية العالمية – وهى تسعى إلى ربط الأسواق المحلية بالسوق الدولية – تعتمد فى البلدان النامية على " البرجوازية البيروقراطية " التى تمثل نموذج رأسمالية الدولة (أى بديل البرجوازية) . أكثر مما تعتمد على طبقة البرجوازية الصناعية الوطنية المتطورة (التى يجب أن تكون من حيث المبدأ حاملة التطور الرأسمالى).

* * *

ثانيا : الصفوة البيروقراطية

فى كل بلد من البلدان ، نشاهد وجود ثلاث طبقات اجتماعية أساسية وهى : الملاك والأجراء والبيروقراط .

والوضع النسبى لهذه الطبقات ودورها الاجتماعى يختلف فى البلدان الرأسمالية عن نظيره فى البلدان التى يسودها نظام رأسمالية الدولة الاحتكارية (النظم الشمولية). ففى البلدان

الرأسمالية تكون السيادة للبرجوازية ، وفى نظام رأسمالية الدولة الاحتكارية تتوحش البيروقراطية.

وينوه الدكتور أحمد عباس عبد البديع فى كتابه " حكومة الفنيين " إلى أنه قد يختلط فى الأذهان مفهوم التكنوقراطية مع مفهوم البيروقراطية ، وهو خلط منشأه أن كلهم موظفون فى الحكومة أو فى قطاع الأعمال .

- فالبيروقراطية: تشير إلى حكم الموظفين أو سلطة الموظفين وإلى الدور المسيطر الذى يمارسونه. مع أنهم يتصفون بأنهم ذو اختصاصات عامة لا تعتمد على خبرة فنية ، إذ أن القرارات الإدارية التى يتولون تنفيذها ليست لها صبغة القرارات الفنية.
- أما التكنوقراط: فهم ذووا خبرات فنية عالية المهارة ومتخصصة فى كافة المجالات ، ويتميزون عن البيروقراطيين بالاستقلال النسبى فى إنجاز مهامهم.

وفضلا عن ذلك ..

فإن البيروقراطية – كما يقول ماكس فيبر M . Veber – تقضى بأن يكون الموظف العام خاضعا لنظام صارم من الرقابة والإشراف فى ممارسته لوظيفته ، وهو نظام مستمد من مبادئ التسلسل المكتبى ، ومقومات السلطة التدريجية ، ومجموعة الوثائق المدونة ، والقواعد العامة المستقرة التى تسير وفقاً لها إدارة المكتب ، أما الدور المسيطر الذى يمارسه الموظفون فإنه يرجع إلى أن البيروقراطية تسعى دائماً إلى زيادة سمو مركز المعرفة المهنية

عن طريق إحاطة ما اكتسبته من المعرفة وما تضمره من النوايا بقدر كبير من السرية والكتمان.

***

وهنا ، يجدر بنا التنويه إلى أن حالة البيروقراطيين في النظم الديموقراطية تختلف عن نظيرتها في النظم الشمولية ، فهم في الأولى (الديمقراطية) يخضعون لرقابة شعبية صارمة ويعملون في إطار تقاليد ديمقراطية مستقرة وذات قداسة ، أما في الثانية (الشمولية) فهم سادة يعملون بدون رقابة شعبية.

وهناك ثلاث رؤى متباينة حول هذه القضية ، و هي رؤى: ماركس ، وفيبر ، وبوتومور:

* فقد لاحظ ماركس أنه في المجتمعات الحديثة تتركز وسائل الإنتاج في أيدي طبقة رأسمالية صغيرة ، يعد زوالها بواسطة الطبقة العاملة الخطوة الأولى لبلوغ مرحلة الحرية الإنسانية .
* وقد لاحظ ماكس فيبر أن عملية تركز وسائل الإدارة سوف تبلغ أوجها في المجتمع الاشتراكي وما يترتب على ذلك من آثار خطيرة على حرية الأفراد ونمو الاقتصاد.
* أما بوتو مور فيلخص وضع الصفوة المتعلمة (المثقفين ، والبيروقراطيين، والمديرين .. إلخ) قائلاً: " أن الاستقلال الذاتي لهذه الصفوات محدود ،فلديها انتماءات طبقية مختلفة . فهي انتماءات متعددة عند المثقفين، ووحيدة في حالة المديرين والبيروقراطيين . ويضيف قائلاً ، وموضحاً ، أن البيروقراطيين

يخضعون مباشرة لرقابة السلطات السياسية ، سواء عن طريق الحزب الواحد كما هو الأمر فى النظم الشمولية أو بواسطة الأحزاب المتعددة كما فى حالة النظم الديمقراطية .

غير أن أهم ما يميز الصفوة البيروقراطية -إلى جانب دورها الهام فى تسيير دولاب العمل فى أجهزة الدولة- أن شرائحها العليا من المديرين والتكنوقراط يتحصلون على بدلات نقدية ومزايا عينية تفوق بكثير مساهماتهم فى الإنتاج. وهم بحكم تكوينهم العضوى وتطورهم التاريخى مهيئون إلى تحويل السياسات لأوامر وقرارات ملزمة لكافة الطبقات ، فهم خدام أى نظام سواء كان هذا النظام شموليا يحتكر السلطة . أو ديموقراطيا تتداول فيه السلطة ، أو نظاما ثيوقراطيا تسلطيا تحتكر فيه الصفوة الدينية خيرات الدنيا فضلا عن تطلعها لاحتكار نعيم الآخرة أيضا.

وفى حديث مطول بين ماركس وماكس فيبر :

- أوضح ماركس أن هناك اتجاها فى المجتمعات الحديثة لتركيز وسائل الإنتاج فى أيدى الطبقة الرأسمالية الصغيرة .
- وأوضح فيبر أن البيروقراطية قوية ليس فى البلدان الرأسمالية فقط، ولكن فى المجتمع الشيوعى أيضا، وكشف عن وجود اتجاه عام فى المجمعات الاشتراكية لتركيز وسائل الإدارة فى أيدى البيروقراطية الصغيرة.

أما ميلفون دوجلاس Milovan Dijilas فيميز بين البيروقراطية بشكل عام ، والطبقات الخاصة من البيروقراطيين الذين ليسوا موظفين إداريين ، ولكنهم يشكلون البيروقراطية الحاكمة (أو الطبقة الجديدة).. وقد وصفها دوجلاس كحزب أو بيروقراطية سياسية أو طبقة جديدة تتكون من هؤلاء الذين لهم امتيازات خاصة وأهمية اقتصادية بسبب الاحتكار الإدارى الذى يمارسونه" وهذه الطبقة تتخذ الحزب كأساس ، وبمرور الوقت "تصبح الطبقة أكثر قوة، بينما يزداد الحزب ضعفاً".

ثالثا: الصفوة الدينية

الدين عقيدة مقدسة فى حياة الشعوب . وهو المنهج الذى يتبعه المخلوق للاتصال بالخالق ونيل رضاه . ولقد أوحى الله إلى الأنبياء برسالات السماء وكلفهم بحفظها ونشرها بين العباد . فلما انقضى عهد الرسل وتوقفت المعجزات و انقطع الوحى بانقطاعهم عن الدنيا قام من بين الناس من يواصل رسالة الأنبياء ويرعى الدين ويدعو إلى التدين . ولذا فقد ظهرت فئة رجال الدين اللذين يؤدون رسالتهم – عادة – فى إطار ما يسمى " بالمؤسسة الدينية". فرجال الدين هم الذين تفقهوا فى علوم الأديان وتخصصوا فى فروعها ، واضطلعوا بمهمة تعليمها وتوريثها بين الأجيال وجاهدوا فى سبيل دعوة الناس

للتمسك بها وإقامة شعائرها والالتزام بنواهيها وأوامرها فاكتسبوا عندهم توقيراً واحتراماً وقداسة لا يرقى إليها غيرهم .

فالدين فى رأى دوركايم Durkheim نشاط جمعى ، فهو يشمل جماعة اجتماعية (فلم نجد فى التاريخ دينا بدون مؤسسة دينية). والإيمان بالله والاعتقاد فيه حق لجميع البشر ، وعبادته فرض عين على كل مؤمن، والمؤمنون جميعا متساوون فى ذلك : السيد منهم والعبد ، الحاكم منهم والمحكوم ، الغنى منهم والفقير . فلا فضل لأحد منهم – عند الله – على غيره إلا بالتقوى والعمل الصالح.

ومع أن الناس فى حياتهم الروحية متساوون فى حق إقامة الشعائر الدينية . ومتساوون كذلك عند الحساب أمام الله فى الأبدية . إلا أنهم يحتلون درجات يعلو بعضها بعضا فى حياتهم الاجتماعية . ففى الحياة، يتدرج الهرم الاجتماعى صعودا وهبوطا بحيث تضيق درجاته كلما صعدنا نحو القمة وتتسع درجاته كلما هبطنا نحو القاعدة. فالثروة والسلطة وعلو الشأن تتركز فى يد الصفوة عند القمة . فى حين يتوزع الفقر والضعة ودنو الشأن على العامة عند القاعدة .

ومع أن رجال الدين يشكلون فى إطار الهرم الاجتماعى جماعة مميزة عن غيرها من حيث المهنة والهيئه والوظيفة الاجتماعية، إلا أنهم – مثل غيرهم من الفئات والقوى الاجتماعية – يتدرجون فى شكل هرمى خاص بهم، يتسيد كبار رجال الدين قمته ويتوسد مقيموا

الشعائر قاعدته ، وفيما بين القمة والقاع يتدرج العلماء والوعاظ والدعاة من حيث الدخل ومستوى المعيشة والوجاهة الاجتماعية . فالمعدمون عادة يسكنون القاع ، والمترفون عادة يتربعون على القمة. وتلك – كانت وظلت – نتيجة من نواتج السياسة، لا مبدأ من مبادئ الأديان.

***

والعلاقة بين الدين والسياسة ، كانت دائما محط اهتمام المفكرين ومجال نشاط الباحثين . وهو ما تناولته الدكتورة سامية مصطفى الخشاب فى كتابها " علم الاجتماع الدينى " :

* فالدين فى جوهره هو اعتقاد فى وحدانية الخالق وتفرده ، فهو الله ليس كمثله شيء فى الأرض ولا فى السماء . وهو دعوة إلى عبادته وطلب رحمته والتودد اليه باحياء سننه وإقامة شعائره.
* اما السياسة فى تعريف هارولد لاسول H . Lasswell " فهى العملية التى تحدد توزيع مكافآت المجتمع طبقا لتوازن علاقات القوة فيه ". وهى تهتم فى رأى ينجر M. Yinger بالمعايير الاجتماعية التى تحدد كيف ، وبواسطة من ، تستخدم القوة القسرية لتحقيق الأهداف المجتمعية .

والعلاقة بين الاثنين – الدين والسياسة – ليست على شاكلة واحدة فى المجتمعات الإنسانية والنظم السياسية المتباينة:

* إذ توجد (حكومات دينية خالصة Pure Theocracy) . وهذه الحكومات تقوم على فكرة حكم الإله أى الإله الحاكم . وقد عرفت

المجتمعات البدائية - خاصة فى مصر القديمة - هذا الشكل من الحكومات ، كما عرفتها أيضا بعض المجتمعات المتقدمة مثل اليابان .فاليابانيون ظلوا حتى الحرب العالميه الثانية يؤمنوا بأن الإمبراطور إله إبن إله ولم يكن يظهر بهيئته لعامة الشعب مطلقا فلما هزمت اليابان أمام الحلفاء أجبرة الحاكم العسكري الأميركى على الظهور علانية حتى يرى اليابانيون رؤيا العين أنه مثلهم بشر من لحم ودم وعظام ، وأنه ليس إبن الشمس وإنما هو انسان له أب وأم مثل عامة الشعب بلا زيادة أو نقصان.

لذلك ، كثيرا ما نجد أن الملوك والرؤساء ليسوا مجرد حكام يملكون السلطة الزمنية فقط ، وانما يجمعون اليها أيضا كثيرا من السلطات الروحية المتوارثة ، ويستمدون سلطتهم السياسية مما أتفقوا عليه من أوضاع دينية لديهم ، حيث أن قادة النظام يجمعون في مثل هذة البلدان بين السلطتين الزمنية والدينية فى آن واحد . إلا أن الشيء الهام فى مثل تلك النظم هو الارتكاز والاستناد إلى النظام الدينى فالنظام الدينى هو الذى يساند بقاء هذه الأوضاع الاجتماعية على ما هى عليه مثلما هو الحال الآن فى دولة إيران الشيعية.

* كما توجد (حكومات دينية معتدلة Modified Theocracy) . والدولة فى ظل هذا الشكل من الحكومات تكون تابعة للمؤسسات الدينية وزعماتها. فالدولة لم تكن توجد ككيان منفصل ، ولكن

ينظر إليها على أنها هيئة تقوى وتدعم الدين ، وهيئة ضـــرورية لتوجيه الأفراد – الذين لديهم ميل للانحراف عن قيم المجتمـــع – إلى الاعتماد على الدين لما له من سلطة . وقد ساد هذا النوع من الحكومات معظم البلدان الأوربية فى العصور الوســطى ومـــازال أيضاً له السيادة فى بعض الدول الإسلامية.

* ويوجد أيضاً (النظام الـــشمولى Totalitarian System) . وفيـــه تتحكم الدولة فى الدين وتستخدم رجال الدين كأداة وذراع قوة لها كما هو حادث فى معظم الدول التى يحكمها طغاة ويعيـــث فيهـــا البغاة عسفا وفساداً كما هو الحال فى معظم الدول العربية .

* كما توجد أيضا (حكومنت ديمقراطية علمانيـــة) ، يـــسيطر فيهـــا المدنيون المنتخبون على مؤسسات الدولة . ومع تمتع المؤسسة الدينية بالاستقلال النسبى الا انها لا تقوم بأى دور سياسى علـــى الإطلاق وهو النظام السائد الآن فى كل الدول الأوروبية وإسرائيل وأمريكا وكندا واليابان.

وفي هذا المجال يزعم بعض الفلاسفة أن الأديان ظواهر اجتماعية، سواء كان مصدرها إبداعات بشرية ، أو كانت وحيا إلهيا ، وأنها في جميع الأحوال تؤدى دوراً هاما فى تأسيس قواعـــد التعامـــل بـــين الإنسان وعالمه وبين الأنا والآخر.

ولقد استندت هذه الرؤى في الأساس إلى مقولات عدد مـــن رواد علم الاجتماع ، وفى طليعتهم ماركس وماكس فيبر ، غيـــر أن الأول (Mrx) يرى أن الدين يعوق التقدم ويغيب العقول ورفع شعار "الدين

أفيون الشعوب" بينما الثانى (Weber) يرى أن الدين يمكن أن يكون ذو أثر إيجابى على التنمية والتغير الاجتماعى ، واستند فى ذلك إلى الأثر الإيجابى الذى أحدثه المذهب البروتستانتى فى الحياة الاجتماعية الأمر الذى كان إيذانا بتحول أوروبا من الاقطاع إلى الرأسمالية.

* * *

وعليه ...

فإن الدين عقيدة سماوية مقدسة ، ومكون أساسى فى ثقافات الشعوب والأمم ، ولذا فإن الطبقات الاجتماعية والجماعات السياسية المتناحرة كثيرا ما توظفه لتحقيق مصالحها وبلوغ أهدافها فى الدنيا وتجريم خصومها وحرمانهم من نعيم الجنة يوم الحساب في الآخرة. فرجال الصفوة الدينية من التقليديين والرسميين يوظفونه لإقناع الناس بالرضا بما هم عليه من حال ويأمرونهم بطاعة ولى الأمر حتى لو كان من الجهال. أما أمراء الجهاد فيوظفونه لتجييش أتباعهم وتنظم قواهم وحضهم على الجهاد طمعا فى الخلود في الجنة حال الممات، فالدين حمال أوجه ، كما قال من قبل الخليفه الراشد على ابن طالب.

* * *

رابعا: الصفوة العسكرية

إذا استعرضنا دور القوى الاجتماعية المختلفة فى كل مجتمع – خاصة فى البلدان المتخلفة والنظم الشمولية– نجد أن المؤسسة

العسكرية هى العمود الفقرى والركيزة الأساسية لاستقرار الدولة وحماية النظام السياسى من أى اعتداء ، وإن دور القوى الأخرى – رغم أهميتها – يكون دور مساعد لها ، فمن يسيطرون على المؤسسة العسكرية يسيطرون على النظام السياسى ، ومن يسيطرون على النظام السياسى يستحوذون بالتبعية على الثروة وما تولده من دخل ، ويسيطرون على السلطة السياسية وما تضفيه من هيبة .

ومن أجل فهم طبيعة العلاقة بين الجيش والدولة يميز الفيلسوف المغربى عبد الإله بلقزيز بين الدولة والسلطة :

* فالدولة : هى الكيان السياسى لشعب أو أمة. وهى بهذا المعنى كيان محايد ومجرد أو متعال عن مجال المنافسة . لأنها تعبر عن السيادة وتمثل العامة.
* أما السلطة : فهى تعبير عن توازن القوى الاجتماعية والسياسية ، وتجسيد مؤسسى لذلك التوازن فى جهاز الحكم ، وهى بهذا المعنى تنتمى لحقل الممارسات التى تقوم بها قوى اجتماعية متباينة المصالح والأهداف.

ولذا ، فإن دور المؤسسة العسكرية فى الدول الديمقراطية ، يختلف عن نظيره فى الدول الشمولية . إذ أن حياد الجيش يستمد من حياد الدولة الديمقراطية ذاتها . فى حين تصبح الدولة الشمولية، بما فيها الجيش، أداة الأقلية لقهر الأغلبية:

- ففى الدول الديمقراطية .. حيث يتم تداول السلطة بين المواطنين على المشاع عبر صناديق الاقتراع ، يكون دور الجيش موجهاً للخارج سواء للدفاع عن الوطن ، أو لتحقيق أهداف وطنية فى أراضى أجنبية .
- أما فى الدول الشمولية .. حيث يتم احتكار السلطة بيد فئة صغيرة من الصفوة ، فإن الدور الرئيسى للمؤسسة العسكرية بجناحيها ، الجيش والشرطة ، هو حماية النظام السياسى القائم فى مواجهة المعارضين له أو الثائرين عليه .

وهذه الحقيقة عبر عنها الكاتب السوفيتى غيورغى ميرسكى فى كتابه " الجيش والمجتمع والسياسة فهى البلدان النامية (١٩٨٧) قائلا : " الجيش هو رمز سيادة الدولة ونظامها الوطنى . وفى كثير من الدول النامية يشغل الجيش الصغير جدا مكانة كبيرة لا تتناسب مع حجمه فى حياة البلاد ".

***

ويشير الدكتور إبراهيم خضر فى كتابه " الجيش والمجتمع... دراسة فى علم الاجتماع العسكرى " ١٩٨٥ إلى أن المجتمع العسكرى Military Community هو نسق اجتماعى مميز نسبيا وله أنماطه السلوكية الخاصة به ، ويستلهم أفراده وأسرهم أنماط وقيم هذا المجتمع الذى يعتبر بالنسبة إليهم طريقة حياة.

وفى هذا الجو يعمل الجيش كجماعة متلاحمة . وحتى عندما يكون الضباط منحدرين من فئات السكان السفلى فإن " نسبة " التركة

التى يتلقونها من عائلاتهم ومن الوسط الاجتماعى فى الطفولة تعد ضئيلة بالمقارنة مع الشخصية القوية التى يكتسبونها من المعالجة المهنية خلال سنوات الدراسة الطويلة فى المدارس العسكرية والمكوث فى الثكنات .

وبالتدريج ، تتمادى عملية التماثل وتتعمق حتى لا تبقى جذور اجتماعية قوية من تلك التي كانت سابقة علي الجندية . فالجماعة العسكرية تبتلع وتنتزع هوية الأشخاص المنحدرين من مختلف طبقات وفئات المجتمع . لأن هؤلاء يكتسبون أثناء الخدمة العسكرية خاصية جديدة . ويندمجون فيما بينهم مكونين كيانا موحدا وتنشأ بينهم النظرة الجماعية العامة .

ففى الجيش ، تختلط جميع فئات السكان وأبناء مختلف المناطق والطبقات ، بما فيهم الفلاحون الأميون الذى ينحصر أفق تفكيرهم بعالم القرية الضيق ؛ يبدءون بوعى ذاتهم كأفراد فى أسرة وطنية واحدة عندما يلتقون بأناس من مناطق أخرى وفئات اجتماعية مغايرة.

فالجيش هو الذى يغرس فيهم – جميعا – الوعى الوطنى . ولذا ، فإنه يعتبر رمزاً لوحدة الأمة وحاملاً للسيادة ، وهذا ما يجعله بمثابة تنظيم خاص داخل الدولة ، ويضفى عليه طابعاً خاصاً ويضعه فى مكان أفضل بالمقارنة مع المنظمات الأخرى الفاعلة فى المجتمع.

وفضلاً عن ذلك ، فإن الامتيازات الاجتماعية ، والتسهيلات المادية المقدمة إلى الضباط تساعدهم على تمثل دور " النخبة " المتميزة وإدراك انتمائهم إلى الجماعة المختارة والصفوة المنتقاة.

***

ويفيد غيورغى ميرسكى بأن الجيش (والأصح كبار ضباطه) يشكل فى المجتمع ، المستند إلى سيطرة الملكية الخاصة ، جزءاً من البيروقراطية ، ويتصف بصفاتها إلى جانب احتفاظه بسماته الخاصة ذاتها ؛ وفى هذا الإطار تتحول هيئة كبار الضباط – وعلى الأخص فى البلدان النامية والنظم الشمولية – إلى رأسمال جماعى . فالأموال والإمكانيات والحقوق المادية للجيش قابلة تماما لمقارنتها بما يمتلكه أرباب العمل من رأس مال.

وقد لاحظ ماركس وانجلز أن اتجاه البيروقراطية نحو الاغتراب عن المجتمع ونحو السيطرة عليه – إنما هو اتجاه – ملازم للجيش أيضا بالقدر نفسه . كما لاحظا أيضا أن الجيش – فى ظروف تاريخية معينة – يكون بمثابة قوة سياسية مستقلة نسبيا تتوخى مصالحها الجماعية الخاصة.

***

وبقدر ما يتحول كبار ضباط الجيش إلى جماعة عسكرية بيروقراطية، فإنهم يسعون إلى نفس ما تسعى إليه أية فئة اجتماعية ثابتة مندمجة " بالنظام " ومتمتعة بامتيازاته ، أى تعمل على تحقيق

الاستقرار وضمان بقاء الأحوال على ما هى عليه ، فالضباط ، من حيث نفسيتهم قريبون إلى البرجوازيين ، الذين يميلون إلى التمتع بالامتيازات والسكن في المدن، والتماس أسباب الراحة في الحياة.

ولـــذا ...

فإن التغيرات الشديدة فى المجتمع غير مرغوب بها من جانبهم ، وإن حالة الأزمة وخطر الفوضى يستثيرانهم ويجعلانهم غاضبين على الجماعات السياسية ؛ إذ أن التربية العسكرية ، التى تركز على النظام والانضباط والخضوع للأوامر وتشابه الآراء والتصرفات تغرس فى نفوس الضباط عدم الثقة بالمنظرين والمثقفين ذو النظرة الواسعة إلى الأشياء .

وتزداد لديهم الريبة وحتى العداء إزاء الديمقراطية . ويترسخ لديهم الاعتقاد بضرورة الرقابة على الفكر السياسى . وبالتالى الرقابة على الأحزاب والشخصيات السياسية . ويتصاعد لديهم الخوف من أن الجماهير يمكن ان تتأثر بالدعاية الفتاكة وتنساق وراء " الضلال" و "الانحراف" . وهذا هو مبعث الموقف الأبوى الرعائى إزاء الشعب الذى " يحتاج إلى من يقوده " . ومبعث الاتجاه صوب الأوتوقراطية التى تحمى الناس من الغايات والتأثيرات الغريبة التي يروج لها المثقفون ذو الياقات البيضاء .

ولذا ، فهم ينزعون إلى الاستغناء عن الأحزاب والمنظمات بالمعنى الحقيقى للكلمة ويستبدلونها ببدائل هزيلة على شكل "حركات

جماهيرية" تظاهرية عديمة الهوية فضفاضة تفتقر إلـى أي توجـه اجتماعي وسياسي واضح المعالم مميز القسمات.

" فالسياسة بدون ساسة، و السياسة بدون حياة سياسية " هو الشعار غير المعلن لغالبية الأنظمة العسكرية .

فالعسكريون ، يرون فى الجيش ضمانه لاستقرار أنظمة الدولة ، وقوة تحول دون النزاعات الداخلية ودون تمـزق البلـد أو انتـشار الاضطراب والفوضى ، ويعتبرون أن تلك هى ظيفتهم الأولى.

وبحكم هذه الوظيفة ، يمنح الجيش لنفسه فى الوقت ذاتـه وظيفـة ثانية هى وظيفة الحكم بين الفئات والقوى السياسية فى المجتمـع، بحجة أن الجيش – الخالى من التكتلات والذى هو مؤسـسة للأمـة جمعاء – يحق له وحده ، وهو ملزم أثناء الفتنة ، بأن يتـدخل فـى السياسة ويزود عن الأمة.

ومعنى هذا – حسبما يقول ميرسكي- أنـه إذا كـان الجـيش لا يمارس الحكم بنفسه ، فى بلد ما ، فهو حتما يقـرر مـن يمـارس الحكم. إذ أن الضباط الذين توجد القوات المسلحة تحت تـصرفهم ، يمتلكون دوماً قدرة كاملة للتأثير بالعنف على سياسة البلد وتوجيهها فى هذا الاتجاه أو ذاك ، وهم إن لم يحكموا بأنفسهم فإنهم يؤمنـون سير الحياة السياسية بصورة طبيعية ويقيدون الـساسة " بقواعـد اللعبة " .

وينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار كذلك ، أن الجنرالات وسلك الضباط، مهما كان عددهم قليلاً ، يمتلكون القوة المسلحة المنظمة الوحيدة فى البلاد ، تلك القوة التى يستخدمونها – بلا تردد – ضد أى من ممثلى السلطة المدنية إذا قرروا تقليص دور الجيش أو الحد من نفوذه ومزاياة ؛ هؤلاء الآخرون يفهمون ذلك جيدا ، فالجيش يرى أنه الحامل الأعلى للأفكار القومية " فالسياسة تعود إلى الأحزاب والوطن يعود إلى الجيش " وهذا هو ما ظهر واضحا بجلاء فى الحالة التركية فى النصف قرن الأخير .

ومثل هذه السياسات غالبا ما تسعد البيروقراطية . فالبيروقراطية تخدم النظام الذى يستلم فيه العسكريون الحكم بولاء تام. هو ما يمكن تفسيرة. بأن البيروقراطية تشعر بحدسها الطبقى بأن النظام الذى تتمتع فيه الزمرة الحاكمة بالامتيازات سيظل باقيا بحد ذاته ، وهو ما يحافظ على أوضاعهم المادية ومكانتهم الاجتماعية فى ظل هذا النظام الذي ينشد الاستمرار .

***

ويستكمل غيورغي ميرسكي رؤيته لدور الجيش فى السياسة قائلا: يرى البعض أن الجيش ، الذى هو قوات مسلحة منظمة ومنضبطة، قادراً دوماً على التدخل فى شئون الحياة السياسية ، وهو ما يشكل خطراً دائماً كامناً على كثير من الحكومات ، إذ أن العسكر فى ظروف معينة ، عندما يشعرون بأنهم بمنجى عن العقاب ،

وبأنهم يمتلكون مواقع منيعة فى السياسة والاقتصاد ، يمكن أن ينساقوا للفساد وبقدر لا يقل عن فساد المدنيين . ولذا ، فقد أعلن رئيس جمهورية تنزانيا الأسبق جوليوس نيريرى ذات مرة" أن وجود الجيش فى بلد ضعيف ينطوى دوماً على المجازفة "، ومن ثم فإن مهمة الدولة تتلخص فى تأمين التزام وانضباط الضباط والجنود كى لا يكونوا ، على سبيل المثال، أكثر خطراً علي الأمة من مستخدمى جهاز الدولة .

كما يقول أيضاً ، أن بعض الحكومات ترى أنه لا يمكن تأمين ولاء الجيش إلا بابقاء الامتيازات (الحالية) . وأن آية محاولة لسحب هذه الامتيازات أو التباطؤ فى تقديم امتيازات جديدة، يتطلبها الجيش تنطوى على الخطر الذى تحدث عنه (نيريرى). فالجيش فى رأيه غالبا ما يعمل على الصعيد السياسى بهالة أمجاد "منقذ الوطن" ويروج العسكريون لنيتهم فى وضع حد للصراع الداخلى واستعادة وحدة الأمة إذا نشبت ثروة شعبية وعمت الفوضى.

ولن يضير هنا أن نسوق مثالا مغايرا من بلد ديموقراطي متقدم هو الولايات المتحدة الأمريكية U.S.A يخضع فيه العسكر خضوعا تاما للسياسيين حكام البيت الأبيض.حيث يقول المؤرخ الأمريكي أندرو باسيفيتش مؤلف كتاب " العسكرية الأمريكية الجديدة" أنه منذ أحداث ١١ سبتمبر، الذي تعرضت فيها أمريكا لأول مرة لهجوم على

أراضيها نفذه جهاديوا تنظيم القاعدة ، اكتسبت القـوات المـسلحة نفوذاً سياسياً واجتماعياً أكبر وأصبحت حامى الحمى المنزهة عـن الخطأ، وتعاظم الشعور داخل الكيان العسكري بالـسيطرة والتفـوق الأخلاقي للعسكري على المدني ، مما أدى إلى تمجيد الحـرب ودور المحارب . وتجسيدا لنمو مكانة العسكر بعد احـداث ١١ سـبتمبر وجه الجنرال ماكريسيتال قائد القوات الأمريكية في أفغانستان نقـداً حاداً لسياسة الرئيس أوباما وكبار مساعديه فأقاله الـرئيس علـى الفور دون إبطاء.

هذا هو ما حدث في بلد ديموقراطي متقدم.. يخضع فيه العسكرى للمدنى ويتلقى منه الأوامر والتكليفات .

أما في البلدان المتخلفة، وعندما يتمرد الجيش ويحكـم الـضباط البلاد بأنفسهم مباشرة عادة مايتعهدون للشعوب بـأنهم سـيديرون البلاد لمرحلة انتقالية موقتة ، يؤسسون فيها لحيـاة ديموقراطيـة سليمة ، ويحققون الاستقرار للوطن ويوحدون الأمة . ثم يعـودون بعد ذلك إلى الثكنات دون إبطاء ، ولكن مثل هذه الوعود لايوفي بها عادة، فلم يحدث من قبل فى التاريخ أن حافظ الأقوياء علي العهود. فليس من المعقول أن يطيع رجل مسلح أوامر غيره الأعزل.

***

خامسا: الصفوة الحاكمة

تمثل قضايا الطبقات الاجتماعية والصفوة الحاكمة أهمية كبيرة فى الفكر الاجتماعى السياسى.

ومع أن هناك قدراً ملحوظاً من الاتفاق بين علماء الصفوة حول نقاط عديدة تشرح مفهوم الصفوة إلا أن الدكتور السيد الحسينى عالم الاجتماع المصرى ، يرى أن ثمة فروق ملحوظة بينهم فيما يتعلق بخصائص الصفوة وفرصها فى الحصول على القوة ويستند إلى أدبيات علم الاجتماع السياسى فى رصد أربعة اتجاهات أساسية متميزة فى دراسة الصفوات وهى (الاتجاه التنظيمى ، والسيكولوجى، والاقتصادى . والنظامى) يضاف إليهم إتجاها خامسا وهو الاتجاه الماركسى.

* * *

* والاتجاه الأول (التنظيمى) يمثله العالم الايطالى موسكا (١٨٥٨-١٩٤١) Moska ويرى أن الصفوة تمتلك مقاليد القوة بفضل قدرتها التنظيمية ، وتقديرها الدقيق لمصادر القوة فى المجتمع . ويذهب إلى أن الضبط الذى تمارسه الصفوة يعتمد على كونها قلة متماسكة تشكل جبهة قوية تتصف بقدرات تنظيمية لا تتوافر لدى الجماعات الكبيرة المفككة .

وقــد عبر موسكا عن فـكرته الأساسية عــن الــصفوة فــى العبارات الآتية: "من بين الحقائق الثابتة التى يمكن أن نلحظها ، هناك حقيقة واضحة إلى أبعد حد وهــى أنــه توجــد فــى كــل المجتمعات طبقتان متمايزتان من الناس : طبقة منظمة تحكــم ، وأخرى مفككة تُحكم" .

_ والطبقة الأولى (الحاكمة): عادة ما تكون أقل عــدداً ، وأقــوى سيطرة على الوظائف السياسية ، وأشد احتكاراً للقوة ، فــضلاً عن تمتعها بالمزايا المصاحبة للقوة.

_ أما الطبقة الثانية (المحكومة): فهى الأكثر عــدداً والخاضــعة لتوجيه وتحكم الطبقة الأولى ، وهى التى تمد الطبقة الأولــى بالوسائل المادية للحياة ، وبالوسائل الضرورية لبقاء النظــام السياسى وتحافظ على حيويته.

ومثل هذا التوجه والتحكم الذى تمارسه الطبقة الحاكمة علــى الطبقات المحكومة يتخذ طابعا قانونيا بشكل أو باخر كما يتخــذ طابعا تعسفيا أو عنيفا على نحو معــين. أى أن الــصفوة فــى مفهوم موسكا هى الجماعة الصغيرة ، التى تتــصف بقــدرات تنظيمية لا توجد لدى الجماعات الكبيرة.

* والاتجاه الثانى (السلوكى) يمثلــه بــاريتو (١٨٤٨-١٩٢٣) Pareto. وينطلق مفهوم باريتو عن الصفوة مــن مقولــة " أن المجتمع البشرى ليس متجانساً ، فالناس مختلفون جسماً وعقــلاً وخلقاً " ويتدرجون من قمة الهرم الاجتماعى إلى قاعدته الــسفيا ؛

والذين هم فى القمة يمثلون الشريحة العليا من كل طبقة ، ويشكلون فيما بينهم صفوة اجتماعية .

وانطلاقاً من هذا المفهوم ، يميز باريتو السكان إلى شريحتين:

- الشريحة السفلى .. وهى طبقة عامة الناس (أو اللا صفوة).
- الشريحة العليا .. وهى طبقة الصفوة وهى عادة الطبقة الأغنى التى تتميز وتنقسم إلى قسمين :

- صفوة حاكمة .. تتألف من الذين يلعبون دورا ملحوظا مباشرا أو غير مباشر فى إدارة شئون الدولة وتشمل الوزراء وأعضاء مجلس الشيوخ ، والنواب ، والقضاة ، والقادة العسكريون . وذلك بفضل الاستثناءات المناسبة التى يحددون طريقهم من خلالها .
- صفوة غير حاكمة..تتألف من بقية أفراد الطبقة أو الصفوة بمعناها الواسع.

* والاتجاه الثالث (الاقتصادى) يمثله جيمس بيرنهام **Burnham**. وينطلق فى مفهومه . من أن تحكم الصفوة فى وسائل الإنتاج هو الذى يمنحها الوضع المسيطر فى أى مجتمع. فالتحكم فى وسائل الإنتاج يصاحبه بالضرورة قوة اقتصادية واجتماعية وسياسية ؛ وفى ذلك يقول: "إذا أردنا أن نحدد الطبقة الحاكمة فعلينا أن نبحث عن الطبقة التى تحصل على أعلى الدخول". وعلى نفس الدرب سار لازويل وعرف الصفوات بأنها تمثل أولئك الذين يحصلون

على معظم ما يمكن الحصول عليه من الأشياء القيمة بما فيها التميز والدخل والشعور بالأمان .

* والاتجاه الرابع (النظامى) يمثله رايت ميلز Mills. ويري أن الصفوة هى نتاج للطابع النظامى الذى يسيطر سيطرة كاملة على المجتمع الحديث، وهو ما يتجلى فى ظهور منظمات تحتل أهمية محورية فى المجتمع ، وتشكل فى مجموعها الأوضاع القيادية فى البناء الاجتماعى، وقادة هذه المنظمات يشكلون بدورهم صفوة قوة على مستوى قومى، بحيث تنشأ بينهم صلات وروابط وثيقة ، تكون فى أوج قوتها حينما "يتبادل الأفراد فيما بينهم الوظائف العليا الممثلة لقطاعات المجتمع المختلفة ". وتظهر صفوة القوة عند ميلز، من خلال المواقع القيادية Command Posts التى تتمركز فى المنظمات الكبيرة ، ويمثل صفوة القوة فى عمومها، أولئك الذين يشغلون أماكن صنع القرار فى هذه التنظيمات.

* أما الاتجاه الخامس (الماركسى)، فيمثله ماركس وإنجلز ولينين ومريدوهم.. فقد ظهرت الماركسية باعتبارها أكثر النظريات التى عرفتها العلوم الاجتماعية شمولاً ونضجا ، فهى عقيدة تقرر الأهداف بوضوح (أى تقرر الغايات) التى يتعين تحقيقها والتى تقدم تبريراً أخلاقياً وأيديولوجيا للصفوة الحاكمة وسياستها.

***

وفى كتابه "الصفوة والمجتمع .. دراسة فى علم الاجتماع السياسى" يلخص بوتومور عالم الاجتماع الإنجليزى ، نظرية الصفوة الماركسية فى القضايا التالية :

- فى كل مجتمع من المجتمعات ، باستثناء أكثرها بدائية ، توجد فئتين من الناس يمكن التمييز بينهما (أ) طبقة حاكمة (ب) وطبقة أو أكثر خاضعة أو محكومة .
- يمكن تفسير الوضع المسيطر الذى تحتله الطبقة الحاكمة إذا ما فسرنا ملكيتها للوسائل الأساسية للإنتاج الاقتصادى ، وإن كانت سيطرتها تمتد أيضا لتشمل القوة العسكرية والنشاط الفكرى .
- هناك صراع لا ينفك بين الطبقة الحاكمة والطبقة أو الطبقات الخاضعة ، وإن طبيعة هذا الصراع ومجراه يتأثران أساسا بتطور قوى الإنتاج بمافيها التكنولوجيا والإنسان.
- إن من السهل تحديد أبعاد الصراع الطبقى فى المجتمعات الرأسمالية الحديثة ، وذلك لأن التعارض بين المصالح الاقتصادية يبدو أوضح ما يكون فى هذه المجتمعات ، ولا يمكن أن تعوقه عن الظهور أية روابط شخصية كتلك التى كانت سائدة فى المجتمع الإقطاعى . هذا فضلاً عن أن تطور الرأسمالية قد أدى إلى استقطاب متطرف للطبقات ، استقطاب لم يشهده أى نمط من أنماط المجتمعات التى عرفتها الإنسانية حتى الآن . والمجتمع الرأسمالى الحديث يتميز – بعد ذلك كله – بتركيز هائل فى الثروة يصاحبه فقر مدقع مع سعى تدريجى

لإزالة الطبقات الاجتماعية الوسيطة أو الانتقالية (وهــى مــا يسمى في أدبيات الفكر الاجتماعي بتآكل الطبقة المتوسطة).

- إن صراع الطبقات داخل المجتمع الرأسمالى ســينتهى حتمــاً بانتصار الطبقة العاملة . وسيتبع هذا الانتــصار مجتمــع لا طبقى.

وعلى الرغم من انهيار النظام الشيوعى، فى الاتحاد السوفيتى وبلدان أوروبا الشرقية ، الذى كان يتخذ من الماركسية مرشداً و أيديولوجية يؤمن بها و يهتدى بهديها ، وعلى الرغم من أوجــه النقد العديدة التى نالت من الماركسية ، إلى أن نظريــة الــصفوة الماركسية ما زالت صالحة إلى حد كبير لتفسير وشــرح ظــاهرة الصفوة فى المجتمعات المعاصرة.

* * *

و نفــس الــسياق يميــز بوتومــور بــين مفهــوم "الــصفوة الحاكمة"ومفهوم"الطبقة الحاكمة".

* فالطبقة الحاكمة The Ruling class تعرف بأنها الطبقة التى تمتلك الوسائل الأساسية للإنتاج الاقتصادى فى المجتمع . وهو مفهــوم يقابل بين الطبقة المسيطرة من ناحية والطبقات الخاضــعة مــن ناحية أخرى . وهذا المصطلح يفترض تماسك أفراد هذه الطبقــة لأن لدى أفرادها مصالح اقتصادية مشتركة ومحــددة .ولأنهــا – وهذا هو الأهم – داخلة فى صراع مــع الطبقــات الأخــرى فــى

المجتمع ،صراع يزيد من وعيها الذاتى ويدعم تضامنها ، وفضلاً عن ذلك كله فهذا المصطلح يشير وبدقة إلى أن السيطرة الاقتصادية هى القاعدة التي ينهض إليها وضع الصفوة الحاكمة.

* والصفوة الحاكمة The Ruling Elite تعرف بأنها مجموعة متماسكة من الأشخاص الذين يشكلون معظم السلطة السياسية ويشغلون الأوضاع القيادية فيها ، وهو مفهوم يقابل بين الأقلية المنظمة الحاكمة من ناحية ، وبين الأغلبية غير المنظمة (الجماهير) من ناحية أخرى .

ومع التعارض الظاهر بين مفهوم " الطبقة الحاكمة " و " الصفوة الحاكمة" على النحو السابق إلا أن المقابلة بينهما تكشف عن أنهما يكملان بعضهما البعض ، من حيث إشارتهما إلى أنماط مختلفة من الأنظمة السياسية أو جوانب مختلفة من النظام السياسى الواحد .

وبموجب هذا التكامل ، استعان بوتومور بمفهومى "الطبقة الحاكمة" و"الصفوة الحاكمة" للتمييز بين ثلاثة أنماط من المجتمعات :

أولاً : مجتمعات يوجد فيها – فى وقت واحد – طبقة حاكمة وصفوات تعبر كل منها عن مصالح خاصة .

ثانياً : مجتمعات أخرى لا يوجد بها طبقة حاكمة ، بل صفوة سياسية تستند فى قوتها إلى التحكم فى الإدارة أو احتكار القوة العسكرية أكثر من استنادها إلى التوريث وحقوق الملكية .

ثالثا : مجتمعات تشهد صفوات متعددة ، لا تمثل فى مجموعها جماعة متماسكة مستمرة .

***

(٤) الطبقة المترفة

(صفوة الصفوات)

يختلف تعريفنا للطبقات الاجتماعية باختلاف نظرتنا إلى المجتمع، فنحن أحيانا ننظر إلي المجتمع نظرة أفقية، وأحيانا ننظر إليه نظرة رأسية:

* والنظرة الرأسية: أساسها (المهنة) ، وتميز المجتمع إلى طبقات متجاورة يميزها عن بعضها البعض نوع النشاط الاقتصادى الذى يمارسه أفرادها. وهى نظرة تماثل نظرتنا إلى أهرامات متجاورة فى منطقة واحدة.فكل اقتصاد قومي يتميز إلي قطاعات اقتصادية متباينة مثل قطاعات الزراعة والصناعة والخدمات وما إلي غير ذلك من قطاعات أساسية في الاقتصاد . وما يتولد عنها من قطاعات فرعية تتوقف علي المدي الذي بلغه التخصص وتقسيم العمل في المجتمع.

وفى النشاط الزراعى لدينا ملاك ومستأجرون ومزارعون (عمال زراعة). وفى النشاط التجارى لدينا تجار ومسوقون وعمال مناوله وتحميل. وفى النشاط الصناعى لدينا رجال أعمال وعمال. وفى قطاع الخدمات لدينا المهنيون مع اختلاف تخصصاتهم. وفى قطاع الحكومة لدينا الموظفون على اختلاف درجاتهم .. وهكذا .. فالأنشطة الاقتصادية المختلفة تفرز طبقات وقوى اجتماعية مختلفة.. وكلما تطور المجتمع نشأت طبقات وقوى اجتماعية جديدة تواكب توسع وتعمق التخصص وتقسيم العمل فى المجتمع.

وكل من هذه الطبقات تتميز إلى شرائح متباينة من حيث المكانة والسلوك ومستوى المعيشة.

* أما النظرة الأفقية: فأساسها (حجم الدخل والثروة) ، وهى نظرة عابرة للطبقات، وتنظر إلى المجتمع ككل باعتباره هرم مدرج تتوالى طبقاته من أعلى إلى أسفل حسب مستوى الدخل والثروة. وهى نظرة تميز المجتمع إلى طبقة عليا فى القمة من الموسرين (المترفين) ، وطبقة متوسطة من المستورين ، وطبقة دنيا من المعوزين ، وطبقة مهمشة فى القاع من المعدمين الذين يبيتون على الطوى ويتخذون من جلود أجسادهم أكفان. . ففى كل مجتمع بلا استثناء يوجد أغنياء وفقراء ، أقوياء وضعفاء ، حكام ومحكومين ، صفوات مترفة ومعدميز.

وعليه...

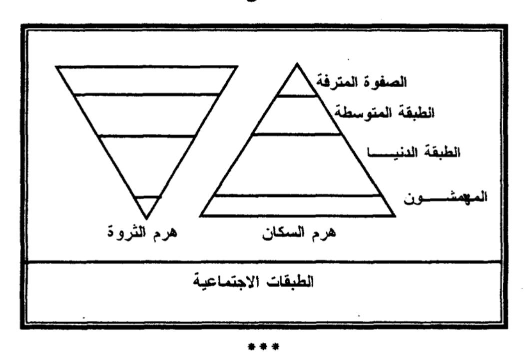
فإن الصفوة المترفة حسبما يقول باريتو: تتكون من الأفراد الناجحين الذين يرتفعون للقمة فى كل مهنة.. فهنك نخبة المحامين ونخبة الميكانيكيين.. وحتى نخبة اللصوص" فكل فئة أو طبقة اجتماعية تفرز صفوة مترفة من أبنائها الذين يحصلون على دخول قدرية ويراكمون ثروات دون أن يشاركوا مشاركة فعلية فى عملية إنتاج السلع والخدمات.

وهذا معناه ..

أننا إذا نظرنا إلى المجتمع من زاوية التوزيع النسبى للأفراد وما يقابله من توزيع نسبى للثروة ، فسوف نلاحظ أن هرم توزيع

السكان معتدل .. قاعدته أسفل وقمته أعلى ، أمـــا هـــرم توزيـــع الثروة فمقلوب .. قاعدته أعلى وقمته أسفل.

أي أن هرم توزيع الثروة يأخذ اتجاهاً معاكـــساً لهـــرم توزيـــع السكان ، حيث يضيق كلما زاد عدد الفقراء ، ويتسع كلما قل عدد الأثرياء. هرم يرتكز على رأسه لا على قاعدته، لذا فإنه هرم هش وقابل للسقوط والتفكك والكسر فى أى لحظة عند أول محنة.



الطبقات الاجتماعية

***

وتنشأ صعوبة تعريف الطبقات الاجتماعية من وجود نقاط تقـــاطع عديدة بين الخطوط الرأسية والخطوط الأفقية التـــى تحـــدد الهويـــة الاجتماعية للأفراد. ونقاط التقاطع هذه تتمحور حول موقف هـــؤلاء من ملكية وسائل الإنتاج ، أى عما إذا كانوا مـــن المـــلاك أو مـــن الأجراء:

- فالأجراء يحصلون على أجور ورواتب.
- أما الملاك فيحصلون على عوائد الملكية من ريع و أرباح وفوائد،
- وإلى جانب أولئك وهؤلاء يحصل غيرهم على دخول قدرية تهبط عليهم دون أن يبذلوا جهد أو يخلقوا منافع أو يشبعوا حاجة أو يساهموا فى الإنتاج.

والمسألة ذات الأهمية ، هى أن سلوك أفراد المجتمع من هذه الزاوية يتحدد بمتغيرين أساسيين هما:
- نوع النشاط الاقتصادى (المهنة).
- ومستوى الدخل (كيس النقود).

أى أن نقاط التقاطع الاجتماعية . بين الخطوط الرأسية والخطوط الأفقية . هى المحدد الأول لسلوك الأفراد. فكل منا له هويتان . هوية تحددها مهنته . وهوية يحددها دخله.

ولو أخذنا مهنة الصحافة . على سبيل المثال . لوجدنا هناك صحفي لا يتجاوز مجمل دخله ألف دينار . ووجدنا هناك آخر يحصد عشرات الآلاف . ومع أن كليهما يمتهن الصحافة . ويحمل كارنيه النقابة ، إلا أن الأول ينتمي إلي الطبقة الدنيا والثاني ينتمي إلي الطبقة العليا .. فالأول بائس يحسب من العامة بينما الثاني مترف ويحسب من الصفوة .

وتنشأ تعقيدات الصراع الاجتماعى والمساومة الاجتماعية بين طبقات وقوى المجتمع من التداخل بين الهوية الاجتماعية الرأسية والهوية الاجتماعية الأفقية للأفراد. فالفرد ينتمى إلى فئة اجتماعية ضيقة تحددها (مهنته) وإلى طبقة اجتماعية عريضه يحددها (دخله)

وبذلك يكتسب هوية اجتماعية ذات وجهين أحدهما (فئوى) والثـــانى (طبقى) .. وقد يحدث تعارض بين الوجهين.

وعلي سبيل المثال:

- فإن ارتفاع أسعار المحاصيل الزراعية يصب فى مـصلحة مـلاك الأراضى , وعمال الزراعـة , ولكنـه يتعـارض مـع مـصلحة الموظفين وعمال الصناعة (تناقض أفقى).
- كما أن زيادة دخول الصفوات الاجتماعية يصب فى مصلحة الاقلية ولكنه يتعارض مع مصلحة الاغلبية (تناقض رأسى).

وحينما تزداد التناقضات الاجتماعية من حيـث العمـق والحـدة والشمول، وتتحول التناقضات الثانوية إلي تناقضات عدائية، ينـشب النزاع ويتأجج الصراع بين الطبقات ويقتل الناس بعضهم بعضا بـلا رحمة.

فحينما تكون ثروة المجتمع النامى محدودة (وهى الحالة المعتادة) تتأجج الصراعات الاجتماعية بين النخبة والجمهور ، ويتحول أفراد المجتمع من حمائم إلى صقور. فمن قوانين البقاء أن يتذأب الإنسان وإلا أكلته الذئاب.

***

وعليــــه ..

فأن أى مجتمع إنسانى ، ليس نسيجا متجانساً من البشر ؛ فالناس يختلفون بعضهم عن بعض ، باختلاف النشأة ، ومستوى المعيشة ، والمستوى التعليمى . وما يزاولونه من مهن وما يمارســونه مــن أعمال وما يحصلون عليه من دخول وما يراكمونه من ثروات ، أو ما يقاسونه من فقر ويعانونه من بــؤس وحرمــان . وعلــى هــذا الأساس يتميز الناس إلى طبقات وقوى اجتماعية ويمارسون أنشطة اقتصادية مختلفة تدر علــيهم دخــول نقديــة وعينيــة متباينــة . ويتدرجون فى شكل هرمى داخل كل طبقة.

ومع ذلك ، فإن من أهم ما يميز الناس بعضهم من بعــض هــو الطريقة التى يكسبون بها عيشهم . فبعــضهم يعمــل بالزراعــة أو الصناعة أو التجارة أو الخدمات وما إلى غير ذلك من أنشطة تخلق منتجات وتولد منافع وتراكم ثروات. وآخرين غيرهم لا يجدون عمل أولا يقدرون عليه ومع ذلك يحصلون على تحويلات وهبات وخدمات وتأمينات اجتماعية واعانات ، ومنهم (المهمشون) الــذين يــأكلون فضلات الطعام ويعيشون على الصدقة والإحسان . وإلى جانب أولئك وهؤلاء يوجد أيضاً من يحصلون على أموال طائلة نتيجة ممارســة أنشطة طفيلية يحرمها القانون وتعاقب عليها الــشرائع وترفــضها الأخلاق ، وهــؤلاء هــم المــضاربون والمحتكــرون والمحاســيب

والنصابون والنهابون ومصاصوا الدماء الذين ينفقون ببزخ دون أن تختل موازينهم المالية ودون أن يعطوا أى اعتبار لمشاعر الفقراء.. وهؤلاء هم شيوخ المنسر الذين يطلق عليهم فى أيامنـــا مـــسمى.. " رجال الأعمال" .

* * *

وقد شاءت إرادة الله أن يتشابه الناس من حيث الخلقة ويختلفون من حيث الأخلاق ..

- يتشابهون فى الخلقة إلى الدرجة التى تميزهم عن سائر الحيوان.
- ويختلفون فى الأخلاق إلى الدرجة التى تجعلهم يقفون وجها لوجه ضد بعضهم البعض فى حالة صراع.

فالناس سواسية كأسنان المشط من حيث الوظائف الحيوية . مثل التغذية والنمو والتكاثر والإخراج . ولكنهم يختلفون من حيـــث مـــا تحويه أدمغتهم من معارف وقيم وأفكار.. كما يختلفون أيـــضا مـــن حيث علاقاتهم الاجتماعية .. ولأن أغلبية الناس يملكون قوة عملهم بينما الأقلية يملكون رأس المال . فمن المعتاد أن تتميز المجتمعـــات إلى طبقات وقوة إجتماعية متعارضة المصالح والأهداف.

وفى كل طبقة اجتماعية ، يتميز الناس إلى شرائح وفئات تتبـــاين من حيث مستوى الدخل ، والمسئولية ، والمكانة. والشريحة العليـــا من كل طبقة اجتماعية تمثل صفوتها المترفه ، التى يحصل أفرادهـــا

عادة على دخول تفوق مساهمتهم فى الإنتاج ، ويمارسون نفوذا يفوق عددهم النسبى، ويستهلكون سلعا تفوق حاجتهم الفعلية .

وظاهرة الأختلاف بين النخبة والجمهور يفسرها عالما الإجتماع الإيطاليان فلفريدو باريتو ، وجيتانو موسكا . باختلاف القدرات بين الأفراد . إذا أن هذا الأختلاف يفرض إنقسام أي مجتمع إلي أقلية حاكمة صغيرة تستحوذ علي السلطة والثروة ، وأغلبية محكومة كبيرة يعاني أفرادها من الفاقة وذل السؤال.

وهو ما يعنى بأن مفهوم الصفوة الاجتماعية قد نشأ عن سمة التدرج الهرمى التى تتصف بها الطبقات الاجتماعية . فالأفراد فى كل طبقة اجتماعية ليسوا متساويين فى الخصائص والإمكانيات والسمات مساواة أسنان المشط . فكما أنه يوجد تمايز طبيعى بين الطبقات ، فانه ينشأ أيضا تمايز طبيعى بين الأفراد داخل كل طبقة ، فلطبقة الاجتماعية تتميز إلى شرائح وقوى اجتماعية متفاوتة فى الصفات والسلوك والإمكانيات. والشريحة العليا فى كل طبقة اجتماعية تمثل صفوتها المترفة..

ومن كل هذه الصفوات تتكون الطبقة المترفة (باعتبارها صفوة الطبقات) من الذين يستهلكون كثيراً وينتجون قليلاً، أو لا ينتجون على الإطلاق.

***

وعليـــــــه..

فإن تعريف الطبقة المترفة يتميز عن التعريف الكلاسيكى للطبقـــة الاجتماعية:

* فالطبقة الاجتماعية .. تستمد مقوماتها وتتجلى ملامحها فى مجال النشاط الإنتاجى وتراكم الثروة.
* أما الطبقة المترفة .. فتستمد مقاوماتها وتتبدى ســـوءاتها فـــى مجال النشاط الاستهلاكى وتبديد الثروة.

وهذا المعنى ، يتفـــق مـــع مقولـــة هـــالفكس Hal Bwachs: إن "الفوارق الاجتماعية مصدرها المجتمع ، لا من حيث أنه ينتج ، بـــل من حيث أنه يستهلك".

وكما أن النشاط الانتاجى يوحد الشغيلة ويماثل بين طرق حياتهم. فإن النشاط الاستهلاكى يجذب صفوة كافـــة الطبقـــات الاجتماعيـــة ويماثل ثقافاتهم ويولف أذواقهم فى مزيج متجـــانس مـــن الأنمـــاط الاستهلاكية والرؤى الاجتماعية. وهو ما يتفق مع مقولـــة جوبلـــو Goblot: "هناك رجال ذو مهن مختلفـــة كـــل الاخـــتلاف ، ولكـــنهم متماثلون من حيث أنهم برجوازيون ، ويعاملون بعضهم علـــى قـــدم المساواة" ، إذ أنه: "من المستحيل – فى رأيه – أن تكون طبقة مـــا صفوة الطبقات ، ومن المستحيل كذلك أن تكـــون الـــصفوة نفـــسها طبقة". وهو ما يوضحه باريتو قائلاً: "أن مشكلة الصفوة عندما تثور يجب أن تدخل فى كل طبقة". فالطبقة المترفة ، من الناحية البنائية ، تمثل نمط الصفوة المتباينة Divide Elite التى يختلف أعضاؤها فى أصلهم الاجتماعى أو مصدر القوة.

***

ولأن المترفين طفيليون بالطبيعة .. يستهلكون ولا ينتجون، ويراكمون الثروات من الأموال الحرام ، فإنهم ينبتون فى الطبقات الاجتماعية كما ينبت الهالوك فى زرع أخضر فيهلكه ، ويطفون على سطح المجتمع كما يطفو ورد النيل وياسنت الماء على سطح البحيرات العذبة فيمتص منها رحيق الحياة. ولذا . فإنه يمكننا التعرف على المترفين بالنظر إلى نشاطهم الاستهلاكى لا الإنتاجى...

- نتعرف عليهم من نظره واحدة إلى هيئتهم الاجتماعية واستهلاكهم الترفى وسلوكهم الاستفزازى...
- نتعرف عليهم فى النوادى والبارات وعلى الشواطئ الخاصة والشاليهات والسوبر ماركت وداخل أسوار المنتجعات.
- نتعرف عليهم من شكل السيارة وذهب الولاعة ودخان السيجار.
- نتعرف عليهم من أنوار القصور والوصيفات الحسان والبودى جاردس وكلاب الحراسة وحمامات السباحة ويونيفورم الخادمات.
- نتعرف عليهم فى المزارات والمطارات ومن ألوان الباسبورتات فى قاعات استقبال كبار الزوار.
- نتعرف عليهم فى سرادقات العزاء وحفلات الزواج وأفراح طهور الأبناء.
- نتعرف عليهم من أريج العطور ولون المكياج وفخامة الملابس وثراء الاكسسوارات وطلاء الأظافر.

- نتعرف عليهم من صفحات الجرائد .. صفحات السياسة والجريمة والاجتماعيات وإعلانات العزاء.
- نتعرف عليهم فى المؤتمرات والندوات وشاشات الفضائيات ونخبة الأحزاب ورئاسة تحرير الصحف والمجلات وعلى كراسى البرلمان وفى قاعة مجلس الوزراء.
- نتعرف عليهم فى الحج السياحى وعلى صدر الموائد ومن كريم أحجار المسابح،
- نتعرف عليهم من طول اللحية وقصر الجلباب و دلائل النعمة وهم يطلون علينا من الشاشات الفضية كى ينشروا الفزع والخوف بين أبناء الرعية.
- نتعرف عليهم فى كل مكان يؤمه الملوك والأمراء والسلاطين والحكام.

هؤلاء هم أعداؤك يا أخى فاحذرهم لأن ثرواتهم أيا كان مصدرها مشكوك فى شرعيتها ؛ فإن حدثوك يوما عن الشرف و الفضيلة والأخلاق فكن يقظا لأنه من قوانين البقاء أن لا ضمير للأقوياء ؛ وإن حدثوك يوما عن الله أو الدين أو الوطن فكن فطنا لأن الكثيرين منهم لصوص وأفاقون مثلهم في ذلك مثل الديابة يتخذون من الدين ستارة لتضليل الغلابة. ومن قبل قال تعالى فى محكم آيات الكتاب: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]

***

والخلاصة..

هي أن أبناء الطبقة المترفة .. هم في العادة .. وجهاء كل مجتمع.. وجماعات الصفوة من كل الفئات والشرائح والطبقات ، وهم بادئ ذي بدء.. مكروهون من الملائكة مدانون من رب السماء.. فمن قبل قال تعالى فى محكم آيات الكتاب: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ. لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ. قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ. مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤-٦٧] .

الفصل الثالث

العدوان..
أساس نشوء وارتقاء الطبقة المترفة

الفصل الثالث

العدوان.. أساس نشوء وارتقاء الطبقة المترفة

من المشاهد لكل ذى بصيره وله عينان أن الطبيعة هى خير معلم للانسان ، إذ أن قسوتها عليه قد علمته أن يتذأب فى الحياة وإلا أكلته الذئاب ، وهو ما نسميه بظاهرة "تدوير العدوان بين الطبيعة والإنسان" فالإنسان بعد أن كان هو الطريدة صار الآن هو الصياد ، وبعد أن عاش ملايين السنين معتدى عليه صار الآن هو المعتدى.

وظاهرة العدوان ، اهتم بتفسيرها داروين فى نظريته "أصل الأنواع"، واهتم بتفسيرها فرويد فى نظريته "التحليل النفسى" ، واهتم بتفسيرها ماركس فى نظريته عن " الصراع الطبقى" ، واهتم بتفسيرها صمويل هنتنجتون فى نظريته عن "صدام الحضارات" .

* فالأول "داروين" : كان قد توصل إلى أن الإنسان يتطور فى سياق متصل من الصراع ضد قوى الطبيعة وضد الحيوانات فى الغابه وضد أخيه الإنسان . وهو صراع دراوينى عنيف دامى يبقى الأقوياء .. ويفنى الضعفاء . فالبقاء للأقوى هو قانون الحياة .

* والثانى "فرويد": كان قد توصل إلى أن العدوان غريزة أصيلة فى طبع الإنسان ، تتوارى عندما تكبت ، وتتوحش عندما يكشف عنها الغطاء . فلا ضمير للأقوياء . فموت الضمير هو أساس الفوز فى حلبة الصراع من أجل البقاء.

* والثالث "ماركس" : كان قد توصل إلى أن التاريخ البشرى فى مجمله هو تاريخ صراع الطبقات. ففى مجرى التطور تولد الطبقات الجديدة فى رحم الطبقات القديمة ، ثم تنمو وتتطور وتعلو عليها وتنفيها فى إطار صراع لا يهدأ وسلام لا يدوم.على مر السنيين فالصراع الطبقى هو محرك التاريخ.

* أما الرابع "هنتنجتون" : فقد توصل الى أن العالم فى أيامنا دخل عصراً جديداً ينقسم فيه الناس تبعا لانتماءاتهم الحضارية و الثقافية أو الدينية ، وأن هذا الانقسام سيزداد عمقا وحدة وسيكون هو المؤثر الرئيسى على العلاقات الدولية. فالصدام بين الحضارات على وجه العموم هو قدر البشرية فى المدى المنظور.

والمحصلة..

هى أن الصراع هو القانون الأزلى للحياة ، سواء مع قوى الطبيعة المادية أو بين المخلوقات العضوية ، وأن العدوان هو أحد تجليات قانون الصراع ، ويظهر فى عدوان الطبيعة على الانسان ، كما يظهر فى عدوان الإنسان على أخيه الإنسان. ومن صور عدوان الإنسان على أخيه الإنسان تتجلى صورة عدوان المترفين على المحرومين ، والحكام على المحكومين ، ومن يملكون الثروة على المعدمين. وهذا العدوان يبدأ بالحاق أذى بسيط بالآخرين ويتصاعد إلى درجة قبرهم فى السجون سنين وراء سنين أو حرقهم فى النار أو دفنهم فى

التراب أحياء.. فلا ضمير لقوي ولا حصانة لضعيف وإن كرت الأيام ومرت السنين. ومن قبل هؤلاء جميعاً قال تعالي في محكم التنزيل ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٦]

* * *

ولأن البحث العلمى يعتمد على كل من منهج الاستقراء induction الذى يستخلص القواعد العامه من حالات خاصه، ومنهج الاستنباط deduction الذى يطبق القواعد العامة على حالات خاصة، ولأن المنهجين يكمل كل منهما الاخر فى تفسير الحوادث والظواهر، فانه يمكن القول بمستوى عال من الثقة ان السلوك العدوانى للطبقة المترفة ماهو إلا حالة خاصة من حالات عدوان الانسان على أخيه الانسان ، فى مجالات الاجتماع والسياسه والاقتصاد. فالسلوك العدوانى يتجلى فى صور تختلف عن بعضها البعض تبعا لاختلاف النشاط الانسانى باختلاف الزمان والمكان.

* * *

وقد احتلت قضيه نشوء وارتقاء الطبقة المترفة وعدوانها على الأفراد والمجتمع إهتمام عالم الإقتصاد الفيلسوف الأمريكى ، ثورشتاين فبلن (١٨٥٧-١٩٢٩) Thorstein venblen ، ونشر عنها مؤلفا عبقريا بعنوان The Theory of the Leisure class علم ١٨٩٨ . وهذا الكتاب ترجمه للعربية محمود محمد موسى ، ونشرته

الدار المصرية للتأليف والترجمة فى الستينات بعنوان " نظرية الطبقة المترفة " ضمن سلسلة " من الفكر السياسى والاشتراكى " .

ولأهمية الأفكار والمفاهيم التى دونها فبلن فى هذا الكتاب ، فـإن الاقتصادى الأمريكى المعروف جون كينيث جالبريث قد ثمنها فـى كتابه "النظرية الاقتصادية" قائلا :" أن صوت هذا العبقرى ما زال له رنين فريد فى موضوع بالغ الأهمية ، وهو فحصه الممتاز لأحـوال الأغنياء ودوافعهم" . فكتابه ما زال يقرأ حتى الآن ، فـى متعـة ، وبعائد فكرى كبير ، بل فى سرور شديد . وليس هناك قارئ مجتهد يمكن ، بعد أن يقرأه ، أن تظل نظرته إلى العالم الاقتـصادى علـى حالها كما كانت قبل قراءته . فقد سخر -فـبلن- فـى كتابـه مـن الأغنياء ووصفهم بأنهم طبقة عاطلة بالوراثة . كانـت قـد نـشأت مؤسستها وبدت فى أكمل صورها فى المراحـل العليـا للحـضارة البربرية . وما زالت تلك المؤسسة قائمة حتى الآن.

غير أن ممارسات الطبقة المترفة المعاصرة تختلف بعض الـشئ عن تلك الممارسات البدائية الخالصة.-

فالصورة الحديثة لتطور تلك المؤسسة المهجورة ، جعلـت مـن الزوجة التى كانت فى البداية خادمة الرجل ومتاعه – سـواء فـى الواقع العملى أو من الناحية النظرية – والتى كانت تنتج له البضائع

كى يستهلكها ، أصبحت هى الآن المستهلك الشعائرى للبضائع التى ينتجها.

كما أن حفلات التسلية الباهظة التكلفة التى يقيمها الأثرياء – فى عصرنا – وحفلات الرقص والمهرجانات ومناسبات عقد القران وأفراح طهور الأطفال التى توزع فيها الهدايا بلا حساب ، وتكتظ فيها الموائد بألذ أنواع الطعام والشراب ، يجرى إعدادها على نحو يخدم غرض التباهى وإظهار الوجاهة الاجتماعية والمقدرة المالية وإثارة حسد المدعوين ، وهو ما يصفه جالبريث بالمتع المنافية للذوق السليم".

فسلوك الأثرياء – الآن – ليس إلا صدى لما كان عليه الحال قديما فى الحفلات التى كان رؤساء العشائر الهمجية يقيمونها فى العصور البدائية.

أى أن المبدأ العام فى الحياه –حسبما يقول ثورشتاين فبلن– هو تميز الطبقة المترفة على غيرها ، فطبيعة الحياة ، كما آلت إلينا من عصر الرق ، تقضى بأن يكون نعيم الحياة ورخاؤها حقا للطبقة العليا المترفة وحدها ، أما الطبقة الدنيا الوضيعة المنتجة لا يجب أن تستهلك إلا ما كان ضروريا لبقائها. وفى عصرنا ، لا يختلف الوضع كثيرا عن عصر الرق ، فالتمايز الطبقى والتفاوت الاجتماعى والسلوك العدوانى البغيض هو الحاضر الموروث عن أسلافنا البغاة .

وعلى الرغم من توالى الأيام ومرور السنين وتغير الأحوال طوال ما يزيد على قرن من الزمان - منذ عهد فبلن حتى الآن- فلا شك لدى جالبريث فى أهمية التركة التى خلفها لنا فبلن ، وابتسامته الساخرة من مظاهر الحضارة البدائية والاستهلاك التبديدى والفراغ المظهرى الذى تتحلى به الطبقة المترفة ، والتى حفل بها كتابه " نظرية الطبقة المترفة " الذى ما زال من أكثر الكتب الاقتصادية والاجتماعية التى يقبل عليها القراء الأمريكيون حتى اليوم .

***

وفى هذا الجزء من الدراسة ، سوف نقوم بجولة حرة على صفحات كتاب فبلن العبقرى ، نشاهد فيها صورا كان قد رصدها لتشخيص معالم السلوك العدوانى البدائى الذى توصم به الطبقة المترفة فى بلاده وتحليل دوافعه ، والاثار المترتبة عليه. والباحث هنا يتحمل مسئولية تفكيك وإعادة تركيب فقرات من كتاب فبلن "The Theory of the leasure class" يحذف منها ويضيف إليها ويعرضها بصورة تخدم الهدف العام لبحثه ، وهو فضح سلوك الطبقة المترفة المعاصرة خاصة فى الدول الشمولية والبلدان المتخلفة والتنديد بأساليبها العدوانية وكشف دأبها المستميت للاستيلاء على الثروة والاستحواذ على السلطة والعيش فى بذخ وإسراف دون أن يراعى أفرادها حرمة أو يأبهوا لدين أو يلتزموا بمبادئ الاخلاق .. فلا ضمير للأقوياء.

***

(١) البدايـــات

لم تكن الحياة – فى فجر التاريخ – راقية ومتطورة كما هى عليه الآن فى عصرنا . فالإنسان الذى نراه الآن ، والمجتمع الذى نعيش فى جنباته ، والحضارة التى ننعم بخيراتها لم تكن هى نفسها عند نشأة الإنسان الاول على الأرض .

ففى البداية ، تكونت الأرض من مادة الكون منذ نحو خمسة مليار عام، وأصل مادة الكون هو غاز الهيدروجين الذى هو أبسط العناصر المعروفة حتى الآن حسبما يقول علماء الفيزياء ، ثم ظهرت بدايات الحياة على الأرض على شكل خلية أولية منذ نحو ثلاثة مليار عام حسبما يقول علماء الأحياء . ثم تطورت تلك الحياة إلى أشكال وانواع متباينة من البشر والنباتات والحيوانات وغير ذلك من ملايين الملخوقات ، غير أن المخلوق الآدمى كان وحده هو الذى تطور الى ما هو عليه الآن من بهاء وجمال واعتدال القوام عبر مراحل متوالية من النشوء والارتقاء ، بدأت بالإنسان شبيه الحيوان ، ثم تطورت إلى الإنسان الأول ، ثم الى الإنسان البدائى ، حتى وصلت الآن إلى الإنسان المعاصر الذى يمكنه التفكير والكلام وصياغة أفكاره فى كلمات ونشرها فى كتاب مثلما نفعل نحن الان.

– والإنسان شبيه الحيوان: تميزت جيناته الوراثية بفارق بسيط لا يزيد عن ٢% فقط عن جينات الشامبنزى والأورانج أوتان منذ

خمسة وعشرون مليون عام كان وقتها يعيش عيشة القرود ويسكن فى أوكار وأعشاش أعلى الأشجار فى الغابات وفى أعالى الجبال.

- والإنسان الأول: كان قد تطور عن سلفه شبيه الحيوان ، وتميز عنه بنمو مخه واستواء عوده وهبوطه من أعلى الأشجار ليعيش فى الكهوف لحماية نفسه من مطاردة الوحوش. وهذا المخلوق كان قد ظهر أولاً فى أفريقيا جنوب الصحراء منذ نحو مائة ألف عام ثم انتشر منها إلى كل أرجاء المعمورة وقت أن كانت القارات متجاورة ولم تنفصل بعد بعضها عن بعض.
- والإنسان البدائى: كان قد تطور عن سلفه ، الإنسان الأول، وتميز عنه بمعرفته للحروف والأرقام ومبادئ الكلام وبما تركه من آثار تدل على وجوده بعد ما انتقل من الكهوف ليعيش فى أكواخ مبنية من الأحجار والقش وفروع الأشجار.
- أما الإنسان المعاصر: الذى هو سليل الإنسان البدائى فقد تمكن - خلال زمن لا يقاس بالنسبة لعمر الكون والذى يقدر بنحو أربعة عشر مليار عام- من السيطرة على الطبيعة وارتياد الفضاء وتحقيق إنجازات أخرى كثيرة فى تلك الفترة القصيرة ، فهو الذى خط بيمينه أول سطر فى كتاب الحضارة مع أنه لم يكن قد مضى غير عشرة آلاف عام فقط على ظهوره.

ومن ثم ، فإنه يمكن القول بمستوى عال من الثقة أن الطبيعة خلقت من العدم ، ومن مواد الطبيعة خلق الله الإنسان ، فخلق الطبيعة سابق على خلق البشر. ومن قبل قال تعالى فى محكم التنزيل: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ [المؤمنون: ١٢]. غير أن الإنسان يتميز عن الطبيعة بالوعى والإدراك ، أما الطبيعة فصماء لا تعى ما تفعل ، ولا تدرك ذاتها ، ولا تأسى على حالها. فالطبيعة عقلها من حجر وقلبها من نار ولا تلقى لآلام البشر أى اعتبار.

والفارق بين الإنسان والطبيعة هو فارق نوعى ، فالروح هى ما يتميز به البشر عن سائر قوى الطبيعة ، غير أن الروح سر من أسرار السماء لم يكشف لإنسى قط ولا جان. ومن قبل قال تعالى فى محكم آيات الكتاب: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ [الإسراء: ٨٥]

***

وبعد..

فإن هذا العرض الموجز ، للتطور المتوالى لأشكال الحياة على سطح الأرض وإرتقائها من مجرد خلايا حيه إلى بشر أسوياء، أى إلى ما نحن عليه الآن من بهاء وجمال، يحفزنا على التساؤل عما يمكن أن يحققه البشر، لو امتد بهم الأجل مائة الف عام أخرى ، أو ربما عشرة آلاف عام فقط، من إنجازات لا يمكن تصورها حتى لو أطلقنا لخيالنا العنان ، أما لو كتب لهم البقاء ملايين أخرى من السنين فى مسار الزمن ، فربما حققوا من الإنجازات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فبعد ملايين ، وربما فقط بضع آلاف من السنين ، من المأمول أن يتطور البشر إلى عقول بلا

جسد ، فالأجساد تتحور وتتطور وتبلى بمرور الزمن.. أمـــا الأرواح والعقول فتظل خالدة إلى الأبد.

فإذا أعدنا قراءة ما سبق ، فسوف ندرك عن كثـب أن الإنـسان السوى معتدل القوام قد أمضى منذ نشأته علـى الأرض حتـى الآن أكثر من ٩٠% من تاريخه المتواصل (والمقدر بنحو مائة ألف عام) فى حياة بدائية تختلف تماماً عن الحياة المعاصرة. فهى حياة طبيعية أطلق عليها هوبز "حياة الوحشية" . ففى ذلك الزمان عاش البشر فى مجموعات صغيرة يقتات فيها الفرد بما تفئ به عليه االطبيعة، فهـو يعيش حياة اللقط والقنص (الرجال عادة للقنص والصيد ، والنـساء عادة للقط الحبوب والجذور وطهى الطعام) . وربما لم يتجاوز عـدد سكان العالم آنذاك عشرات الآلاف أو ربما فقط بضعة آلاف. فالبداوة فى ذلك الزمن البعيد كانت هى حياة البشرالمعتادة لآلاف السنين.

وفقط...ومنذ حوالي عشرة آلاف عام مضت.. عرفـت البـشرية أخطر نقلة حضارية عندما اكتشف الانسان الزراعة ودجن الحيوانات وأنتج العجلة واشعل النيران، وبدأ فى تطـوير أدوات مـن البيئـة تساعده على قهر قوي الطبيعه , وانتاج اسلحة تساعده على قهـر الضوارى والأغيار , وسجل تجاربه ومعارفه بصور ورموز وحروف على الأحجار.

ففى بداية التاريخ ، كان الإنسان بربريا ومتوحشا وهمجيا ، ولـم ينفصل عن عالم الحيوان – الذى عايشه طويلا – إلا بعد أن اعتـدل قوامه واستوى عوده ونمت خلايا المخ المتطورة فى جمجمته . تلك الخلايا العصبية التى ظلت تنمو وتتطور خلال التفاعل التلقائى بينـه

وبين البيئة المحيطة عبر ملايين السنين ، إلى أن انفصل الإنسان العاقل Homo Sapinas فى النهاية عن أسلافه من القردة العليا Grate Apes ، وظل يتطور بساعديه وعقله ، بعمله وفكره .. إلى أن غدا – فى عصرنا – سيد المخلوقات وقاهر الطبيعة وكاشف أسرار الكون . فمن سنن الله في خلقه أن تتغير الحياة من حال إلى حال.. وسبحان ربك ذى الجلال والإكرام .

ففى الحياة البدائية ، كان البشر يعيشون فى جماعات بسيطة قليلة العدد تربطهم صلات الدم وعلاقات القربى ، وكانت الطبيعة بنباتاتها البرية وحيواناتها الوحشية مباحة لهم على المشاع . يصارعونها وتصارعهم . فهى بقواها الجبارة وأرواحها الخفية، مثلت تحديا لهم منذ البداية . فصارعوها ليستخلصوا منها المواد التى تستر عورتهم وتقيم أودهم . وكان تعاونهم ضروريا لمواجهتها وتسخير قواها بما يحفظ عليهم حياتهم ويكاثر نسلهم .

وفى هذه المرحلة البربرية . كانت الجماعات البدائية فى سعيها على الرزق تكد بلا كلل وتعمل بلا هوادة لاستئناس الحيوانات وصيد الأسماك وتدجين الطيور وجمع الجذور. فالصيد والرعى والقنص مثلت أنشطة إنتاجية رئيسية وأحدثت تحولا جوهريا فى حياة الجماعات والأفراد والشعوب . فالصراع على المياه والمراعى تجلى فى غارات وحشية لا تهدأ ولا يخمد لها أوار بين القبائل والأفخاذ والعشائر والبطون.

وفى تلك الجماعات القديمة ، كان الرجال يقومون بأعمال القنص والاغارة ، بينما تقوم النساء بأعمال قطف الثمار وصيد الأسماك

وطهي الطعام وجمع الجذور وممارسة الأنشطة المعيشية المعتادة والتسرية عن الرجال إثر عودتهم من الغارات محملين بالغنائم والخيرات.

وهذه الحالة..

يصفها " ريتشارد رانجهام" ، أستاذ الأنثروبولوجيا البيولوجية في جامعة هارفورد قائلاً: " منذ أن اكتشف الانسان النار وتعلم طهى الطعام كان عليه للمرة الأولى أن يكدس الطعام، ويضعه في مكان ما، وأن ينتظر إلى جواره حتى يطهي وقد يستغرق ذلك دقائق أو ساعات، ونتيجة لذلك أنه قد أوجد طعام قابل للسرقة. ولأن الحياة في العادة تسير حسب ماهى عليه، فسوف يحدث أن يأتى أحدهم يحاول سرقته. وهذا يعنى أنه ستصبح لدينا علاقة ديناميه بين ثنائي (منتج / سارق) . نجد فيها أفرادا ينتجون وأفرادا يسرقون، ومن المرعب أن الإناث كن هن المنتجات بينما الرجال كانوا هم السارقين .وحيث أن الذكور كانوا أكبر حجما من الاناث بنسبة ٥٠% في ذلك الزمان، فقد كان لذلك تأثيرا كبيرا على النظام الاجتماعى الذى ساد فيه الذكور على الإناث. فيما تلى ذلك من أجيال .

ثم يضيف قائلا: " وما علينا أن نتدبر فيه هو الفكرة بأنه عندما يكون لدينا إناث مستعدات لصنع وجبة طعام، بأن يجمعن الغذاء ويطهينه. فإن هن هكذا يصبحن عرضة لأن يسلب طعامهن بواسطة السارقين – أولئك الذكور كبار الحجم – الذين يجدون أنه من الأسهل عليهم ألا يخرجوا بأنفسهم لجمع الغذاء أو لطهيه إنما هم فحسب يسلبونه بعدما يصبح جاهزاً . وبالتالى كان على الإناث أن يقمن تحالفات قوية ليحمينا أنفسهن

من الذكور اللصوص، وهذا هو الأصل في العلاقات بين الذكور / الإنـــاث، التى ظلت سارية على مر الزمان" .

وفي ذاك المجتمع البدائى المشاعي البربري كان سائر أفراد الجماعــة الذين لا يصلحون لأعمال الرجال يوضعون فى طبقة واحدة مع النـــساء . إذ أن الجماعة البدائية كانت تنظر إلى كل عمل لا يحتاج إلى العدوان على أنه عمل لا يليق بالرجال. وكان ذلك هو القانون العام للسلوك.

***

(٢) القانون العام للسلوك

بموجب القانون العام للسلوك يرى ثورشتاين فبلن أن الجماعة البدائية كانت تميز أنواع الأعمال إلى الأعمال العادية وأعمال البطولة:

* فبموجب هذا القانون ، أصبح من الحقوق المسلم بها للرجل القوى البنية ، أن يقتل وأن يدمر أى منافس له أو متمرد عليه ، وأن يحارب ويخضع ويسترق أى جماعة خارجية تحاول التمرد على طاعته. فالقوة ، كانت الوسيلة التى تستحق التقدير ويستطيع بها الرجل الشريف أن يوطد مركزه فى عشيرته ، ولذلك فإن الأدوات النافعة والخدمات الخاصة التى يحصل عليها الرجل إغتصابا أو إكراها كانت – فى نظرهم – شاهدا على نجاحه فى المنافسة وانتصاره على غرمائه ومنافسيه فى المعارك .
* وبموجب هذا القانون أيضا، كانت الجماعات البدائية تنظر إلى الأشياء التى يحصل عليها المرء بغير طرق العنف ، على أنها لا تليق بالرجل ذى المكانة عالى المقام . ولهذا السبب نفسه ، كان تأدية العمل المنتج أى العمل فى خدمة الأفراد يقابل بنفس هذا الاحتقار . ولذا، فإن العمل المنتج كان يوصم بالمهانة لما يلصق به من أوجه التحقيرفى ذلك الزمن البعيد .

وفى هذا السياق ، نشأ التميز القائم على التحاسد بين أعمال البطولة وحيازة المقتنيات عن طريق الاغتصاب من جهة ، وبين الأعمال الإنتاجية من جهة أخرى .

- فالأولى: هى الأعمال الشريفة أعمال الأقوياء.
- أما الثانية: فهى من الأعمال الحقيرة أعمال الضعفاء.

لكن الأعمال الشريفة ، أى الأعمال القائمة على القوة و البغى والعدوان ، ليست على مستوى واحد من الشرف . حيث يتدرج الشرف تبعا لدرجة الشراسة فى الصراع والتغلب على المنافسين والانتصار على الأغيار فى ميادين القتال. فالعمل الذى يتسم بالشرف هو أولا – وعلى وجه الخصوص – الذى ينطوى على قوة عدوانية أكبر ، وهو فى آخر الأمر ليس له أية نتيجة سوى أنه عمل ناجح من أعمال الاغتصاب .. وهو ما يعنى ، أن تقدير المتبربرين لقيم الشرف والجاه ، يتجلى فى إعلائهم من شأن إزهاق الأرواح ، واعتبارهم أن القضاء على المنافس القوى – سواء كان حيوانا أو إنسانا – عمل شريف غاية الشرف ويستحق الاحترام.

لذلك كانت قوة الفرد الذاتية ذات أثر مباشر وواضح فى تشكيل مجرى الحوادث . فعندما اكتشف الإنسان النار ، واستخدم الأدوات الخشبية والأسلحة الحجرية فى الصيد والقنص والرعى وإلتقاط الثمار، وأمكنه أن ينتج من الغذاء ما يفيض عن حاجاته اليومية

المباشرة ، فكر فى أن يدخر الفائض لإستهلاكه فى الاحتفالات والأعياد وفى أيام الراحة والفراغ.

آنئذ ...

قام من بين الناس من هو قوى البنية ضخم الجسم وافر الفكر عظيم الدهاء بإخضاع الآخرين لإرادته كى ينتجوا أكثر مما يفيض عن حاجاتهم للبقاء ويأخذ هو لنفسه هذا الفائض نظير حمايته لهم من أى اعتداء . وحينما يتوفر من الفائض الكثير تحترف الجماعات القوية شن الحروب على الجماعات الضعيفة ، وتسلب منها المتاع والنساء والأولاد وتحولهم الى إماء ، وتستعبد الرجال وتتخذهم قوة للعمل مسلوبة الحق حتى من حق الحياة. وهنا تتميز الجماعة البشريه إلى إماء، ورقيق ، ومحاربين ، وقادة ، وضعفاء أحرار. فالإماء والرقيق والضعفاء يقومون بالأعمال الدنيا . أما أعمال الحرب والقنص والفروسية والقيادة فكانت من اختصاص الرجال الأقوياء الأذكياء الشرفاء لذلك كان الناس ومازالوا يقرنون الانتصار بالشرف والهزيمة بالعار .

***

الأعمال الوضيعة والأعمال الشريفة (العدوانية)

ولأن قوى الطبيعة العاتية ، من الصواعق والرياح والعواصف والأعاصير المدمرة والأمطار الغزيرة والحشرات القاتلة والوحوش الضارية، كانت آنئذ تهدد حياة الإنسان فى كل وقت ، فقد سعى إلى

اتقاء مخاطرها والتكيف معها والتودد إليها ونيل رضاها وعبادتها .. ومن أجل ذلك تفرغ بعض أفراد الجماعة لشئون الكهانة ورعاية المرضى ونشر الحكمة والقيام بأعمال السحر والخفية ، وتخصصوا فى الوساطة بين الإنسان العادى وقوى الطبيعة العاتية ، بأرواحها الشريرة ، وآلهتها الخفية ، وهى جميعا قوى غيبية تتجول - ذهابا وإيابا - بين الأرض والسماء ، ومن هنا نشأت وظيفة رجل الدين المختص بقراءة الطالع ، وكشف حجب الغيب ، وفك ألغاز الطبيعة، والتحدث مع الآلهة بلغتها وتلقى آيات الحكمة منها ونشر تعاليمها بين الناس . ومن هؤلاء كان الساحر والكاهن والشامان ومن يضربون الودع ويوشوشون الأحجار ويسألون النجوم ويقرأون الفنجان .

ولذا، فإن الكهان كانوا أول المترفين فى سالف الزمان.

ولأن الأفراد الأقوياء أخضعوا غيرهم للعمل لحسابهم ، ولأن الجماعات القوية أخضعت خصومها واسترقت أعداءها . مما أتاح لها من الفراغ والوقت الكافى لتنظيم الأعياد وإقامة الاحتفالات والمباريات الرياضية السلمية أو الوحشية ، التى يتصارع فيها الرجال مع الرجال، ومع الوحوش الضوارى حتى الموت الزؤام ، وسط صياح الغوغاء ودقات الطبول ورقص العبيد ولهو العامة وعبث الشباب . ولذا فقد تخصص بعض أفراد الجماعة فى إبداع الفنون ، والآداب وتخصص آخرون فى إتقان النشاط الرياضي

والألعاب ، وتفرغ غيرهم للتفلسف حول نشأة الكون والنظـــر فيمـــا وراء الطبيعة من أسرار .

وهؤلاء أيضاً كانوا من المترفين الذين يستهلكون كثيراً وينتجون قليلاً أو لا ينتجون على الإطلاق .

وفى هذا السياق ..

ظهر فى تلك الجماعات البدائية تقسيم اجتماعى للعمل بين أعمال عادية (وضيعة) يقوم بها العامة ، وأعمال راقية (شريفة) يقوم بها الخاصة .

* والأعمال العادية: هى الأعمال التى تمارس فى الأنشطة الانتاجية والخدمية التى تلبى الحاجات اليومية الحياتية للجماعـــة. وتلـــك الأعمال هى التى أسماها فبلن بالأعمال الصناعية. ويعرفها بأنها عبارة عن كل جهد يوجه لرفع مستوى الحياة البشرية من المواد التى تتوفر فى البيئة ، بما فى ذلك سيطرة الإنسان علـــى حيـــاة الحيوانات وعلى سائر قوى الطبيعة ، أى كل ما يندرج فى إطـــار غلبة الإنسان على الطبيعة وتحويل موادها الخام إلـــى منتجـــات نافعة تشبع حاجة الإنسان.

* أما الأعمال الراقية: وهى الأعمال التى تعلى مـــن شـــأن الثقافـــة الروحية للجماعة مثل السفارة والكهانة والفن والرياضة ، وتلـــك التى تنظم حياة الجماعة وتحافظ على وحـــدتها مثـــل الـــسياسة

والحكم والفلسفة والرياسة ، وأيضا ، مثل تلك الأعمال التى تحمى استقلال الجماعة فى مواجهة الجماعات الأخرى المنافسة لهـا كأعمال الفروسية وشن الحروب والإغارة.

وتقسيم العمل على هذه الصورة – يتفق والتمييز بين الطبقة الكادحة والطبقة المترفة – كما يظهر فى الثقافة الهمجية العليا . وكلما زاد تنوع الأعمال وزاد التخصص فيها زادت حدة الخط الفاصل بين الأعمال الصناعية (الانتاجية) وغيرها من الأعمال غير الصناعية (الترفية).

ويرى فبلن أنه فى مثل هذا المجتمع . توجد حدود صارمة بين الطبقات ، وبين المهن الخاصة بكل طبقة .

- فأعمال الطبقة الدنيا ، هي الأعمال الصناعية (الإنتاجية) وكل ما له صلة بالأعمال اليدوية التى يمارسها الناس للحصول على القوت. وهذه الطبقة الدنيا تشمل الرقيق ومن مثلهم من الاتباع ، كما تشمل فى العادة جميع النساء .
- أما رجال الطبقة العليا ، فلا يعفون من الأعمال اليدوية فحسب ، بل هى محرمة عليهم بمقتضى التقاليد الموروثة . فأنواع العمل ، التى يجوز لهم ممارستها ، محددة تحديدا دقيقا. وهى ، كما سبق أن ذكرنا ، أعمال الحكم والحرب والفن والكهانة والرياضة ، وهى

الأنشطة التى تتحكم فى نظام حياة الطبقة العليا ، أى حياة الطبقة المترفة.

- فإذا كان هناك عدة درجات للأرستقراطية ، فإن نساء الطبقة العليا يعفين عادة من الأعمال اليدوية .
- أما الذين ينتمون إلى أدنى درجات الطبقة المترفة ، فيمكنهم إمتهان مهن أخرى معينة تعتبر مهنا ثانوية أو إحتياطية ، لمهنة أو أخرى من المهن التى تمتاز بها الطبقة المترفة.

أما الأغلبية من العبيد والضعفاء ، وأسرى الغارات ، فهم ليسوا إلا أجساما ناطقة بلا أرواح ، يباعون ويشترون فى الأسواق مثلهم فى ذلك مثل الحيوانات.

* * *

ويرى فبلن ، أن نظام الطبقة المترفة قد ظهر بالتدريج أثناء تحول المجتمعات البدائية من الحياة السلمية إلى الحياة الحربية . ويفيد بأن الظروف التى أوجبت هذا التحول الشامل هى:

* تفرغ الرجال الأقوياء الذين تتكون منهم نواة الطبقة المترفة فى تلك الأيام لأعمال القنص والقيادة والإغارة على غيرهم والدفاع عن الجماعة ضد أعدائها وإخضاعهم لإرادتهم ، سواء بالقوة أو بالخديعة أو بالغدر والحيلة.

* ظهور تغير فى حقائق الحياة المادية لدى الجماعة البشرية، تتمثل فى تقدم أدوات العمل إلى درجة تتيح للقائمين به أن ينتجوا من المنافع ما يزيد على ما يقيم أودهم ويحفظ حياتهم ويكاثر نسلهم ويعينهم على البقاء. وبالتالي يمكن تسخيرهم للعمل بعض الوقت لأنفسهم . والعمل باقى الوقت للأسياد.
* ظهور تقدم فى أدوات القتال ، يتيح للجماعات الأقوى هزيمة الجماعات الأضعف وسبى نسائها واسترقاق رجالها وتسخيرهم للقيام بالأعمال الدنيا وخلق المنافع وإنتاج السلع والخدمات التي تلبي حاجة الأسياد.

* * *

أطوار الثقافة العدوانية

يعتبر الحد الأدنى . لاعتناق اى ثقافة عدوانية . هو حد صناعى، اى ان تكون وسائل الصناعة قد تقدمت إلى درجة تسمح بتطوير أدوات العمل بما يساعد على إنتاج فائض عن الحاجات الضرورية لقوة العمل ، كما تسمح أيضاً بتطوير أسلحة القتال إلى الدرجة التى تجعل من الإنسان المقاتل حيوانا شرساً شديد المراس يمكنه استرقاق غيره من الناس أو سحقه دون إكتراث .

ويستخلص من ذلك أن وجود طبقة مترفة داخل الجماعة يشترط أن تكون موارد العيش لديها ميسورة بدرجة تسمح لها بإعفاء نسبة كبيرة من أفرادها من القيام بالإنتاج . فولادة الطبقة المترفة ، هو من نواتج ثقافة التمييز التى تفرق بين أنواع المهن . فتنظر إلى بعض المهن على أنها محترمة ، بينما تنظر إلى البعض الآخر على أنه وضيع و لا يستحق الاحترام.

* والجماعة التى لم تكن تستحق الاحترام ، فى إطار هذا التمييز ، هى التى تمتهن الأعمال اليومية الضرورية العادية التى لم تكن تنطوى على أى عنصر من عناصر البطولة والإقدام.
* أما الجماعة التى تستحق الاحترام . فهى الجماعة التى بلغت مرحلة الثقافة العدوانية . أى ثقافة قبول المعيشة المترفة لبعض أفرادها على حساب شقاء الآخرين . وبلوغ هذه المرحلة يتطلب توفر ظروف معينة ، يحددها فبلن في الآتى :

- أن يصبح العدوان هو الاتجاه التقليدى الذى ينظر إليه كل أفراد الجماعة بالتقدير والاحترام .
- وأن يصبح الصراع هو النغمة السائدة فى النظرة العامة إلى الحياة.
- وأن يصبح تقدير الرجال والأشياء مؤسَّسا على أساس ضراوتهم فى الصراع ، أى على أساس معايير السلوك التى تساعد البشر على خلق حياة عدوانية بدلا من حياة مسالمة .

فمرحلة الثقافة العدوانية ، تنمو تدريجيا بزيادة الميول والعادات والتقاليد العدوانية لدى أفراد الجماعة البشرية.

وفى عصرنا الحاضر ..

لازالت رواسب الملامح البربرية العدوانية للطبيعة البشرية باقية فى ثقافتنا الحديثة . فالناس لا يزالون فى عصرنا – كما كان أسلافهم البرابرة – يميزون بين الأعمال التى لها طابع الفروسية والبطولة . وبين الأعمال العادية الروتينية المنتجه . فهم لا يزالون ، كما كانوا فى العصور البدائية، يشعرون أن أعمالا مثل الكهانة والحرب والسياسة والوظائف الدبلوماسية والأنشطة الترفيهية ، والأعمال التشريعية والرياضية والخدمات الدينية ، كلها أعمال أرقى درجة وأعلى مقاما من الأعمال اليدوية وتختلف من أساسها عن الأعمال التى تتعلق بإنتاج ضروريات الحياة المادية . وهنا ينبه ثورشتاين فبلن ، إلى أن الخط الفاصل بين هذين النوعين من المهن ليس كما كان تماما فى الحياة الهمجية الأولى . ولكن التمييز الإجمالى بينهما لا يزال عالقا بالأذهان ولم يتخلوا عنه أبدا رغم مرور العصور وتوالى السنين والشهور والأيام. وليس أدل على ذلك ، من أن أى راقصة أو لاعب كرة أو داعية أو فنان أو حتى مقدم برامج متخصص في إشعال الحرائق علي شاشات الفضائيات، عادة ما يفوق دخل أى منهم دخل كوكبة من العلماء مئات المرات.

***

نشــأة العبوديــة..

وعلى أساس ماتقدم يمكن استخلاص أن ظاهرة العبودية قد نشأت تاريخياً فى العصور الأولى للحياة البربرية :

* فعندما استخدم الإنسان الأدوات التى مكنته من إنتاج يفيض عن حاجته الآنية من الطعام ووسائل المعيشة ، صار نافعا لغيـره . آنئذ سعى الإنسان القوى واسع الحيلة عظيم الـدهاء لإخضـاع الإنسان الضعيف لإرادته واستغلاله لإنتاج ما يعوزه من وسائل الحياة.
* وكذلك صار الحال عندما استخدم الإنسان أسـلحة مكنتـه مـن هزيمة خصمه وقتله . ولأنه ليس – من سبيل – أمام المهزوم إلا أن يقتل أو يسترق ، ولأن غالبية الناس يفضلون العيش فى رق عن الموت بشرف ، فمن هنا نشأت ظاهرة العبودية . ولأن المرأة ، بحكم تكوينها الجسمانى ، أضعف من الرجـل ، فـإن النساء كن أول العبيد .

وبطبيعه الحال ، فان الإنسان يصبح أقوى عنـدما يمتلـك رقبـة إنسان آخر، إذ يتحول هذا المملوك إلى شىء له منفعـة اسـتعمالية وله قيمة عند المالك. فالعبد يخدم سيده ويرفه عنه وينتج له السلع والخدمات ، ويدافع عنه ضد أعدائه ، بل ويضحى بحياته فداءا لـه، بل وإذا كان السيد مثلياً إيجابياً أو سلبياً فله الحق فى أن يتخذ مـن العبد خليلاً ورفيقاً. ولأن العبد له منافع ولأنه مملوك ملكية مطلقـة

لسيده ، فإنه يباع ويشترى ويتحدد سعره تبعا لحالة العرض والطلب في سوق العبيد.

وفى سوق العبيد ، يمتد مفهوم الملكية ليشمل أيضاً مـــا ينتجـــه العبيد من السلع والخدمات . أى أن ملكية الأشياء توحدت فى هـــذه السوق مع ملكية الأشخاص. ومن هنا نشأت ظاهرة الملكية ، فالعبد وما ينتج ملكا لسيده ، ومن البديهى أن ملكيـــة الأقويـــاء لا يجـــوز عليها اعتداء ، أما الأرقاء والضعفاء والبؤســـاء فـــدماؤهم مباحـــة ونساؤهم فراش لاسيادهم وأموالهم مستباحة.

* * *

(٣) العدوان .. أساس نجاح رجال الأعمال

لم تكن الجماعة البشرية ، حتى فى مراحل تطورها الأولى تخلو من وجود أقوياء وضعفاء بين أفرادها . فطوال التاريخ كان هناك دائماً ملاك وأجراء ، سادة وعبيد ، مترفون ومعدمون ولذا فإن الصراع على الملكية ظل سائداً.. ولأن الملاك الأقوياء هم الذين يشرعون وينفذون القوانين ويؤسسون للإعراف والقيم والأخلاق. فإن حماية الملكية من أى اعتداء كان وما زال من أهم القوانين الوضعية والمبادئ الدينية على الإطلاق.

فقانون حماية الملكية من أي إعتداء .. علي الرغم من اتصافه بالحكمة وتميزه بالعمومية والشمول والحياد . إلا أنه ينطوى على تمييز اجتماعى لاتخطئه العين، فهو فى مضمونه وفحواه يحمى الملاك من تمرد الأجراء ويحمى الأقلية من ثورة الأغلبية، أى أنه يحمى المترفين من ثورة الجياع . فلا توجد أى فائدة على الاطلاق لقانون حماية الملكية بالنسبة لمعدم لا يملك من حطام الدنيا شروي نقير وليس له مأوى أو سكن أو مرفأ يرسو فيه عندما تغدر به الأيام وتشتد المحن. ومن قبل قال أحد الحكماء أن الذى يملك هو وحده المواطن ، وكان سيدنا على بن أبى طالب هو أول القائلين: "أن الفقر فى الوطن غربة .. وأن الغِنى فى الغربة وطن". وهو القائل أيضاً : " لو كان الفقر رجلاً لقتلته".

فغريزة العدوان عند الإنسان – إذن – هى أساس نشوء وارتقاء الطبقة المترفة . فليست هناك مرحلة من مراحل التطور الثقافى

للبشرية تخلو من الصراع ، فالصراع هو أساس تطــور الجماعــات ونـهضة الأمم. وفى حلبة الصراع يقتل الناس بعــضهم بعــضاً بــلا رحمة من أجل الاستيلاء على الثروة واحتكــار الــسلطة دون وازع أخلاقى أو ضمير دينى. فالقاعدة العامة المعمول بها في كل الــبلاد تنص على أنه "لا ضمير للأقوياء ولا حصانة للضعفاء".

***

الصراع على الرزق والصراع على الثروة

فى الماضى البعيد وفى الزمن الحاضر.. يتجلى عدوان الإنــسان على أخيه الإنسان فى صور شتى من أوجه الصراع. منها الــصراع على الرزق والصراع على الثروة.

* والنوع الأول (الصراع على الرزق) . يأخذ طابعــه فــى جميــع الأحوال التى يشتد فيها شح الطبيعة بحيث لا تجود على الجماعة إلا بما لا يكاد يقيم أود أفرادها . فى مقابل الجهود المضنية التى يبذلونها لتحويل موادها الخام إلى منتجات نافعــة تــشبع حاجــة إنسانية مباشرة (حياة الكفاف) .
* أما النوع الثانى (الصراع على الثروة) ، فيأخذ طابعه فى جميــع الأحوال التى ترتقى فيها أدوات العمل إلى درجة تساعد المشتغلين على أن ينتجوا سلعا تزيد كثيرا على القدر اللازم لبقائهم أحياء ، أى إلى الدرجة التى تمكنهم من تكديس الــسلع وتــراكم الثــروة والعيش فى ترف (حياة الوفرة) .

ففى مجتمع الكفاف ، يسعى الناس إلى امتلاك القدر من السلع التى تسد حاجاتهم الضرورية للبقاء أحياء ، وفى مجتمع الوفرة ، يسعى الناس إلى امتلاك القدر من السلع التى تساعدهم على أن يحيوا حياة مترفة ويضفى عليهم سمات الشرف والجاه ، فى مواجهة جيرانهم ومنافسيهم وحسادهم ، ويمكنهم من السيادة على غيرهم.. فحب السيادة هو الدافع الأساسى لتكديس السلع وتكوين الثروات وحماية الملكية من الاغتصاب...

***

أطوار اكتساب الملكية..

تتمثل الملكية فى حيازة الإنسان للأشياء . وبوجه خاص ، حيازة قوى الإنتاج ، أى حيازة الأشياء (بما فيها قوة العمل) التى تستخدم فى إنتاج أشياء أخرى تشبع حاجة الأنسان .

فإذا ما امتلك إنسان رقبة إنسان آخر ، فإن الأخير يفقد حريته وإنسانيته ، ويسرى عليه ما يسرى على الأشياء المادية من قواعد اقتصادية، فيباع ويشترى فى الأسواق .

وهذا مارآه ثورشتاين فبلن حقيقة واقعة عندما سجل في كتابه المتميز "نظرية الطبقة المترفة" أن نظام التملك قد بدأ -في الماضي- بتملك الأشخاص والنساء منهم أولا وكانت البواعث علي امتلاك مثل هذه السلع (البشر أنفسهم) هي:

- الميل إلي السيطرة والقهر.

- فائدة اولئك الأشخاص كشواهد علي سطوة من يملكهم .
- الانتفاع بخدماتهم وجهودهم لإشباع حاجة أسيادهــــــم.

فتملك البشر للبشر ، منذ الماضي البغيض ، هو أشد صور الترف طغيانا وعدوانا علي الحياة ، وفي أيامنا هذه يمثــل نظــام الحكــم المطلق حاضرا موروثا عن أسلافنا ، وصورة من صور الطغيان في عصرنا، آلت إلينا من مخلفات عصر الحضارة الحجريــة والثقافــة البربرية التي أسس لها من قبل أسلافنا البغاة.

ففى العصور الأولى، كانت ملكية الأشياء تتراكم على شكل غنائم -يسلبها الأقوياء من الضعفاء- ويتخذونها دليلا على فــوزهم فــى الغارات . وتمتد منفعة هذه الأسلاب من إشباع حاجة حائزيها إلــى المقارنة التفاخرية بينهم وبين اقرانهم الذين لم يوفقوا فى الغارات .
فالمقارنة التحاسدية – عند فبلن- هى الدافع الأساســى لحيــازة الملكية الخاصة وتكديس الثروات.

وهنا يتفق الثنانى فيليكس وتاتيانا مع فبلن فى القول بأن تكــوين رءوس الأموال الأولى ارتبط بالسلب والنهب والعنف ، وقطع الطرق البرية والبحرية على المكشوف ، والكذب والغش والخداع والقرصنة واللصوصية السافرة. ويشيران إلى أن الثروات النقدية الــضرورية لأجل تأسيس وتنظيم أولى المؤسسات الرأسمالية قد تأمنت بمقــدار هائل عن طريق النهب السافر لشعوب البلدان المستعمرة. وقد عادت النخاسة (تجارة العبيد) على الرأسماليين بأرباح طائلة. ففى غضون

مائتى سنة ، قبض النخاسون فى أفريقيا الوسطى وحدها، مثلاً ، على ما لا يقل عن مائة مليون شخص ، هلك ثلثاهم في الطريق أثناء نقلهم إلى المستعمرات الأمريكية بوسائل وحشية. فملكية العبيد كانت هى أساس ترسخ ظاهرة الملكية الخاصة فى الحياة البشرية، فالعبد وما ينتج ملكا لسيده بلا منازع بحكم ما ترسخ فى الحياة من أعراف السيادة والسيطرة على كل ما يجلب المنافع.

***

والملكية الخاصة ، هى أساس ظهور الطبقة المترفة وفى مسيرة التاريخ ظل كل منهما (الملكية والترف) قرين الآخر فى كل أطوار الحياة . ويميز ثورشتاين فبلن بين ثلاثة أطوار للملكية الخاصة .

* الطور الأول .. هو طور الحيازة بطريق الاغتصاب البسيط حيث يتم فيه امتلاك الغنائم والأسلاب نتيجه للانتصار على الاخرين فى الغزوات والغارات .
* الطور الثانى .. هو طور ظهور التنظيم الصناعى البدائى القائم على أساس الملكية الخاصة من الرقيق . وخلاله تتغير نظرة الناس فيقدرون الممتلكات لا على أنها رمز للتوفيق فى الغارات فحسب بل على أنها أيضا رمز لسلطان من يملكها على غيره من أعضاء جماعته . أى أن المقارنة التحاسدية تصبح – قبل كل شيء – مقارنة بين صاحب الملكية وغيره من أعضاء الجماعة . فالملكية الخاصة – حينئذ – تأخذ طابع الغنيمة ، ولكن غنيمة النجاح التى فاز بها صاحبها أثناء لعبة الملكية التى يتبارى فيها أعضاء الجماعة فى ظروف حياة البداوة .

* أما الطور الثالث .. فهو طور النشاط الصناعى المتقدم ، الـــذى حل محل النشاط العدوانى المباشر فى حياة المجتمع اليومية وفى طرق تفكير أفراده ، وفيه تحل الممتلكات التى يحوزونها – محل الغنائم التى اغتصبوها – كمظهر من مظاهر الجاه وعلامـــة مـــن علامات النجاح فى الحياة.

***

فمنذ فجر الحضارة عاش أغلب النـــاس حيـــاة مليئـــة بـــالبؤس والشقاء. وكان المجد والمغامرة والسبق متاحاً لقلة من المتـــرفين ، بينما كانت للجماهير حياة حافلة بالبؤس والعمـــل الـــشاق المقتـــرن بقسوة فظيعة بين آن وآخر حسبما يقول " برتراند راسل ".

ومنذ ابتدع البشر العبودية ، اعتقد الأقوياء أن ســـعادتهم يمكـــن تحقيقها بوسائل تستلزم فرض البؤس والـــشقاء علـــى الـــضعفاء ، وبذلك تصعد الطبقة المترفة قمة الهرم الإجتماعي بينما تظل الطبقة المنتجة في القاع وبين القمة والقاع تتدرج باقى الطبقات.

فالخداع ، والكذب ، والجريمة ، والاحتيال ، والغش ، والاغتـــصاب وتأويل الدين كانت وظلت من الأسلحة التي يستخدمها المترفون لسلب الثروات وقتل الغريم.. فمن المعلوم ، مثلاً ، أن أول عملية تجارية قام بها الملياردير الأمريكى " جون بيربونت مورغان " كانـــت مرتبطـــة بالغش والاحتيال عند بيع سلاح مغشوش للحكومة الأمريكيـــة. وبـــدأ ملياردير أمريكى آخر هو هارالدسون لافاييت هانت، "مهنـــة" رجـــل الأعمال كمحتال فى القمار واشترى أول بئر بترولیـــة فـــى ظـــروف غامضة مثيرة للشكوك ومرتبطة بموت صاحب البئر بـــصورة غيـــر

متوقعة ولأن الماضي والحاضر والمستقبل حلقات فى مسلسل الزمن ، ولأن التاريخ يعيد نفسه بقدر كبير من التشابه ولكن عند مستويات حضارية أرقى وأعلى ، فقد كشفت تداعيات الأزمة الرأسمالية العالمية الحالية ٢٠٠٨ /٢٠١٠ عن ضلوع كبار رجال المال فى الولايات المتحدة الأمريكية فى اتباع وسائل وأساليب تيسر لهم سلب الثروة وتزييف وعى الأمة ، وهو ما أظهره الباحثان سيمون جونسون من معهد MIT و جيمس كواك من كلية القانون فى جامعة (بل) ، فى كتابهما الجديد بعنوان "١٣ مصرفياً" وكشفا فيه عن أن زواج المتعة بين الثروة والسلطة قد أدى إلى خراب الذمة وفقدان الثقة في السلطة.

وذلك ليس مصادفة علي الإطلاق، فالحضارة الامريكيه برمتها قامت على الاغتصاب والغدر والدهاء منذ أن قام المستوطنون الاوربيون البيض بإبادة الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين والاستيلاء على ممتلكاتهم . هؤلاء الذين كان عددهم آنئذ يقدر بعشرات الملايين.

ومن المفارقات .. التى تكشف عن أن العدوان غريزة أصيلة في طبع الانسان، وأن خداع النفس وغياب الضمير صفات يوصم بها البشر لا الحيوانات، أن الأمريكان مازلوا حتى الآن يحتفلون سنويا "بعيد الشكر" . ففى شهر نوفمبر من كل عام، يُصلون للرب ويقدمون لله آيات الشكر والإمتنان على الخير الوفير الذى وعدهم به ومنحهم إياه، عندما وضع بين ايديهم خيرات قارة بأكملها هى القارة الامريكية، فهم يزعمون على غير الحقيقه ان الله فى علاه هو الذى

أيدهم بنصره على الهنود الحمر حتي أستأصلوهم وأبادوهم عن بكرة أبيهم ونفوهم من الحياة.

فالحضارة الامريكية، مثلها مثل كل حضارة كبرى فى التاريخ، قد تأسست عن طريق الفتوحات والغزوات التي كان القوي فيها يقهر الضعيف ، وكان المنتصر فيها يسترق المهزوم ويستغله ويشغله لمصلحته ويحول ممتلكاته إلي غنائم وأسلاب تحت دعاوي باطلة تتعارض مع المبادئ والقيم والأخلاق وتخالف بشكل قاطع المثل العليا للأديان.

لذلك، لم يكن غريبا على الإطلاق أن نرى الرعايا - سواء كانوا من عامة الناس أو من السادة أومن الأعيان - وهم يركعون ويسجدون ويقبلون الأرض بين يدي الملوك في بلاط الفاتحين الغزاة من القياصرة والأباطرة والأكاسرة العظام . مع إن هؤلاء في الواقع مثلهم بشر يتناسلون ويتكاثرون ويتناولون الطعام ويخرجون ما في بطونهم من فضلات . ولم يكن ذلك الخضوع إلا ميراثا عن طقوس معتادة تعبر عن خضوع العبيد للأسياد والأرقاء للنبلاء والضعفاء للأقوياء . فقانون خضوع الضعفاء للأقوياء قانون موضوعي يفعل مفعوله على الدوام.. ففي الحياة لا ضمير لقوى ولا حصانة لضعيف وإن تغيرت الأمكنة وتوالت الأزمان. فعادة خضوع المغلوبين للغالبين والضعفاء للأقوياء تأصلت في الطبيعة البشرية من قديم الزمان.

والمفارقة هنا تبدو واضحة جلية للعيان ، إذ أن البشر كثيرا مـــا يرتكبون اكبر الجرائم وأفظع الشرور تحت راية الرب الذى امـــرهم بالرحمة وطالبهم بالعفو ، فالله فى عليائه ، إله سلام لا إله حروب ، غير أن البشر لايعقلون.

انتخاب الأقوياء

فى أثناء عملية التحول من طور اجتماعى إلى طــور اجتمـــاعى أرقى، تحدث عملية حراك اجتمـــاعى واســـعة النطـــاق . والحـــراك الاجتماعى عملية ديناميكية تدل على حيوية المجتمعـــات وقابليتهـــا للتطور والبقاء .

ولكن الحراك من الطبقة الدنيا إلى الطبقة المترفة كأحد الجوانـــب الأساسية فى هذه العملية لا يتحقق إلا لمن يقدر – من أفراد الطبقة الدنيا– على الفوز بدرجة كبيرة فى المنافسة المالية الباغية الدائرة فى المجتمع.

فالطبقة المترفة تحتفظ بقوتها وحيوتها عن طريق عملية انتخاب دائبة تسحب إلى صفوفها من أفراد الطبقة الدنيا من يصلح بدرجـــة كبيرة للصمود فى المنافسة المالية الباغية التى لا تنطفئ لها جـــذوة ولا يهدأ لها أوار.

والأساس الدقيق لهذا الانتخاب لم يتغير مع التطور حسبما يقول ثورشتاين فبلن..

- ففى الطور الهمجى البدائى ، أو الطور العدوانى الصريح ، كان اختبار الصلاحية هو اختبار للجرأة بمعناها البسيط المباشر ، ومن صفات المرشح لهذه الطبقة أن يكون مخلصا لعشيرته ، مرهوب الجانب ، شرسا ، عديم الضمير ، متشبثا بآرائه . ونتيجة لعملية الانتخاب كانت الصفات السائدة فى أفراد الطبقة المترفة فى هذه العصور هى الاهتمام الشديد بالمكانة الاجتماعية فضلا عن التدليس والغش والبغى الصريح ؛ وكان أعضاء هذه الطبقة يحافظون على مكانتهم فيها بما يقومون به من أعمال جريئة تؤدي في النهاية إلي قهر الخصم وإبادة الغريم . ولقد كانت هذه الصفات هى التى يعتد بها فى جمع الثروة وحماية الملكية الخاصة. وكان الأساس الاقتصادى للطبقة المترفة فى ذلك الوقت كما كان فى العصور التالية هو امتلاك الثروة .
- أما فى طور الثقافة الهمجية الحديثة ، فقد توصل المجتمع إلى قبول أساليب ثابتة لجمع المال فى ظل النظام شبه السلمى للمكانة الاجتماعية ، إذ حل الدهاء والاحتيال محل العدوان البسيط والعنف الشديد كأفضل وسيلة مقبولة لجمع المال . ولذلك ظلت

الطبقة المترفة تحافظ على مجموعة أخرى من النزعات والميول العدوانية، فقد ظل البغى و العدوان والتعالى والاهتمام الشديد بالمكانة الاجتماعية من الصفات البارزة فى سلوك أفراد الطبقه المترفة .

- أما بالنسبة للطور المسالم الحديث ، فقد استقرت صفات مالية أقل ضراوة ، منها : التعقل والحزم والمخادعة ، وتأويل الدين ، وتخبيل الغريم ، واعتبرت ضمن التقاليد والفضائل الأرستقراطية المثالية . وأصبحت لهذه الصفات والعادات أهمية نسبية متزايدة فى تحقيق الأهداف المالية ، وأهمية أكبر نسبيا فى عملية الانتخاب التى يتم بها الاندماج فى الطبقة المترفة فى النظم الاقتصادية المعاصرة .

***

(٤) الأنشطة المالية

أكثر عدوانية من الأنشطة الصناعية

تتسم الأعمال المالية فى العصر الحديث ، بروح العدوان أكثر من الأعمال الصناعية.

والأعمال المالية التى ترعى الطباع العدوانية هى الأعمال التى تعنى بالملكية باعتبارها الوظيفة المباشرة للطبقة المترفة، إلى جانب الأعمال الإضافية التى تعنى بجمع المال واكتنازه. فحسبما يقول الكاتب الصحفى المعروف أحمد بهجت "إن عصرنا يتحدث عن الأخلاق والفضائل فى الوقت الذى يكشف فيه تيار الحياة عن احترام المال والتغاضى عن الأخلاق .. ولقد تحولنا من توقير الصفات المعنوية كالمسئولية والعلم واحترام المبادئ .. تحولنا من هذا كله إلى سؤال يقول ما هى ثروتك؟.. أقل لك كم تساوى ..

وقديما كانت ملكية الأرض والعقارات تأتى فى مقدمة أسباب الثراء.. ثم وقع تحول فى العالم كله .. وكان هذا التحول يشبه الزلزال ، وحمل الزلزال بعض من كانوا فى القاع إلى القمة .. وحمل بعض من كانوا فى القمة إلى القاع .. والأيام دول .. ولا شىء يبقى على حاله إلى الابد .. وهذا كله مفهوم ومعروف .. الأمر الجديد أننا نعيش وسط عصر يغلو فى عبادة المال إلى الحد الذى يجعله قيمة عليا من قيم الحياة .. قيمة تسبق الأمانة والشرف وأى صفة معنوية

أخرى .. ووسط حمى الاستهلاك والأنماط الجديدة ، لم يعد تقويم الناس يتم وفقاً لما يعرفونه أو يقدمونه من خدمات للمجتمع "وإنما صار يتم وفقاً لما يملكونه من أرصدة".

ومن أبرز الأمثلة على تحيز الأخلاق البرجوازية إلي جانب الأثرياء ضد الفقراء ، هى- حسبما يقول جود Joad- القوانين التى شرعت لحماية الممتلكات من أي إعتداء حيث يتساءل قائلا: نماذا لا يحدثنا التاريخ عن جلد الفلاحين الذين كانوا يتخطون أسوار مزارع السادة لسرقة أرنب أو غزال؟ .. ولماذا لا نقرأ أى استنكار عن عقوبة العامل الذى يسرق خروفا ليطعم صغاره الجائعين وهى النفى مدى الحياة!

ثم يضيف قائلا: " أن الاجابة على هذه الاسئلة تتمثل فى قوة العواطف المرتبطة بالملكية ".. فالملكية أيا كان مصدرها لا يجوز عليها اعتداء حتى وإن آلت لصاحبها عن طريق السلب والنهب والاغتصاب.

إذ أن البرجوازية تعتمد اعتمادا كليا على احترام الملكية ، وإذن فكل ما يؤدي إلي حمايتها والاحتفاظ بها صواب ، وكل ما يهدد سلامتها خطأ.. فالسلوك الأول مشروع ، أما السلوك الثانى فمجرم ويستحق العقاب.

* * *

الأنشطة المالية

تنطوى النظم الاقتصادية الحديثة على نوعين واضحين تقريبا من الأعمال ، هما الأعمال المالية والأعمال الصناعية :

* والنوع الأول (الأعمال المالية) ، يشتمل على الأنشطة التى تعنى بالملكية أو جمع المال . وفيه تتركز المصالح الاقتصادية للطبقة المترفة .
* أما النوع الثانى (الأعمال الصناعية) ، فيشتمل على الأنشطة التى تعنى بالصناعة والإنتاج . وفيه تتركز المصالح الاقتصادية للشغيلة والعمال .

ولأن الأعمال المالية تنطوى على مستوى أعلى من العدوان فإنها تتمتع بدرجة من الاحترام أعلى من درجة احترام الأعمال الصناعية.

ويرى فبلن ، أن الأنشطة المالية تتميز إلى ثلاثة أنواع: أعمال تتصل بالملكية . وأعمال تتصل بإدارة العمليات المالية . والأعمال التجارية. وعلى الرغم من ان هذه الأنشطة تكتسب التقدير والاحترام لدى عموم الناس، إلا أنها ليست على درجة واحدة من الاحترام .

* فالأعمال المالية ، التى تتصل على نطاق واسع بالملكية ، هى أكثر الأعمال الاقتصادية الأصلية احتراما .
* يليها مباشرة الأعمال التابعة للملكية وإدارة العمليات المالية ، مثل: الأعمال المصرفية والقانونية .

- فالأعمال المصرفية ، توحى بالملكية الكبيرة ، ولا ريب أن هذه الحقيقة هى التى تضفى عليها آيات الرقى والمهابة .
- أما الأعمال القانونية ، مع أنها لا تتضمن ملكية كبيرة ، إلا أن فائدتها تتجلى فى إثارتها لروح المنافسة . فالمحامى ، يشتغل – بصفة خاصة – فى أعمال التدليس العدوانية ، سواء فى إنجازها أو فى التغلب عليها. لذلك، فإن النجاح فى هذه المهنة دليل على الإتصاف بذلك الدهاء البربرى الذى كان دائما يسبب احترام الناس وخوفهم .

* أما الأعمال التجارية ، فلا تنال الاحترام كلية ، ما لم تنطوى على عنصر كبير من الملكية ، وعنصر صغير من المنفعة ، وعموما، يرتفع شأنها بعض الشىء بنسبة ما تؤديه من خدمات للأغنياء ، أو ينحط شأنها بعض الشىء بنسبة ما تؤديه من خدمات للفقراء.

***

أسواق المال تنبذ الطيبين وترحب بالأشرار

من المشاهد أن الدخول فى زمرة الطبقة المترفة لا يتحقق إلا عن طريق الاشتغال بالأعمال المالية . والنجاح فى هذه الأعمال لا يناله إلا من يتصف بالصفات العدوانية . فالعدوان البيّن هو أساس الفوز فى الأعمال المالية .

ولأن الناس ليسوا على درجة واحدة من الشر ، فإن فبلن يرى أنه عندما تظهر أى صفة من صفات الطبيعة البشرية غير

العدوانية ، فى تصرفات بعضهم ، فإنها غالبا ما يقضى عليها فى الحال. لأن الصفات التى تميز الإنسان الذى يصلح للبقاء هى فى صورتها الأولية: العنف والأنانية والتدليس وعدم الولاء والغش الصريح:

- وذلك لأن النظام القائم على التنافس ، الذى يتبارى فيه الناس بعضهم مع بعض ، لا يمكن أى منهم من تحقيق مصلحته الذاتية العاجلة تحقيقا كاملا ، إلا إذا تجرد من الضمير فأصبح قادرا على خداع إخوانه وإيذائهم فى هدوء كلما توفرت له الاسباب وواتته الفرص وتهيأت له الظروف.

- إذ أن خير ما يخدم به الفرد نفسه – فى ظل النظام القائم على التنافس – هو الدهاء والتخلى عن المبادئ الخلقية فى أداء الأعمال، فحينما تكون الحياة قائمة إلى حد كبير على التنازع بين أفراد المجتمع ، فإن التحلى بالسمات المسالمة ، مثل : الصدق والمحبة والتعاون وإفشاء السلام بين الناس ، يعرقل جهود الفرد فى كفاحه من أجل البقاء . فمزايا دماثة الخلق والمساواة ومشاركة الغير وجدانيا بلا تفرقة لا تساعد الفرد كثيرا على النجاح فى الحياة . فالإنسان يكون أسعد حالا – فى نظام المنافسة والصراع – كلما قل تمسكه بمثل هذه الصفات الحميدة . إذ أن الفرد المتنافس يستطيع تحقيق غايته إذا جمع بين النشاط والمبادأة والأنانية والاحتيال وعدم الولاء ، وهى من الصفات

الأساسية للإنسان البربرى الذي يسلك في الصراع سلوك الحيوان.

ويرى فبلن أن الإنسان البدائى المسالم لم يحرز نجاحا كبيرا ، فهو فى أحسن حالاته كان إنسانا طيبا لا يصلح لشىء ، لأن السمة البارزة فى الثقافة البربرية هى التنافس المستمر والعداء بين الطبقات والأفراد، ولذا فإن النجاح يكون من نصيب الأشرار لا الأخيار .. الأقوياء لا الضعفاء إذ أن الكفاح من أجل البقاء ، تغير أثناء الانتقال إلى الثقافة العدوانية:

* من كفاح لحماية الجماعة ضد بيئة غير بشرية (الطبيعة) .
* إلى كفاح لحماية الجماعة ضد بيئة بشرية (البشر أنفسهم) .

وقد صوحب هذا التغير ببغض متزايد وشعور بالعداء بين أفراد الجماعة البشرية ، وكانت ظروف النجاح وضرورات البقاء فى الجماعة تتجه باستمرار نحو تأصيل العدوان والمنافسة الضارية مع الاغيار .

وفى ظل ، المنافسة الضارية - التى استمرت زمنا طويلا - عملت آلية انتخاب الأنواع ، التى كشف عنها داروين فى نظريته عن النشوء والارتقاء ، على تأكيد السيادة للعناصر السلالية التى كانت تتصف بالصفات العدوانية أكثر من السلالات المسالمة، فالثانية انقرضت في غمار التطور أما الأولي فقد كتب لها البقاء.

ألوان من المنافسة والصراع بين رجال الأعمال

يشبه إنجلز ضراوة المنافسة بين رجال المال والأعمال بالحرب: "حرب الجميع ضد الجميع .. حرب حياة أو موت".

وكما فى الحرب الحقيقية يلجأون عند الاقتضاء ، فى صراع المزاحمة ، إلى الديناميت ، والسلاح ، وأعمال التخريب ، ويشعلون الحرائق، ويسرقون الوثائق ويتلفون المنتجات ، ويغتالون أكثر العاملين خبرة. وما من شركة تحاول التمرد فى وجه خصوم أقوياء دون أن تواجه باحتراق مشاغلها وتفجير مستودعاتها ، وتطاير الانشاءات الإنتاجية فى الهواء.

ولا يأنف الرأسماليون ، فى صراعهم بعضهم ضد بعض من أجل جنى أكبر الارباح ، عن الغش والتزوير والتهويل والاحتيال والرشوة والتدليس والكذب الصريح والنصب وقتل الغريم.

إن الرأسماليين ، فى صراعاتهم ، أشبه بسرب حاقد من الضوارى المستعدة لالتهام بعضها بعضا فى كل لحظة من أجل الكسب .. من أجل الربح ، فالربح بالنسبة للرأسمالى هو الأمل المنشود وسر الوجود والإله المعبود .

وهذا الصراع الضارى بين رجال الأعمال المتنافسين يصفه الكاتب الفرنسى العظيم أميل زولا بالوحشية فى روايته "النقود" قائلاً: "فى هذه المعارك النقدية ، السرية والدنيئة ، حيث يسحبون خلسة مصارين الضعفاء ، لا تبقى أية روابط ، أية قربى ، أية صداقة ،

فذلك هو القانون العديم الشفقة ، قانون الأقوياء الذين يلتهمون الغير ، قبل أن يلتهمهم".

والنتيجة .. أن الأقوياء يزدادون غنى وسعادة والضعفاء يزدادون فقراً وشقاء ويسلمون مواقعهم تدريجياً ويمنون فى آخر المطاف بالإفلاس والخراب. ومع أن رحى المنافسة الضارية تدور بين الرأسماليين أنفسهم أينما كانوا إلا أن هدفهم يظل هو هو: اعتصار الحد الأقصى من القيمة الزائدة وتقويض مراكز المنافسين ، وإنزال الخراب بهم ، والاستيلاء على مواقعهم فى الاقتصاد.

وفى سبيل ذلك ، ينظم مختلف الرأسماليين ومجموعاتهم هجوما حقيقياً على كل الجبهات ، هجوم سجل ملامحه الثنائى فيليكس فولكوف وتاتيانا فولكوفا فى كتابهما "ما هى القيمة الفائضة؟" . كما يلى:

- يضيعون على المنافسين الحصول على القروض.
- ويخفضون الأسعار بصورة مصطنعة (الاغراق).
- وينظمون مقاطعة بضائع الشركات المنافسة ويبنون مشاغل ومؤسسات موازية.
- ويعقدون فيما بينهم تفاهمات وصفقات سرية حول حرمان المنافسين من الأيدى العاملة والخامات والوقود والطاقة الكهربائية.

- وسعياً وراء زحزحة المنافسين والحصول على أقصى الأربــاح ، يتجاهل الرأسماليون فى غالب الأحيان على المكشوف مـصالح المستهلكين الفعلية.
- وينفق رجال الأعمال مبالغ طائلة على تطوير الدعاية والإعــلان لأجل انتزاع المشترين من الخصوم ، حتى لــو تطلــب الأمــر تضليل المشترى وتخبيله ، وإقناعه ، مهما كلف الثمن ، بفــك كيس نقوده ، وشراء حتى البضاعة التى لا يحتاج إليها أو التى لا تشبع جوعه.
- وفى حمى المنافسة يلجأون على نطاق واسع إلى الاستيلاء على شهادات الاختراع ، وشراء واحتكار المشاريع المؤممة. ويلفون الاكتشافات الجديدة بغطاء السر التجارى المحرم كشفه للغرباء.
- وفى النضال ضد الخصوم ، يلجأون أكثر فأكثر إلــى التجــسس الاقتصادى ، بما فى ذلك جمع المعلومات ، وسرقة المستندات، والتصنت واستراق النظر من ثقب الباب وتصوير الخصوم فى أوضاع مخلة بالآداب.

و يرى كارل ماركس ان دافع الرأسماليين إلى مثل هذا العــدوان وكل ما يجرى فى الاقتصاد من الجرائم يــرتبط -بنحــو أو بــآخر- بالتنافس بين الرأسماليين لأجل جنى الأرباح بوصفها هدفاً ، وقــوة جذابة ، وسبباً حافزاً للعدوان.

إذ أن سعى الرأسماليين لتعظيم القيمة الزائدة والاستيلاء عليهــا باستثمار العمال المأجورين ، يشكلان القانون الاقتصادى الأساســى

للرأسمالية. وهو مانص عليه ماركس فى مؤلفه رأس المال قائلاً: "إن إنتاج القيمة الزائدة ، إنما هو القانون المطلق لأسلوب الإنتاج الرأسمالى".

***

والخلاصة ...

وحسبما يقول فبلن فإن قواعد الأعمال المالية ، تحافظ على بعض الصفات والنزعات العدوانية المتوارثة عن أسلاف بعيدة من الهمج وتسعى إلى غرسها فى الحياة الاقتصادية المعاصرة بطريقتين :

أولاً : بتعليم وتدريب الأفراد والفئات المشتغلة بتلك الأعمال التى تتصف بآيات المكر والاحتيال.

ثانيا : بقمع الأفراد غير الصالحين للأعمال المالية وإقصائهم عن دائرة الاستثمار.

ولأن الأعمال المالية تتمتع بدرجة من الاحترام - أعلى من الأعمال الصناعية - فإن رجال الطبقة المترفة المتخصصين فى الأعمال المالية ، بما لهم من نفوذ يعززون النزعات التى تخدم الأغراض التى تثير البغضاء والحسد بين الناس . كما أن انغماسهم فى حياة البذخ يغذى الصفات والنزعات العدوانية فى المجتمع .

ومن البديهى أن الناس كافة ، ينشدون الترف لا العوز، ينشدون المتعة لا الألم ، لكن جواز المرور إلى نادى الطبقة المترفة ، هو تنمية المواهب المالية ، أى تنمية مواهب الحصول على المال بكل

وسائل العدوان ، بديلا لتنمية القدرة على أداء خدمات عامة أو تنمية مهارات الإنتاج . ومن يعجز فى جمع المال وتكديس الثروة يتم إقصاؤه وطرده من نادى المترفين بكل قسوة. إذ أن عملية الانتخاب الطبيعى تقوم بتصفية المتعثرين ماليا بكل وحشية.

وهذه العملية ، أي عملية تجميع الأموال وتكديس الثروات تستند إلى حد كبير على كثير من عادات الطور البربرى البدائى ومثله وقيمه، أى عصر الجرأة والجسارة والعدوانية ، والنزعة الأصيلة للقتال بلا شفقة. وفى الحالات التى يكون فيها العمل العدوانى جماعيا، فإنه غالبا ما يوسم بالروح الحربية أو الوطنية . فالحرب على الأغيار مقدسة . إلى درجة أن عدم التحمس لها – فى كل مجتمع متحضر – يعد حدثا مشينا إلى حد يجعله موضعا للتندر . بل قد يغالى البعض ويصف ذلك بالتخلى عن مبادئ النزاهة وافتقاد سمات الرجولة والشرف .. وربما يوصم أيضا بالخيانة للوطن.

وفى العصر الحديث . تتجمل الطبقة المترفة المالية – رغم محافظتها على الطباع البربرية – بإحلال التدليس والتروى محل الميل إلى الضرر المادى المباشر الذى كان يتميز به الإنسان البربرى البدائى .

إذ أن المترفين المعاصرين من ذوى السلطة والمال يكسبون ملكياتهم المشروعية القانونية والقداسة الدينية ، سواء كان مصدر هذه الملكية السلب والنهب أو بصدفة الميلاد ميراثا عن أسلافهم من

بارونات اللصوص، فلا ضمير لمن لا يأسي على فضيلة أو يأبه لدين ويسعي إلي اكتساب عضوية نادي المترفين.

ومن قبل قال تعالي في محكم التنزيل ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ٣٤ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ : ٣٤ – ٣٥] ..

***

الفصل الرابع

ترف الأغنياء وبؤس الفقراء

الفصل الرابع

ترف الأغنياء وبؤس الفقراء

الرغبة في الحصول على الدخل والثروة ، هو ما يدفع البشر إلى الكدح والاقتصاد والعمل والكفاح ، غير أن عمل الفقراء يختلف جوهريا عن عمل الأثرياء .

* فالفقراء: هم الطبقة الدنيا الذين لا يجدون – فى العادة – غير العمل اليدوي المنتج وسيلة للحصول على دخول تقيم أودهم وتحمي أسرهم من عضة الفقر وغائلة الجوع والحفاظ على البقاء في غابة الحياة.

* أما الأثرياء: فهم الطبقة العليا في المجتمع. ولذا ، فإن الامتناع عن العمل اليدوى هو أساس فخرهم ، فعملهم الأساسى هو استثمار وقت الفراغ فى القيام بأنشطة ترفية ، أى أنشطة طفيلية تجلب المال مع أنها غير إنتاجية.

إذ تقضى قوانين السلوك الترفى ، بأن تضيع الطبقة المترفة وقتها وجهدها جميعا فى أعمال غير منتجة .. مثل ما تقوم به من زيارات

اجتماعية ، أو سياحية، أوقيادة اليخوت والسيارات ، أوفــى إرتيــاد النوادى ومشاهدة عروض الأزياء، أوممارسة الرياضـــة وعــضوية الهيئات الخيرية وما إليها من الأنشطة الاجتماعية . وإلي جانب ذلك تزاول أعمال الصيرفة والمضاربة والوكالة والسمــسرة والاحتكــار وإغراق الأسواق بالبضائع المستوردة، وهى من الأنشطة الاقتصادية التى تجلب المال وتسر القلب مع أنها تصيب المجتمع بالهم ..

- فالمهن التى يزاولها الأثرياء عادة ما تلقى التقدير والاعتبار .
- أما المهن التى يزاولها الفقراء فكثيرا ما تنمــى لــدي أصــحابها الاحساس بالدونية والشعور بالعار.

فالفقر يولد الكفر ويسبب الذل ويجلب الهم . ومن قبل قال نبينـــا الكريم وهو يناجى ربه كما جاء فى الحديث الشريف: " اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر وأعوذ بك من عذاب القبــر لا إلـــه إلا أنت"

* * *

(١) مهن الأغنياء ومهن الفقراء

فى الثقافة العدوانية ، ثقافة الرق والترف .. (الرق للعبيد والترف للأسياد) ، يصبح العمل مقترنا فى تفكير النـــاس بخـــضوع العبيـــد للأسياد. ولعل من الاشياء ذات الدلالة – كما يقول جـــود joad– أن يكون مرادف لفظ "السيد" – عند أفلاطون وأرسطو– هو الـــشخص الذى يتمتع بوقت الفراغ ، أى الشخص الذى لا يزاول عملاً منتجـــا يقصد منه الكسب والإرتزاق . ففى رأيهما أن مثل هذا الشخص فقط هو الذى يمكنه أن يهتم بثقافة الترف وفنون الحيـــاة. أمـــا الفنـــون الميكانيكية والأعمال اليدوية والصناعية بما فى ذلك العلم التطبيقى ، وتلك الأعمال التى يقوم بها آلاف الفنيون والمهندسون.. فهى أعمال غير مرغوبة . وذلك لأنها لا تترك للانسان وقت الفراغ الذى يتـــيح له تنمية جسمه ومواهبه وعقله والاستمتاع بمباهج الحيـــاة . اذ أن الممارسة المستمرة والأداء الدائم لتلك الأعمال الانتاجية إنما يطبـــع كلا من العقل والجسم بطابع الجمود والمطابقة للآلة التـــى تـــسيطر عليهما بلا هوادة.

ويرى آدم سميث أن " تقسيم العمل" هو العامل البشرى الأساســـى فى خلق الثروة . فالعمل فى رؤيته إما أن يكون " منتج " أو " غيـــر منتج " .

- والعمل المنتج .. هو عمل العمال فى فلاحة الارض وتشغيل المصانع وتبادل السلع فى الأسواق .

- أما العمل الغير المنتج .. فيشمل بعض أكثر الطوائف أحتراما فى المجتمع ، وكذلك ، يشمل بعض أقل المهن جدية تلك التى تتراوح بين عمل رجال الكنيسة والمحامين ومن على شاكلتهم من ناحية ، والمهرجين والعازفين ومغنى الأوبرا من ناحيـــة أخرى .

وفى سياق سعية لرصد آثار تقسيم العمل فى المجتمع علـــى نحو ما سبق يفيد كارل ماركس بأنه "فى المجتمع الرأســمالى لا يتأتى لطبقة ما أن تظفر لنفسها بأوقات فراغ إلا بإجبارها الآخرين على أن يكرسوا للعمل حياتهم كلها".

ولذا ..

فإن العمل اليدوى -كان فى الماضى ومازال فى الحاضر- علامة من علامات الضعة ودنو الشأن ، ولا يليق بالرجل ذى المكانة فـــى قومه:

* فأعمال الكتبه والبنائين والنجارين والحدادين والدلالين والحلاقين والفحامين واللحامين والخراطين والنقاشين والبوابين والخبازين والفرانين والمناولين والزبالين والجزارين والحمارين والحانوتية والعتالين والحمالين والسائقين والفرارجية والمرابعين والسباكين والعربجية والورشجية وعمال اليومية والتمرجية وصغار الأفندية والفراشين والتُربية والـــصنيعية والخفـــراء والـــسعاة والباعـــة والتملية والحائكين والحـــذائين وعمـــال الزراعـــة والكمـــسارية

والجنينية والخدم وشغالات البيوت وتجار المواشى والقهوجية وعساكر الدورية وغيرهم بالآلاف والملايين من ذوى الأعمال اليدوية والأنشطة العضلية وغيرها من الأعمال التى تعد فى نظر المجتمع ، وحتى فى نظر من يزاولونها . أعمالا وضيعة تدنى من قيمة أصحابها سواء فى نظر أنفسهم أو فى نظر المترفين .

* أما أعمال الفنانين والدبلوماسيين والراقصين والراقصات والبصاصين والصحفيين والسياسيين والرياضيين والمثقفين الانتهازيين ورجال الأعمال الطفيليين وترزية القوانين وفقهاء السلطة المتسترين بالدين والسماسرة والدعاة من ذوى الطلعة البهية الذين يثيرون الفتن الطائفية وغيرهم من ذوى الأعمال التى لا توقد ذهن ولا تجهد جسد ولا تفرز عرق. فهى من الأعمال الشريفة. حتى فى نظر أولئك الذين لا تطال قاماتهم عتباتها.

وهذا معناد . أن هناك على الدوام توجد أقلية قليلة مترفة تقف بأقدامها على رأس الأغلبية الكبيرة المعدمة من المهمشين والعامة وسواد الأمة. هؤلاء الذين إن إعتلت صحتهم يوما ووهنت عظامهم أوداهمتهم الشيخوخة وتوقفت قدرتهم عن العطاء والكسب عاشوا على الفتات ومدوا أيديهم إلى المارة يسألونهم الإحسان والصدقة ، فالحرافيش والفقراء والمهمشين، الذين لايملكون من حطام الدنيا إلا قوة عملهم، إن اعتلت صحتهم يوماً وخارت قواهم ضاعوا وفنوا فى مضمار المنافسة.. فلا حصانة لفقير وإن كرت الأيام ومرت السنين.

وهذه الظاهرة يفسرها جالبريث فى كتابه "تاريخ الفكر الاقتصادى" قائلاً: ".. لأن الرقيق كانوا هم الذين يؤدون العمل العضلى .. فإن العمل كان حاطا بالكرامة .. بما ساعد على استبعاده من تفكير العلماء، وكان ذلك صحيحاً فى أثينا وفى المدن الإغريقية بوجه عام. وبدلاً من ذلك أصبحت المسائل المبهمة (لدى فلاسفة الإغريق) هى التبرير الأخلاقى للرق وسوء المعاملة ".

***

ويرى جوبلو Goblot أن كثيرا من المهن التى يرى عامة الناس أنها طيبة ومحترمة ، يرى البرجوازى أنها من المهن الحقيرة. واسترشادا برؤيته سوف نجد أن..

- هناك مهن كريمة مثل الوعظ والتفلسف والعمل السياسى والتفكير الذهنى والفروسية وجلب المال وخدمة السلطان.
- وهناك مهن غير كريمة مثل حمل الأشياء الثقيلة ، وتداول الأدوات. واتخاذ أوضاع مجهدة وتكرار حركات رتيبة بطريقة آلية تسبب بلادة الذهن وفقر الدم ووهن الأبدان.
- وهناك أخيراً الحرف اليدوية عموماً حتى ولو كانت تستخدم أدوات خفيفة كالإبرة أو الريشة.

وبالنسبة إلى كل هذه الأنشطة فإن: البرجوازية تهتم اهتماماً كبيرا بحفظ المسافة التى تفصلها عنها ، كما تفعل مع خدم المنازل .. وعلى هذا .. فإن البرجوازية تحتفظ لنفسها بالمهن التى تتسم

بالمبادرة، والقيادة ، والذكاء، وتترك للطبقات الشعبية الحرف التي فيها التنفيذ والطاعة والمجهود البدني والعمل اليدوي والغباء.

وفي نفس السياق . يرى هالفاكس أن طبقة الفلاحين وطبقة العمال تختلفان عن غيرهما من الطبقات . لأن أفرادهما يستخدمون المادة استخداماً مباشراً، الأمر الذى يجعل عملهم شاقاً ويضعف من شأنهم. ففى رأيه أن "العمال مضطرون بسبب ظروف عملهم إلى مواصلة الاحتكاك بالمادة شطراً طويلاً من حياتهم ، ولذا فإنهم يفقدون فيها الاستعداد والقدرة على التكيف مع أكثر أشكال الحياة الاجتماعية تعقيداً".

وفى مجال التفسير ..

يشير جوبولو Goblot : الى أن: "الطبقات هى التى تؤثر فى اختيار المهن":

فرجل الأعمال، على سبيل المثال، لا يعمل نجارا أو خبازا أو حمارا أو حدادا أو صانع أقفال. وإنما يعمل سمسارا ويسقع الأرضي و يضارب في الأسواق ، ويتاجر في كل شيئ حتى في الشرف والأعراض.

ويكشف برتراند راسل عن أن الأغنياء وندماءهم ظلوا ، لأجيال متلاحقة ، يكيلون الثناء على "الكد الشريف" ويمتدحون الحياة البسيطة "للعمال الشرفاء" ويتغنون بحلاوة عيشة الفلاح ويبشرون الفقراء بأن فرصتهم فى دخول ملكوت السماوات أوسع من الفرص التى تتهيأ للأغنياء. فموقف الطبقات الحاكمة المعاصرة وأتباعهم، وخاصة هؤلاء الذين يتولون أنشطة التعليم والدعوة والتوجيه

والوعظ والإرشاد، يركزون باستمرار على الإشادة بشرف العمل والكفاح، فموقف هؤلاء من العمل يكاد يكون تماماً نفس الموقف الذى اعتاد أبناء الطبقات الحاكمة فيما مضى التبشير به لمن يطلق عليهم اسم (الفقراء الشرفاء). وهؤلاء هم المترفون الذين يحاولون أن يدخلوا فى روع العمال اليدويين بأن العمل شرف ، بينما هم أنفسهم يأخذون فى حسابهم أن يعيشوا حياتهم كلها بدون التمتع بمثل هذا الشرف علي الاطلاق.

فهؤلاء المترفون لايملون من تكرار كلمات معسولة عن شرف العمل تنم عن النفاق.

وعملية التعمية وتزييف الوعى – على هذا النحو- تسعى إلى التغطية على حقيقة أن أقلية صغيرة من السكان . لا تقوم بنشاط منتج على الإطلاق ، ولكنها تحظى بحصة كبيرة من الانتاج. وبذلك انقسم المجتمع إلى طبقتين:

- إحداهما طبقة صغيرة مترفة .
- والأخرى طبقة كبيرة معدمة.

ويرى برتراند راسل أن هذا التمايز قد أدى بالضرورة إلى اختراع نظريات تبرر بها الأقلية الامتيازات التى تستمتع هى بها وتحرم منها أغلبية السكان، بل وأكثر من هذا فإن هؤلاء ظلوا طوال التاريخ يوظفون الدين لحماية أملاك المترفين.

فغريزة العدوان عند الإنسان هى إذن أساس نشوء وارتقاء الطبقة المترفة. فليست هناك مرحلة من مراحل التطور الثقافى للبشرية تخلو من الصراع ، فالصراع بين الطبقات -كما يرى ماركس- هو

أساس تطور الشعوب والأمم والجماعات ، وفى حلبة الصراع يقتل الناس بعضهم بعضاً دون وازع أخلاقى أو ضمير دينى أو خوف من عقاب الله يوم الحساب.. فالإنسان بالضرورة مجبول على العدوان.

***

الترف والشقاء

يمكن الاسترشاد برؤية "جود" عن أثر حياة الترف على طبيعة الأغنياء ، وأثر حياة الشقاء على طبيعة الفقراء.

أولا: ترف الأغنياء:

يخصص الأغنياء الشطر الأكبر من نشاطهم لكسب المال. ويترتب على هذا:

- ان قائمة القيم لديهم تكون خاطئة . ولذا فهم غالبا ما يجهلون أو ينقصون من قيمة الخبرات الحقيقية كالإنتاج والمعرفة والعمل والجمال.
- كما أن ثبوت عادة تدوير المال واحتكار السلطة كغايات نهائية – لديهم– تشكل طبيعتهم بحيث تقلل من فهمهم للجمال . وتزيد انصرافهم عن المعرفة . ولا يحسون برقة وسمو بعض نواحى العلاقات الإنسانية التى تميز البشر عن الحيوانات.

ثانياً: شقاء الفقراء:

يعجز الفقراء بسبب فقرهم عن تذوق الجمال لعدة اعتبارات:

- لأنهم يعملون لفترات طويلة ويستنفذون طاقاتهم وينفقون أرواحهم فى سبيل الحصول على الوسائل التى تجعل حياتهم ممكنة إذ أن أغراضهم فى الحياة تنحصر فى تدبير الوسائل الضرورية للمعيشة من مأكل وملبس ومسكن وعلاج.
- لأن عملهم العضلى المجهد يخصص إلى حد بعيد إلى دوام تشغيل الآلات واستخدامها ، فلا ينجم عن ذلك إلا إغلاق طرق العقل وتضييق أوجه النشاط . مما يجعل اهتمامهم ينصب على طرق عمل هذه الوسائل لا الهدف التى تعمل من أجله.
- لأن استغراقهم فى العمل المجهد طوال اليوم و كل يوم مدى الحياة يقلل من قدرتهم على تقدير العمل الابداعى فى الفنون والآداب.

وهذا معناه أن العمل اليدوي المجهد يحط من كرامه الانسان.

لذلك لم يكن من قبيل المصادفة على الإطلاق أن نرى المترفين من الدعاة والفقهاء والكهان ، الذين لايشيرون من قريب أو من بعيد إلي إستبداد الحكام وفساد رجال الأعمال ، والذين لا يملون الكلام ليل نهار عن ظلمات القبر وعذابات يوم الحساب ، وهم فى حالة فراغ ويتوددون للسلطان ويتعطرون بالمسك ويتطهرون بالمسواك ويتجملون بالرياء ويرتدون أفخم الثياب المزينة بالخيوط المذهبة ويملكون مسابح من حبات الكهرمان ولا يؤدون أي عمل يدوى أو إبداعى أو إنتاجى يحول مواد الطبيعة إلى سلع وخدمات تشبع حاجة الانسان ، ولا يعتكفون أبدا فى الغيطان والمعامل وحقول التجارب ،

ولا يجهدون الذهن فى فهم أساسيات علوم الأحياء والفلك والفيزياء لينظروا عن كثب كيف بدأ الخلق ، وليعرفوا عن علم كيف انفصل القمر عن سطح الأرض، وليعرفوا عن يقين أن كل الكائنات الحية قد انحدرت من أصل واحد ، وإن كتابها الوراثي يتشكل من أربعة حروف (أربعة حروف فقط) هي هي نفسها في خلايا كل كائن وهو ما يبرهن على أن تنوع الخلق على هذا النحو يكشف عن وحدانية الخالق.

فهؤلاء عندما يتكلمون لا يملون الكلام عن روايات وأساطير وحكايات لا توقد ذهن ولا تنتج سلع ولا تحي فى الناس الأمل ، فهم فى سبيل التميز بالمكانة والوجاهة والتأثير والتمتع بالخيرات والتقرب من السلطات يفضلون الكلام على العمل ويزيفون وعى البشر بمقولات ما أنزل اللة بها من سلطان منها أن الفقير له الجنه والغني له النار. وفي نفس الوقت لا يشيرون من قريب أو من بعيد لظلم الحكام. وهو ما يخالف أمره تعالى كما جاء في محكم آيات الكتاب (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) [البقرة: ١٨٧].

وعلى هذا الأساس فإن عزوف هؤلاء عن العمل اليدوي ، يشعر الناس بأن العمل شيء شائن، ويتولد لديهم إحساس قوى بنوع غامض من الدنس يعلق إلى درجة خاصة بالمهن التى تقترن فى ثقافتهم بالعمل اليدوى الخسيس الذي لا يستلزم الكثير من التفكير وذلك بسبب العار الذى يقترن به أداء كل عمل يدوى منتج .

وهذا الشعور السلبى نحو العمل المنتج لم يضعف أبدا بمرور الزمن ، بل هو – على العكس – قد اكتسب مع زيادة الفوارق الاجتماعية قوة الحق البين الذى ورثته البشرية من حكمة قديمة لا جدال فيها.

فالعمل المنتج إذن – كما يستنتج فبلن – هو مجال لصيق الصلة بالفقراء ، والبطالة المظهرية والأنشطة الطفيلية هى مجال لصيق الصلة بالأثرياء .

ولذا ، فإن المفكرين، منذ عهد فلاسفة الإغريق وحتى الآن، يعترفون بأن درجة ما من البطالة والإعفاء من مزاولة أنواع العمل التى تسد احتياجات الحياة اليومية للبشر، تعد من مستلزمات الحياة اللائقة أو الجميلة ، بل والناصعة أيضا . فحياة الفراغ – فى حد ذاتها وفى الآثار التى تنتج عنها – جميلة ومشرفة فى أعين الناس المتحضرين الذين يتميزون بالرقة والذوق السليم .

- لذلك ، يعد العزوف الظاهر عن العمل من أجل الكسب ، هو العلامة التقليدية على المركز المالى الممتاز ، والدليل العرفى على رغد الحياة وعلو المقام.

- وعلى النقيض من ذلك ، يصبح الاشتغال بالأعمال المنتجة غير لائق بالرجل المرموق فى قومه. إذ أن الاضطرار إلى مثل هذا العمل هو من دلائل الفقر والعبودية والعوز وعلامة واضحة من علامات الفشل ودنو الشأن.

والبطالة المظهرية ، التى تدل على الحياة المترفة - على هذا النحو - تقضى استهلاك الوقت فى عمل غير منتج ، أى فى أى عمل لا يبغى الكسب من كد الجسد وعرق اليد . فعند الطبقة المترفة يصير الفراغ أكثر شرفا من العمل المنتج وذلك لسببين :

أولاً: لأنهم يرون أن العمل اليدوي المنتج يوصم بالضعة والتفاهة ودنو الشأن ويعد دليلا علي الفشل والفقر.

ثانياً: لأن حياة الترف ، تعد من دلائل المقدرة المالية ، أى تدل على مقدرة العيش دون أداء أى عمل يقصد منه الكسب . إذ أن المبدأ السائد والدليل الدائم على حسن التربية - فى ثقافة المترفين - أن يستطيعوا قضاء جزء كبير من وقتهم فى غير طائل.

ومثالنا على ذلك.. ان السياسيين والبرلمانيين والمثقفين الانتهازين وفقهاء السلطة المتسترين بالدين. الذين لا يأكلون من عرق اليد. ولا يؤدون أي عمل منتج على الإطلاق، هم من الذين يعيشون عيشة الأثرياء وينعمون بالرخاء ويحتلون المقاعد الأولى في الاحتفالات ويأكلون أطيب الطعام، وذلك ليس مصادفة فبين الثروة والسلطة تنشأ بالضرورة علاقة مصاهرة.

***

دلالة امتلاك الخدم ودلالة امتلاك الرقيق

من المشاهد أن سمو المقام فى ثقافة الترف لم يكن يطلق على الشخص الذي يبلغ درجة من النبل والكمال عن طريق امتلاك الثروة فقط ، ولكن أيضا ، عن طريق استعراض مظاهرها . ويأتي النشاط غير المنتج (أى الفراغ المظهرى) فى مقدمة تلك المظاهر .

والفراغ المظهرى.. يوصف به كل نشاط غير منتج أى كل نشاط طفيلي يراكم الثروات ولا يتولد عنه إنتاج السلع والخدمات. ولذا ، فإن حياة الراحة والترف والرفاهية والفراغ تتطلب من المترف توظيف المزيد من الرقيق والإماء والخدام الذين يستعرضون مظاهر ثرائه وينوبون عنه فى استهلاك النعم والخيرات.

و من المشاهد أيضا أن السيد المترف – شديد الثراء – الذي تفوق قدرته المالية. قدرته بمفرده على استعراض مظاهر ضخامة ثروته عادة ما يلجأ إلى آخرين لمساعدته فى إظهار ثرائه وإبراز سمو مركزه وتفوقه على أقرانه ، أى يلجأ الى من يقومون نيابة عنه باستهلاك السلع والخدمات فى تبذير وسفه وإسراف .

وفى العصور القديمة ، كان للنساء – وغيرهم من الرقيق – قيمة كبيرة ، ليس فقط لما يؤدونه لسيدهم من خدمات ، ولكن أيضا لكونهم مظهراً من مظاهر ثرائه ، أو لكونهم وسيلة من وسائل تراكم رأس ماله. وعموما فقد كانوا هم والماشية ، إذا كانت القبيلة

رعوية، الوسيلة المعتادة لاستثمار المال من أجل جنى الربح وتحقيق الثراء.

ويرى فبلن أن أكثر علاقة إنسانية كانت سائدة -فى مثل هذا النظام- هى علاقة السيد بالمسود والخادم بالمخدوم. وكان الدليل العرفى على الثراء والمعيشة فى فراغ امتلاك العديد من الإماء والخدم و العبيد الذين يقومون على خدمة شخص السيد وإنتاج سلعه. فامتلاك العبيد والخدم والاماء يعد - إذن - أكبر دليل على أن سيدهم يعيش حياة الترف والفراغ.

غير أن فبلن يميز بين دلالة امتلاك الرقيق ودلالة امتلاك الخدم . كما هو متعارف عليه فى ثقافة الترف .

- فامتلاك الرقيق ، الذين يستخدمون فى إنتاج السلع والخدمات ، يشهد لسيدهم بالثراء والجاه والسلطان .
- أما امتلاك الخدم ، الذين لا ينتجون شيئا على الاطلاق ، فيدل - بما يفوق دلالة امتلاك الرقيق - على كبر ثروة سيدهم وعلو مقامة وقوة سلطانه . ولذا. فإن زيادة عدد الخدم يدل على قدرة سيدهم على استهلاك السلع والتمتع بوقت الفراغ بما يزيد عن حاجته بكثير. حيث أن فائدة هؤلاء بالنسبة للثرى المترف واسع الثراء هى أنهم يظهرون قدرته على تحمل خسائر مالية كبيرة دون تعريض ثرائه الفاحش لأى نقصان . إذ أن أهم منافع الخدم

فى ثقافة الترف هى فى دلالتهم على قدرة سيدهم على دفع أجورهم دون أن يعانى أو يختل ميزانه المالى .

ولما كان اقتناء الخدم يعد دليلا على قدرة المخدوم على دفع أجورهم ورواتبهم ، فإن وظيفتهم تتجه باستمرار إلى أن تشتمل على أداء واجبات أقل ، وخدمتهم تتجه فى النهاية إلى أن تصبح اسمية فقط. ويرى فبلن أن هذا صحيح ، على الأخص . فيما يختص بالخدم الذين يقومون بأكثر الأعمال اتصالا بشخص السيد ، حتى أن فائدة هؤلاء تتحور حتى تنحصر إلى درجة كبيرة فى أعفائهم إعفاءا واضحا من كل عمل منتج لما يمثله هذا الإعفاء من دلالة على ضخامة ثروة السيد ورخائه وسمو مقامه وقدرته الكبيرة على الإنفاق مقارنة بأقرانه.

* * *

الترف التبعى .. والترف الأصيل

وتأسيسا على ما سبق... تتميز الطبقة المترفة إلى جماعتين: الأولي طبقة مترفة أصيلة. والثانية طبقة مترفة ثانوية .

* والطبقة المترفة الأصلية : هى الطبقة المترفة الأولية أو الشرعية ذات السيادة (طبقة الملاك) التى يتجلى فراغها من حيث المظهر فى تجنب العمل والتطفل علي غيرها من طبقات المجتمع .

* أما الطبقة المترفة الثانوية : فهي طبقة المساعدين والخدم وما دونهم من العبيد ، وتنحصر وظيفتها فى أداء أعمال ترفية ثانوية

تزيد من قدر ووجاهة الطبقة المترفة الأصلية ذات السيادة . إذ أن فراغ طبقة الخدم المعفين من أداء الأعمال المنتجة هـو - مـن بعض النواحى - أداء لأعمال منوط بهم أداؤها فى خدمة الـسيد وضمان رفاهيته فى الحياة. ففراغ الخدم - إذن - ليس المقصود منه توفير الراحة لهم ، فهو ليس فراغهم الخاص ، ولكنه فـراغ يمضى عادة تحت ستار الخدمة المتخصصة التى تهدف أن تـوفر لسيدهم فرصة التمتع الكامل بنعيم الحياة.

ولذا يجب على الخادم . لكى يقوم بواجباته بمـا تتطلبـه ثقافـة الترف. أن يظهر - لا بمظهر الخضوع فحسب - بل أن يظهر مهارة ورشاقة فى أساليب الخضوع الواضح الفعال كـأن يبتلـع الـشتائم والسباب وينحنى أمام سيده بكل إحترام وهو يسمع الكـلام وربمـا يركع وينبطح أرضا إذا كان قد ارتكب أى خطأ طلبا للغفران. بـل أن تلك المهارة فى إظهار الخضوع هى التى تكسب علاقة تبعية الخادم بالمخدوم معناها المقصود ومظهرها المنشود. وعلاقة الخضوع هذه هى التى يتكون منها حتى يومنا هذا ، أهم عناصر الاسـتفادة مـن الخدم الذين يتناولون أجورا باهظة . كما أنها من أهم ما تتباها بـه الزوجة الراقية فى الحفلات والمهرجانات ومجـالس النميمـة مـع حسادها من قرينات وكريمات رجال الأعمال . وعلي سبيل المثـال , فإن إمتلاك أي أسرة لخادمة فلبينية أو اكثر يعد الأن مـن الـدلائل الواضحة علي الثراء وعلو المقام .

فوظائف الخدم - على هذا النحو - تعد من الأعمـال الترفيهيـة "بالتبعية" التى تؤدى تحت اسم المهام المنزلية . لأن أهم منافع هذه

الوظائف هى فى كونها وسيلة تكسب السيد وأهل منزله اشتهارا بالغنى بين الناس على أساس أن قدرا معينا من الجهد والوقت والنفقات قد ذهب هباءًا فى هذه الوجوه ودون أن يجلب أي منفعة إستعمالية أو يسهم في إنتاج السلع والخدمات.

ومعنى ذلك كله ، أن منفعة الخدم ، كمظهر من مظاهر الثراء تزيد على منفعتهم فى تأدية أى خدمة حقيقية . ولأنهم أيضا يساعدون مخدومهم على إرضاء غروره حيث يهيئون له السبيل لإظهار سطوته وإشهار ثرائه ، كما أن تزايد عددهم لدى المخدوم يعتبر – فى العادة– وسيلة من وسائل ذيوع صيت سيدهم وعلو مقامه قبل أن يكون وسيلة من وسائل راحته وإشباع حاجاته.

* * *

(٢) الاستهلاك الترفى والتبذير السفيه

من المشاهد لكل من يتابع تطور تراكم ثروة رجال السلطة ورجال المال أنه لم يحدث قط أن حصل أي منهم على ثروة طائلة بكفاحه وعمله وعرقه منفردا ، فالعمل يولد دخلاً ولا يكون ثروة . فالثروة الطائلة ، إما أن صاحبها قد حصل عليها بسلب ناتج عمل الشغيلة ، أو باستغلال المجتمع ، أو آلت إليه بصدفة الميلاد ميراثا عن أسلافه من بارونات اللصوص. ومن البديهي أن من يحوزون الثروة مترفون ينعمون بالرخاء ، أما الفقراء فيعيشون فى شقاء .

ومن المفارقات ..

أن المترفين مع أنهم -فى العادة- لصوص وأفاقون ، إلا أنهم الأكثر احتراما وتوقيرا بين الناس. فالثراء هو الأساس الذى يرتكز عليه حسن السمعة وعلو المقام . لان سلطة المال - فى النهاية - أقوى من سلطان المبادئ وقيم الأخلاق .

وسلطة المال فى الحياة عبر عنها الأديب الفرنسى أميل زولا ببالغ الدقة والصواب قائلا: "المال ملك ، المال أغلى من الدم ، المال هو الذى يسجدون لجبروته غير المحدود متناسين ملامات الضمير الإنسانية".

* * *

الأسياد والأتباع

مع أن الثروة تعلى من شأن صاحبها بين الناس ، إلا أن الثرى واسع الثراء لا يصل إلى المراتب العليا من السمو والرفعة إلا باستعراض مظاهر ثرائه ، وإظهار محاسن ثروته ، بإنفاقها في إسراف ودهاء.

ولأن المترفين – عادة – ما يحصلون على الثروة بوسائل عدوانية ، فإنهم يستعرضون سلطانها أيضا بوسائل عدوانية . ومن وسائل استعراض سلطان المال فى المجتمع نشاهد :

* حرص الطبقة المترفة على الحياة فى فراغ مظهرى ، أى تجنب الأعمال المنتجة والتغول فى أنشطة تسقيع الأراضى والمضاربة والسمسرة.
* وحرصها كذلك على تعاطى الاستهلاك المظهرى المنافى للذوق السليم . أى حرصها على استهلاك سلع كمالية مرتفعه الثمن حتى وإن تدنت قيمتها الاستعمالية بدافع إثارة الحسد والغيرة في المجتمع.

وكل من الوسيلتين (الفراغ والاستهلاك المظهرى) متصلة بالأخرى اتصالا وثيقا وتعززها ، فهما معا وجهان لعملة واحدة .. هى .. حياة الترف.إذ تقضى حياة الترف إشتغال أبناء الطبقة المترفة فى وظائف لا ينالها أبناء الطبقة العاملة . فالفقراء لم يكونوا أبدا ندا للأغنياء .

***

وإسترشادا بمقولات ثورشتاين فبلن يمكن أن نميز وظائف الأغنياء عن وظائف الفقراء من وجهة نظر ثقافة الترف على النحو التالي:

* فالوظائف التى هى بحكم الحق من الوظائف الخاصة بالطبقة المترفة ، وظائف نبيلة ، ومنها وظائف السياسة والحكم والصحافة وتجارة السلاح واستيراد السلع وتوظيف الأموال وإدارة البنوك والكلام في الدين بقصد الارتزاق ، والمضاربة في العملة وأراضى البناء ، وما تقوم به الفنانات في الأفراح والأفلام وعلي شاشات الفضائيات من إظهار مفاتن الجسد بغرض استيلاب الخيرات وما إلى غير ذلك من الوظائف والأعمال التى تدخل فى نطاق الوظائف ذات المظهر العدوانى البين التى تخاطب الغرائز لا العقول وتثير الفتن فى المجتمع وتوغر الصدور.
* أما الوظائف التى تعهد إلى الطبقة الكادحة ، فهى وظائف سلمية دنيئة ومن أمثالها ، الأعمال اليدوية والمكتبية والأنشطة التعليمية والبحث العلمي والإبداع الثقافي والأدبي، وغيرها من الأعمال المنتجة ، والخدمات المحتقرة وما إليها من أنشطة الحرفيين والشغيلة المعدمين.

غير أن فبلن ينبهنا إلى بعض الخدمات التى اعتاد الناس على وصمها بالعار قد تصبح عملا مشرفا جدا عندما تؤدى إلى شخص

مترف سامى المكانة رفيع المقام . ومثالنا على ذلك: خادمة الملكة ، أو سايس خيل الملك ، أو القائم على شئون كلابه.

فخادم الملك (أو وصيفة الملكة) ربما يكون أعلى مقاما وأوسع نفوذا من وزير أو رجل أعمال أو رئيس بلدية أو مسئول كبير. فالخدمات ذات الصلة المباشرة بأعمال الفراغ الأساسية من السهل أن تكتسب طابعا مُشرفا فى صالونات الأثرياء والأباطرة والملوك والرؤساء. وبهذه الطريقة قد ينتهى الأمر بوظيفة هى بطبيعتها من أحقر الوظائف ، أن تكتسب – فى نظر الناس – الشرف العظيم والمقام الرفيع ،وهو ما جسدته بوضوح مشاهد وحوارات الفيلم المصرى المتميز "غزل البنات" الذى قام ببطولته " أنور وجدى وليلى مراد " وخاصة ذلك المشهد الدرامى الذى ظهر فيه خادم كلاب الأمير أعلى مرتبة وأكبر قيمة وأعلى أجرا وأرفع مقاما من " الأستاذ حمام" مدرس اللغة العربية البانس الذى أداه باقتدار الممثل الراحل " نجيب الريحانى" .

***

استهلاك الأسياد واستهلاك الأتباع

من المشاهد أن تبعية الخدم والسكرتارية والبودي جاردز للكبراء والأثرياء ورجال المال ، تفيض عليهم بالترف والرخاء. فهم كما يؤدون أنشطة ترفية للترفيه عن أسيادهم يستمتعون هم أيضاً بالفراغ التبعى والاستهلاك المظهرى ، إذ إنهم أيضا يستهلكون سلعا

كمالية ويستمتعون بالاستهلاك التبعى طالما ظلوا فى خدمة أسيادهم. فهم يعملون ويستهلكون بالنيابة عن أسيادهم بغرض مساعدتهم على إظهار تميزهم على منافسيهم وحسادهم أي يكون لهم أيضا في الطيب نصيب عملا بمقولة أن طباخ السم بيذوقه.

ومعنى هذا ، أن الإسراف المظهرى (الأصيل والتبعى)، وتنوع أوجه الفراغ (الاصيل والتبعى) يجلب للمترف المتعة والرفعة وحسن السمعة ، لأن في ذلك دليل على القدرة المالية ، والقدرة المالية تكسب صاحبها آيات الشرف وذيوع الصيت وعلو المقام لأنهما – فى التحليل الأخير– شاهد عيان على التميز والإنجاز والقدرة الفائقة لرجل الأعمال على النجاح في جلب المال.

والسبب الواضح فى انتشار ظاهرة الفراغ الذي يتمتع به أمثال هؤلاء من السكرتارية والمساعدين والخدام ، يرجع الى ما هو موكل اليهم من أعمال . عند توزيع الوظائف الاقتصادية . من أهمها استعراض قدرة سيدهم على الإنفاق.

إذ أن الثرى فاحش الثراء واسع الحيلة عظيم الدهاء ، تفوق عائداته من ريع أمواله قدرته على الاستهلاك مهما بالغ فيه ، ولذا فإنه يصبح فى حاجة إلى من يستهلكون نيابة عنه . ليس بهدف إسعادهم أو إشباع حاجاتهم أو تلبية رغباتهم ، ولكن بهدف إظهار تميزه على أقرانه وحساده ، دون أن يختل ميزانه المالى . وهؤلاء المستهلكون بالتبعية ، الذين يؤدون أعمالا بالنيابة عن أسيادهم.. هم المترفون بالتبعية.

بل وحتي أنشطة البر والإحسان وأعمال الخير الظاهرة للعيان مثل بسط موائد الرحمن في الأماكن العامة، مع أنها توفر إفطارا مجانيـــاً للفقراء في شهر رمضان، إلا أنها في نفس الوقت تعلي مـــن شـــأن صاحبها وتزيد شهرتة بين الناس ، وفي ذلك ترويج أكيد لبـــضاعته في الأسواق ، سواء كان هذا المحسن سياســـياً محترفـــاً مرشـــحاً للانتخابات، أو راقصة شرقية تثير الغرائز بهز الأرداف، أو رجـــل أعمال نصاب يزيف الحقائق ويتاجر في العملات ويـــسقع الأراضـــي ويضارب في الأسواق، أو داعية كثيف اللحية غليظ القلـــب ســـليط اللسان ينشر الخرافة والكراهية ويشعل نار الفتن بين الطوائف فـــي المجتمع. لافرق . فالكل من هذة الزاوية سواء بسواء يعلو مقامـــه ويذاع صيته ويجني من وراء ذلك مكاسب كبيرة وأرباح يسيل لهـــا اللعاب .

وعليـــــــه..

فالفراغ والاستهلاك المظهرى ..إذاً.. همـــا مـــن ســـمات حيـــاة الترف ، ووسيلة من وسائل إظهار قوة رجال السلطة ورجال المال، وسواء كان المترف أصيلا أو كان من الأتباع الذين يستهلكون نيابة عن صاحب المال فإن الغرض من الإستهلاك الترفى في هذه الحالـــة يكون قد تحقق وهو إظهار سمو المكانة وعلو المقام.

ومن مظاهر الاستهلاك الترفى – بالنيابة – ما نشاهده من ازدحام قصور الأثرياء والكبراء وذوى النفوذ بالخدم وأفراد الحاشـــية ومـــا يتحلون به من شارات واكسسوارات وأســـاور وملابـــس رســـمية

Uniform وما يتنعمون به من سكن مريح وما يتمتعون به من هناء المعيشة وطيب الطعام إلى الدرجة التي يحسدهم عليها قاسم السماوى فى كاريكاتير المبدعان أحمد رجب و مصطفي حسين.

ومثل هذا الاستهلاك المظهرى (الأصيل والتبعى) سواء كان تبذيرا فى استهلاك السلع واقتناء التحف أو رفاهية فى الخدمات أو تبديدا للمال – من أجل المحافظة على ذيوع الصيت وحسن السمعة وعلو المقام – كى يؤدى الغرض منه لابد وأن يكون استهلاكا وتبديدا للسلع الكمالية.

فلا قيمة تحاسدية لاستهلاك يقتصر على سلع وخدمات تلبى ضرورات الحياة .

***

الدوافع التحاسدية للإنفاق المظهري

كلما زاد تكدس الثروة لدى الثرى المترف . فاحش الثراء عظيم الدهاء، عجز بمفرده أو بمعاونة خدامه وأعوانه دون مساعدة خارجية عن استعراض مظاهر ثرائه استعراضا كافيا ، لذا، فإنه كثيرا ما يلجأ إلى طلب مساعدة أصدقائه ومعارفه وأقرانه ليستهلكوا نيابة عنه فيقدم لهم الهدايا الثمينة ويقيم لهم الولائم الفاخرة التى تتكلف غاليا سواء كان ذلك بمناسبة أو بدون مناسبة ، ليس بهدف اسعادهم ولكن بغرض اثارة حسدهم . وهو مايفسر نزوع الاثرياء الى المغالاة فى اقامة الولائم الفاخرة ، فأعياد الميلاد وحفلات الزواج وافراح طهور الأبناء ، حفلات شديدة البذخ فى الفنادق المرصعة بالنجوم المذهبة ، تلك التى يدعون اليها أكبر عدد من

الجمهور ويغضبون أشد الغضب إن تقاعس أي من هؤلاء عن الحضور .. ليس بدافع الكرم ولكن بدافع إشعال نار الغيرة وإثارة الحسد في المجتمع، فإثارة حسد الأغيار دافع قوي وراء الاستهلاك الترفى والتبذير السفيه المنافى للذوق السليم. وانك إن أمعنت النظر فسوف تجد أن ذلك هو السلوك المعتاد للمترفين من رجال السلطه ورجال المال وبعض أفراد الطبقة الوسطى الذين يعيشون عيشة الفقراء غير أنهم يحبون الظهور بمظهر الأثرياء..

ويرى فبلن أن الضيف المدعو ، الذى يرمى المضيف إلى عقد المقارنة التحاسدية معه ، لا تكون استضافته فى هذه الحفلات غاية فى حد ذاتها ، أى لا يكون هدفها إسعاده أو إمتاعه أو إشباع حاجاته ، ولكنها تكون وسيلة لغرض فى نفس المضيف .

أولاً: لأن الضيف .. يستهلك فائض السلع نيابة عن المضيف.

ثانيا: لأن الضيف يكون – فى نفس الوقت – شاهدا على استهلاك هذا القدر الزائد من الطيبات التى لا يستطيع المضيف أن يخلص منها بمفرده .

ثالثاً: لأن الضيف تتاح له الفرصة ليشهد إمتياز مضيفه فى التحلي بآداب السلوك ، إذ أن آداب السلوك . وطريقة الحياة الراقية ، عناصر تتفق ومعايير الاستهلاك المظهرى والحياة المترفة وحسن التربية.

فولائم الطبقة المترفة وحفلاتها الترفيهية (التى يقيمها المضيف على شرف ضيوفه) تخدم أيضا غرضا تحاسديا يظهر تفوق المضيف على ضيوفه و أقرانه ومنافسيه وحساده فى الاستهلاك المظهرى ، والتبذير السفيه ، فكلما زاد حسدهم له ونقمتهم عليه إشتهر إسمه

وعلا مقامه وأرتفع شانه وتراكمت أمواله ، فالاسم المشهور يكــون في السوق بمثابة علامة بارزة وماركـــة تجاريـــة مــسجلة تفــتح لصاحبها الأبواب المغلقة.

***

السلع الشعبية والسلع التفاخرية

ومعنى ما تقدم أن الاستهلاك بالنيابة (للخــدم أو للمــساعدين أو للأقران أو للضيوف المنافسين) لا يهدف إلى امتاع المستهلك ، بــل يهدف إلى إشهار المقدرة المالية للمضيف الذي يحــدث لمــصلحته الاستهلاك (فالفائدة في هذه الحالة تعود علي المضيف أكثر مما تعود على الضيف) .

- فعنصر التفاخر .. إذن .. وعنصر الفائدة، لا ينفصل أحدهما عــن الآخر. في تقدير المستهلك لقيمة ما يستهلكه.
- فعنصر الفائدة للسلعة يعبر عن منفعتها الاستعمالية. أما عنــصر التفاخر فيعكس ندرتها أى قيمتها التبادلية.
- وهذان العاملان (التفاخر والفائدة) مجتمعان تتكون منهما المنفعة التى يحققها استهلاك السلع .

ومعنى ذلك .. أن الاستهلاك المظهرى للسلع الكمالية يعد وسيلة من وسائل الشهرة لرجل الأعمال ، فهو يستهلك أى قدر يشاء مــن أطايب الطعام والشراب والنساء والمكيفات والمــسكرات والقــصور واليخوت والسيارات ووسائل الاتصال والخدمات والتحف والأنتيكات

وأدوات الزينة والملابس والسلاح والسياحة والحفلات والمقامرة ولعب الورق ووسائل الترفيه والتعاويذ وتماثيل الآلهة ، وغيرها من المواد التى توفر لشخص مستهلكها مزيدا من الشعور بالسعادة و الراحة والتفوق والهناء . ولما كان استهلاك هذه المواد الممتازة يعد دليلا على الثراء، فإنه يصبح أيضا من علامات الشرف وعلو المقام. وعلى عكس ذلك، فإن أحجام رجل الأعمال عن الاستهلاك بالقدر والكيفية اللائقين بالرجل الشريف عالى الهمة رفيع المقام، يصبح علامة من علامات الضعة والبخل والتفاهة ودنو الشأن ويصير محل سخرية منافسيه وحساده فى ميدان الأعمال وتنبذ زوجته في مجالس النميمة التي تدعي إليها كريمات رجال السلطة ورجال المال.

ودليلنا على صدق ما نقول، هو ارتفاع أسعار الماس واللؤلؤ والياقوت والمرجان، لندرتهم، مع أن فائدتهم الاستعمالية لا تذكر إذ ما قورنت بكسرة خبز أو رشفة شاى تشبع حاجة جوعان، ولذلك، فإن حيازة مثل هذه الجواهر النادرة تكون قاصرة على المترفين والأثرياء، ليس بغرض إشباع حاجة بيولوجية، ولكن بغرض إثارة الحسد وإشعال نار الغيرة فى المجتمع.

***

وما تقدم معناه..

أن قلة تكلفة السلعة ، يؤدى إلى رخصها ووفرتها وشيوع تداولها بين الناس. وهو ما يفقدها عنصر الفخر ، مع أن فائدتها الاستعمالية تظل قائمة. فرخص سعر السلعة وشعبيتها وشيوع استعمالها يؤدى إلى استبعادها من دائرة التفاخر والمقارنة التحاسدية القائمة بين الناس.

ويرى فبلن أن استهلاك – أو حتى رؤية – مثل هذه السلع الرخيصة يقترن دائما – فى ثقافة الترف – بما ينم عن المستويات الأدنى للحياة البشرية ، وكلما تأملها أى مترف مرهف الحس رقيق المشاعر أحس بشعور جارف بالحقارة. بغيض غاية البغض . ومؤلم غاية الألم .

ولو كنت رجل أعمال ، أو مسئول كبير يشار له بالبنان . وأردت أن تتمثل مثل هذا الشعور. سواء على سبيل الدراسة أو على سبيل التسلية والفكاهة . فما عليك إلا أن تدعو نفسك لحضور أحد الأفراح فى الأحياء الشعبية والمناطق العشوائية . التى يختلط فيها الحابل بالنابل ، ويتساكن فيها البشر جنبا إلى جنب مع البهائم ، ويتعايش فيها الفقراء والمعدمون دون إدراك أو وعى لماهم فيه من ضعة ودنو الشأن، وسوف تتوصل فى الحال إلى أن هؤلاء بشر زائدون عن الحاجة ولا يستحقون الحياة وباطن الأرض خير لهم من ظهرها ويحسن التخلص منهم قبل إستفحال شرورهم وسوف تترجم ذلك علي الفور إلى قرارات وقوانين وتشريعات يحزن لها الملائكة ويسعد بها الشيطان.

وعليه ..

فإن الملبس الرخيص يجعل الرجل رخيصاً . والملبس الثمين يرفع من شأن صاحبه.

إذ أن ميل الفرد إلى أن يفضل غيره، قد حول استهلاك السلع من وسيلة للاستمتاع الذاتى وإشباع الحاجات إلى وسيلة من وسائل المقارنة التحاسدية مع الأغيار ، ولذا أضيفت للبضائع الاستهلاكية فائدة أخرى ثانوية ، جعلتها من دلائل ارتفاع القدرة النسبية على الدفع. وهذه الفائدة – غير المباشرة أو الثانوية للبضائع الاستهلاكية – تضفى على الاستهلاك طابعا شرفيا .

ولـــــذا ..

فإن استهلاك البضائع غالية الثمن يوجب احترام مستهلكها، وعلى ذلك فإن علامات غلاء الثمن (الماركة Seniah) فى البضائع ترفع من قدرها وتزيد من سحرها ، أى تزيد فى أهميتها الكبيرة لخدمة الغرض التحاسدى غير المباشر الذى يحققه استهلاكها. فالناس تستقبح وتستهجن استهلاك الأشياء الرخيصة – حتى ولو كانت كافية لإشباع الحاجات الإنسانية– لأن استهلاكها ينم عن الفقر والفقر ينم عن فشل فى النواحى المالية، أما استهلاك السلع الثمينة فينم عن الغنى والغنى ينم عن النجاح فى النواحى المالية، وبمرور الزمن ، صار كل جيل يأخذ عن سابقه هذا التقليد الذى يعتبر التبذير من أمارة ارتفاع أقدار الناس وعلو مقامهم وارتفاع شأنهم فى الحياة.

فالبضائع الثمينة تكسب حائزيها الفخار، أما البضائع الرخيصة فتجلب لصاحبها العار.

***

الرأسمالي محترف لا عصامي

من المشاهد أن رجال الأعمال ورجال المال إعتادوا الترويج لأنفسهم بأنهم عصاميون بنوا أنفسهم بأنفسهم وكونوا ثرواتهم بالجد والإجتهاد ، بالإدخار والأستثمار ، كي يخفوا ظاهرة الأستغلال التي تفضحها نظرية ماركس عن " فائض القيمة " الذي يسلبه الرأسماليون من الشغيلة .

ففى كتابهما "ما هى القيمة الزائدة؟" يفيد الثنائى فيليكس فولكوف وتاتيانا فولكوفا بانه لا وجود البتة لما ينم عن الاعتدال فى الاستهلاك من قبل الرأسماليين. بل يتواجد البذخ الذى لا رادع له . والتبذير السفيه . والاستهلاك الطفيلى المنافى للذوق السليم . اذ يقولان بأن كل نشاط رأسمالى ينطوى على الاستغلال . وأن مصدر ثراء كل رجل أعمال هو سلب فائض قيمة عمل الشغيلة .

سواء كان رجل أعمال منتجا للسلع والخدمات ، أو كان لصاً قبيحا يزيف العملات ويحتكر السلع ويضارب فى الأسواق ويتخصص فى عمليات غسيل الأموال وتسقيع أراضى البناء ويتقن فنون النصب والاحتيال ويتحصن في بلاط الملوك والحكام. والفرق بين الأول والثاني هو أن الأول يستثمر أمواله داخل الوطن بينما الثاني يهرب أمواله خارج البلاد . فالمترفون من رجال السلطة ورجال المال ليسوا إلا شيوخ منصر غير أنهم لصوص مقنعون ويظهرون بوصلة الربان ، ويخفون خطاف القرصان .

ومن الملاحظ لكل مشاهد أن الرأسمالى يقسم القيمة الزائدة الى قسمين :

- أحدهما قسم للاستهلاك يخصصه لتلبية حاجاته.
- والثانى قسم للادخار ويخصصه للتراكم وزيادة رأس المال.

ومن مخصصات القسم الأول (المخصص للاستهلاك) يشترى فى المقام الأول لنفسه ولعائلته ولخاصته وخدمة ومحظياته وسائل العيش الضرورية كذلك ينفق الكثير على شراء سلع البذخ وسائر أصناف التراكم غير المنتج عندما يشترى السيارات الفارهة الطائرات

الخاصة والدور والقصور والتحف وأراضى الصيد البرى، والحلى والمجوهرات، ويخوت التسلية. واستئجار عدد كبير من الخدام، ويقيم حفلات الاستقبال الضخمة والمآدب وشتى الملاهى والتسليات، ويلبى سائر حاجاته الكمالية، وكافة أوجه الإنفاق الطفيلى، إلى جانب تبديد أموال طائلة فى الكباريهات ودور القمار والتواصل مع شتي أنواع النساء ، أموالاً كثيرة تكفى لتجنيب الآلاف والآلاف من الناس ويلات البؤس وقسوة الفقر وعذابات الشقاء.

وبالإضافة إلى ذلك ، يشير الثنائى فيليكس وتاتيانا إلى خطورة البطالة والغلاء على حياة الفقراء. وجور الرأسماليين المستمر على حقوق العمال. بما يؤدى إلى تردى أغذية الكثيرين منهم وأفراد عائلاتهم وذويهم. ويصيب ملايين الناس بالجوع وفقر الدم وسوء التغذية، ويجبر غالبيتهم على العيش فى بيوت متصدعة غير آمنة، خاصة فى البلدان المتخلفة التى تعانى من ظروف مرعبة، حيث يعيش الفقراء فى أكواخ حقيرة، أحياء قذرة، منفرة غاية التنفير، بشعة غاية البشاعة. تتصف بالإجرام والملل الرهيب وفساد البيئة وتردى الحالة الصحية وسوء سلوك الرعية خاصة فى الأحياء الفقيرة والتوسعات العشوائية.

***

الرأسمالية وبعث بروليتاريا السوقة

لأن الشهرة أمل يشتهى والمجد هدف يرتجى نظراً لكونه يجلب ذلك النوع من السعادة الذى يحسه ذو الطموح ، فإن هؤلاء المترفين يسعون – فى حياتهم – إلى طلب الشهرة ونيل المجد وذيوع الصيت وعلو المقام "إذ أن الشهرة –كما يقول جود Joad– تكون مطلوبة لأنها ترضى ما لدى الإنسان من غرور ، فهى تتعلق بما يشعر به المرء من تقدير للذات".

فمن المعتاد أن نرى الناس وهم يشيرون إلى حيث يسير الرجل الشهير ، ويوسعون له فى المجالس ويفسحون له الطريق ، ويدعونه ليترأس الاجتماعات أو يلقى الكلمات أو يقدم الجوائز في الإحتفالات، وعليه تتركز الأنظار في الحضور والإياب، ويحتفون بحضورة فى المياتم والأفراح ، ويكون موضع انتباه أفاضل الناس الذين يدعونه ليتصدر الموائد ويخصونه بأطيب الطعام ويمطرونه بأوراق الزهور وأريج العطور ، ويخصونه بأحلى كلمات الثناء، ويصفونه بالإلهام دون أن يعيروا أى اهتمام لطهارة يده أو مستوي ثقافته أو مشروعية سلطته أو مصدر ثروته، فالنفاق والإنتهازية والتطلع هى من السمات الشائعة المميزة لسلوك المغلوبين على أمرهم من المهمشين والعامة وسواد الأمة.

وفى مجال التفسير كان نيكولو ميكيافيللي قد عبر عن هذه الظاهرة من قبل بقوله:""هؤلاء الذين يتحدثون عن شعوب اليوم علي أنهم ينساقون إلي السرقة، وما شابه ذلك من الرذائل، سوف يجدون

أنهم جميعا كذلك، بسبب حقيقية أن الذين يحكمونهم يتصرفون بطريقة مماثلة" .

* وعن هذا يقول " كارل ماركس" : ليست الأرستقراطية المالية ، فى أسلوب كسبها للمال ، كما فى أوجه استمتاعها به ، سوى بعث بروليتاريا السوقة فى ذرى المجتمع البرجوازى". "وفى ذرى هذا المجتمع انطلقت وسائل إشباع الرغبات المتناهية فى السوء والانحراف ، ودخلت فى كل لحظة فى نزاع مع القوانين البرجوازية نفسها ؛ وذلك لأنه حيث يغدو الاستمتاع نوعا من الفجور، وحيث يختلط الذهب بالوحل والدم، تسعى الثروة النابعة من الميسر بطبيعة الحال إلى وسائل الإشباع".

* وفي نفس السياق يقول " برتراند راسل " فى مقاله "مدح الكسل" أن العمل يتميز إلى نوعين:
- أولهما ... هو العمل الذى يهدف الى تحويل موارد الطبيعة وتغييرها إلى منتجات نافعة للانسان.
- وثانيهما ... هو العمل الذى يهدف إلى إعلام الناس الآخرين بأحداث هذا التغيير.

ويفيد ، بأن النوع الأول .. لا يشيع البهجة فى نفوس العاملين، ولا يعود عليهم بالربح. أما النوع الثانى .. فإنه يشيع البهجة ويحقق لاصحابه من الربح الكثير. ومن هؤلاء من هم متخصصون فى إصدار الأوامر ، كما أن منهم من يقومون بإسداء النصح بشأن الأوامر التى ينبغى إصدارها. وهؤلاء هم السياسيون. والمهارة التى يتطلبها مثل هذا النوع من العمل لا تنحصر فى الإلمام بالموضوعات

التى تسدى النصح بصددها بل باتقان فن الحديث والكتابة لحث الناس واستثارتهم ، أى باتقان فن الإعلان.

وإلى جانب أولئك وهؤلاء (المنتجون والبيروقراط)، توجد طائفة ثالثة من الرجال تحظى منهما بالاحترام ، وهى طائفة ملاك الأراضى والعقارات وحائزي الأسهم والسندات .. وهؤلاء هم الذين يتسنى لهم بحكم ملكيتهم أن يجعلوا الآخرين يدفعون ثمن التفضل بالسماح لهم بالعمل والحياة . وهم بطبيعتهم كسالى خاملون. وكسلهم - لسوء الحظ- ما كان ليتحقق لولا جهد الآخرين وكدحهم. وحقيقة الحال ، أن رغبتهم فى الكسل الحلو والنوم في العسل هو من الناحية التاريخية منبع الإيمان العام بقداسة العمل، غير أن أزل شيء لا توده هذه الطائفة هو أن يحذو الآخرون حذوهم ويستمرءون الكسل ويعتادون التنبلة ويتجنبون العمل: "فبدون عمل العمال بجد واجتهاد ما تراكم رأس المال".

* * *

وعليه ..

فكلما نما رأس المال فى المجتمعات المستقرة، زادت أهمية اقتناء الثروة ، وزادت آثارها كعامل من عوامل الشهرة واكتساب الجاه وممارسة النفوذ وسمو المقام وحسن السمعة ، ولذا ، فقد أصبحت الملكية هى الأساس التقليدى لاكتساب التقدير ونيل الاحترام والهيبة ، ويعد اقتناء قدر كبير من الممتلكات أمرا ضروريا لاكتساب مركز مرموق فى المجتمع ، وصار امتلاك الثروة، هو الأساس العرفى لذيوع صيت المالك ، سواء كان قد اغتصبها من ناتج عمل

الشغيلة أو آلت إليه بالميراث عن أسلافه من بارونات اللصوص أو استولى عليها عن طريق الاحتكار والإغراق والمضاربة فى الأسواق أو عن طريق التقرب من الحكام.

ومن ثم لم تعد الثروة دليلا من دلائل قوة الشخص فقط ، ولكنها أضحت أيضا أساسا للترف وعلامة من علامات التكريم وسمة من سمات الجاه تضفى على مالكها كثيرا من آيات الشرف .

ولأن تاريخ البشر يتوالى فى سلسلة متصلة الحلقات . فإن فبلن يرى أن الدافع السائد إلى الثراء كان منذ البداية ، وظل . هو التحاسد بين الطبقات بسبب التمييز بينهم على أساس التفاوت فى الثراء .

والتحاسد بين الطبقات كان دائما – ومازال – دافعا قويا للعدوان . اذ أن المفاضلة التحاسدية . بين أبناء المجتمع الواحد . هى الباعث على التنافس والعدوان . فكل طبقة اجتماعية تحسد الطبقة التى تعلوها فى السلم الاجتماعى مباشرة . بينما يندر أن تقارن نفسها بالطبقات الأقل منها أو التى تتدنى عنها بكثير. ويرى فبلن أننا إذا استثنينا غريزة البقاء عند الإنسان . فربما كان الميل إلى المنافسة أقوى الدوافع الاقتصادية الحقيقية وأكثرها إلحاحا وصمودا. وخاصة المنافسة فى الاستحواذ على الثروة وما تتطلبه من الاستيلاء على السلطة.

ولأن اقتناء الثروة قد صار فى عرف الجميع أساسا للمكانة الاجتماعية المرموقة وذيوع الصيت وحسن السمعة ، فإن غريزة

العدوان وما يتبعها من إعجاب بالقدرة على الاعتداء قد تأصلت جذورها فى طرائق التفكير لدى الشعوب التى اجتازت مراحل ثقافية عدوانية طويلة الأمد ، وما زالت أعلى مراتب الشرف التى يستطيع الإنسان أن يبلغها - حتى وقتنا الحاضر - هى التى يبلغها المرء باستعراض قدرة عدوانية خارقة فى الصراع الاجتماعى أو قدرات ذات مظهر عدوانى بين فى أمور السياسة . فالثروة والسلطة - إذن - ظلتا على مدار التاريخ شرطين أساسيين لنيل التقدير والتمتع بحياة الترف واكتساب الشهرة وزيوع الصيت فى المجتمع.

***

(٣) الاستهلاك الترفي

ودوره فى الإخلال بنمط تخصيص الموارد

توصم البلدان النامية بتخلف أبنيتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وتعانى من عدة علل هيكلية ، منها:

- جمود الجهاز الإنتاجى.
- وسوء تخصيص الموارد.
- واختلال نمط توزيع الدخل والثروة.
- والاعتماد على السوق الدولية فى إشباع الحاجات الأساسية.
- وتفشي البطالة والارتفاع المستمر فى الأسعار وجموح التضخم.

وعلاوة على ذلك..

فان نمط الاستهلاك Consumption pattern فى هذه البلدان يكون محكوم بدرجة كبيرة بنمط استهلاك طبقتها المترفة. لأنه إذا شاع التضخم واختل توزيع الدخل والثروة. فإن الشرائح الاجتماعية التى يزداد دخلها بفعل التضخم سوف تحدث تغييرا فى بنيان الطلب الكلى لصالح السلع الاستهلاكية الكمالية والترفيهة Superior goods والتى لا تمثل نمطا استهلاكيا محليا Local Consumption pattern ولكنها تمثل نمطاً استهلاكياً مستورداً imported تم نشره فى البيئة المحلية بواسطة أجهزة الدعاية والإعلان ، وسياسات الإغراق ، وانتشار السلوك الاستهلاكى الاستفزازى للشرائح الاجتماعية ذات

الدخول المرتفعة ، تلك الشرائح التى تتبع نمطاً استهلاكياً استفزازياً لا يقدر الإنتاج المحلى على إشباعه.

ومن خلال تكرار الإنتاج الترفى ، وطرح المنتج والمستورد فى الأسواق ، تتسرب أنماط جديدة للاستهلاك من دائرة الصفوة إلى دوائر أكثر اتساعا من السكان ، فيتم بذلك تشكيل أذواق أعداد متزايدة من ذوى النصيب الأدنى من الدخل أبناء الشرائح الاجتماعية الدنيا ، بحيث يتم إشباع رغبات غير أساسية (أى إشباع رغبات wishes لا إشباع حاجات needs). وذلك لأن أثر التقليد والمشاهدة ينعكس على الاختيار بين الإدخار والاستهلاك ، إذ أن ادخار الفرد يتوقف على مستوى دخله الحقيقى ، وكذلك على النسبة بين مستوى دخله والمستويات العليا لدخول الآخرين الذين يرى أنماط إنفاقهم الاستهلاكى من خلال احتكاكه بهم ، أو عن طريق وسائل الدعاية والإعلان، تلك الوسائل التى تسهم بدرجة ملموسة فى تشكيل الأذواق tastes وإذكاء الرغبات seriousness ، فالاستهلاك الترفى لأبناء الطبقات العليا فى حد ذاته يصبح قيمة اجتماعية Social Value يرنوا إليها عموم الناس.

وحسبما يقول الكاتب الصحفى أحمد بهجت: " انه لمن المعروف أن الطبقات الجديدة الغنية تفرض ذوقها فى الحياة كما تفرض قيمها الاجتماعية. ولما كانت هذه الطبقات تفتقر إلى كثير من القيم والمشاعر النبيلة ... فقد فرضوا فنونهم الرديئة وأذواقهم على المجتمع ومن هنا صارت هوية المجتمع مزدوجة .. "فهو من ناحية القيم يخضع لاحترام المال .. وهو من ناحية الآداب والفنون يتعرض لطوفان لا ذوق فيه ولا مشاعرعلى الإطلاق".

وقد قام جيمس دوز نبرى J. Duesnberey وهو يفسر أثر التقليد والمشاهدة على الاستهلاك Demonstration Effect بنقـد التفـسير الكينيزى ، الذى يفترض بأن الإنفاق الاستهلاكى للعـائلات يـرتبط بمستوى دخلهم الجارى ،حيث أكد على أن المستهلكين لا يهتمـون بحجم استهلاكهم بحد ذاته ، بقدر ما يهتمون بمستوى هذا الاستهلاك مقارنا مع مستوى استهلاك الآخـرين (الـدخل النـسبى relative income)، الذين تتاح لهم فرصة الاحتكاك بأنماطهم الاستهلاكية من السلع الترفيهية Superior Goods ، وهو ما يدفعهم إلى أن يزيـدوا إنفاقهم لشراء تلك السلع حتى بدون أن يحدث لدخولهم الراهنـة أى تغيير ، أو لا يقوموا بتخفيض إنفاقهم عندما تنخفض تلك الـدخول ، وهو ما يوصف فى النظرية الاقتصادية بانتقال دالـة الطلـب علـى السلع والخدمات لسبب من خارج النموذج (نموذج الدخل/الإنفاق).

وقد اشار راجنار نيركسه إلى أن انتشار وسائل الاتصال ، وتوسع قنوات التجارة على مستوى العالم ترتب عليه تغيير العادات والأنماط الاستهلاكية فى البلدان النامية. وخاصة ، اذا ما اتحد أثر التقليد بأثر التفاخر والمباهاة لتصبح المنفعة التى يحصل عليها المستهلك مـن تلك السلع راجعة بدرجة أساسية الى قدرتها علـى تـسييل لعـاب المستهلكين أكثر من قدرتها على تعظيم إشباعهم ، وهو ما يـؤدى إلى تشويه الأنماط الاستهلاكية وزيـادة الاسـتهلاك علـى حـساب الادخار، ويخلق مشاكل عدم كفايـة الإدخـار Inadequate Saving ويفاقم المديونية ويضاعف من عجز موازين المدفوعات Balance of payments Deficits.

***

وفى مجال التفسير أيضا، كان ثورشتاين فبلن قد نوه إلى الدور الرئيسى الذى تلعبه طبقة الأثرياء فى نشر نمط الاستهلاك المظهرى بين عامة الناس، واشار إلى أنه ليس صحيحاً القول بأن الفرد مستهلك رشيد ، مستقل برغباته عن الآخرين ، بل الصحيح هو أن الفرد كائن اجتماعى يتأثر بمن حوله ، ويحاول تقليدهم ويتطلع إلى مجاراتهم، ومن ثم فإن استهلاكه يتوقف على استهلاك الآخرين. فالأذواق تتشكل والحاجات تتنوع فى إطار البيئة الاقتصادية والاجتماعية ، بتأثير الضغوط والظروف المحيطة والرغبة فى المسايرة والتقليد.

وفى ظل تحرير الاقتصاد ، ومع جمود الجهاز الإنتاجى فى البلاد النامية ، فإن الطلب المتأثر بهذا النمط الاستهلاكى الترفى ، سوف يتم إشباعه عن طريق استيراد السلع النهائية بدرجة كبيرة. وعموما ، فإن الاستجابة لتلبية هذا الطلب ، سواء باستيراد السلع النهائية أو الوسيطة، سوف يترتب عليها تسريب الدخل من دائرة التشغيل ، والإنتاج القومى ، ليعاد تعبئته ، ويتم ضخه فى السوق الدولية. وعلى هذا الاساس ، ونظرا لارتفاع الميل للاستيراد ، كإحدى الخصائص المميزة للبلدان المتخلفة ، فإن جزءاً كبيرا من أثر المضاعف فى هذه البلدان سوف يتسرب إلى الخارج ، أى أن دورة الدخل فى مثل هذه الظروف سوف يكون لها أثر إيجابى فى السوق الدولية وأثر سلبى فى السوق الوطنية.

وباتساع الهوه ، بين النمط الاستهلاكى المستورد وبين القدرة الذاتية للاقتصاد على إشباعه ، سوف يختل تخصيص الموارد، ويزداد الاعتماد على التمويل بالعجز من القطاع الخارجى.

فإذا ما تحققت تلك الفروض ، وهى غالبا ما تتحقق ، فإن هذا النمط الاستهلاكى المختل ، من خلال تأثيره على بنيان الطلب ، سوف يصبح أحد الوسائل الهامة للربط بين السوق الداخلية والسوق الخارجية.

* * *

وتشير القواعد الاقتصادية إلى أن التغير فى بنيان العرض يأتى كمتغير تابع للتغيرات التى تحدث فى بنيان الطلب.

* وبنيان العرض ، يتشكل طبقا للنمط السائد لاستخدام الموارد ، وهو النمط الذى فى ظله يسعى المنتجون الى تدنية تكاليفهم وتعظيم أرباحهم.
* أما بنيان الطلب ، فيتشكل طبقا لهيكل توزيع الدخل القومى من ناحية وبالنمط السائد لاستهلاك السلع والخدمات من ناحية أخرى، وهو النمط الذى فى ظله يسعى المستهلكون الى تدنية نفقاتهم وتعظيم إشباعهم.

ودور جهاز الأسعار فى هذه الحالة هو المواءمة بين نمط الاستهلاك وهيكل توزيع الدخل من جانب ، ونمط استخدام الموارد من الجانب الآخر.

فإذا أصبح بنيان الطلب مختلاً ، فإن جهاز الأسعار الطليق ، سوف يعيد تشكيل نمط تخصيص الموارد كي يتلاءم معه ، أي يصبح مختلاً هو الآخر ، وذلك نظراً إلى أن المؤشرات السعرية الصحيحة في هذه الحالة سوف تعيد تخصيص الموارد عن طريق الاستهلاك ، والاستثمار ، والاستيراد ، لتلبية طلب القوى الاجتماعية القادرة على الشراء والدفع ، بدلاً من تلبية الحاجات الأساسية للقوى الاجتماعية التي تنخفض قدرتها الشرائية كلما اتجه المستوى العام للاسعار نحو الارتفاع.

وعلى سبيل الإيضاح..

إذا كانت الكمية المطلوبة من مجموعة سلعية معينة أكبر من الكمية المعروضة منها ، عند مستوى الأسعار السائد ، فإن فائض الطلب في هذه الحالة سوف يزاول تأثيره على الأسعار فيدفعها تلقائيا نحو الارتفاع. فإذا كان طلب ذوي الدخول المتغيرة على هذه المجموعة السلعية غير مرن ، في حين كان طلاب ذوي الدخول الثابتة عليها يتسم بالمرونة ، فإن تلك الزيادة السعرية ، سوف تتكفل تلقائياً بالاستبعاد التدريجي Elimination لذوي الدخول الثابتة من دائرة استهلاك تلك السلع ، كما تتكفل تلقائياً وفي نفس الوقت ، بجذب مزيد من الموارد لتلبية طلب هؤلاء الراغبين في الشراء القادرين على الدفع.

ونظراً ، إلى أن الموارد الاقتصادية تتسم بالندرة ، فإن توجيه هذه الموارد نحو نشاط اقتصادي معين ، يؤدي في نفس الوقت ، إلى

سحبها من الأنشطة الاقتصادية الأخرى. أى أن جهاز الأسعار الطليق، فى هذه الحالة، سوف يعيد تشكيل نمط استخدام الموارد طبقاً لمعايير الكفاءة الاقتصادية (تعظيم الأرباح) . دون النظر لمعيار العدالة الاجتماعية (إشباع الحاجات).

وتخصيص الموارد ، على هذا النحو يتعارض مع معيار الكفاءة الاقتصادية الذى تعتمده مدرسة اقتصاديات الرفاهة Welfare Economic والذى يعتبر باريتو أحد روادها البارزين. حيث يشير معيار باريتو فى تخصيص الموارد ، إلى أن موارد مجتمع ما تكون قد وزعت بكفاءة إذا كان تغير هذا التوزيع يؤدى إلى أن يصبح بعض أفراد المجتمع فى وضع أسوأ عما كانوا عليه قبل التغيير.

وهذه النتيجة ، تثبت صحتها إذا ما ثبتت صحة الفرضية الأساسية التى قامت عليها ، وهى الفرضية التى مؤداها أن بنيان الطلب سوف يزداد اختلالا . إذا ما تم تطبيق سياسات تحرير الاقتصاد ودمجه فى السوق العالمية ، وهذا الاختلال سوف يصبح أكثر احتمالا . إذا ما ثبتت صحة ثلاث فرضيات أخرى من المتوقع تحققها فى حالة تطبيق تلك السياسات ، وهى: شيوع التضخم ، واختلال هيكل توزيع الدخل ، واختلال نمط استهلاك السلع والخدمات لصالح الطبقة المترفة على حساب الطبقات الفقيرة والمعدمة.

***

(٤) المترفون محافظون ومقاومون للتغيير

يعد الفراغ والاستهلاك المظهرى وسيلتين من وسائل التباهى وإظهار الترف ، وذيوع الصيت ، وحدود كل منهما فى تحقيق ذلك الغرض تكمن فى عنصر الإسراف التبديدى الذى يشتركان فيه :

- فالأول (الفراغ) يظهر تبديدا فى الوقت والجهد .
- والثانى (الاستهلاك المظهرى) يظهر تبذيرا فى إنفاق المال .

والدافع الأساسى . لهذه الحاجة القصوى لإظهار التبذير واشهار الاسراف علي العموم . لا يخرج آخر الأمر عن كونه رغبة فى إظهار النفوذ واستعراض المركز المالى والإعلان عنه بقوة واثارة الغيرة و إشعال نار الحسد فى قلوب المنافسين و الخصوم.

* * *

التطور الحضارى وأثره على مظاهر الترف

ومع أن كليهما (الاستهلاك والفراغ) يعد وسيلة من وسائل استعراض الثراء . إلا أن أهمية كل منهما في المباهاة وإثارة الحسد تختلف باختلاف طبيعة المجتمع كما قال من قبل ثورشتاين فبلن فى كتابه " نظرية الطبقه المترفة".

* ففى المجتمعات البشرية الأولى التى كانت قائمة على عمل العبيد والتى كان الناس فيها يفرقون بين العمل الشريف (عمل السادة) والعمل الحقير (عمل العبيد) ، كانت أعمال الفراغ تحتل المكان

الأول، وكان لها مركزها – كوسيلة من وسائل الشهرة – يعلو كثيرا على مركز الاستهلاك التبديدى للسلع.

* **أما فى المجتمعات الصغيرة المتماسكة ، التى تتأثر أساسا بزيوع الصيت ، فإن إحدى الوسيلتين لا تقل أثرا عن الأخرى فى التأثير على الأشخاص المستهدفين ، وذلك لأنه فى مثل هذه المجتمعات ، تكون البيئة الإنسانية الاجتماعية التى يريد الفرد أن يوائم نفسه معها تقع فى دائرة معارفه الشخصيين ودائرة الثرثرة التى يتناقلها الجيران وفى جلسات النميمة التى يشغلون بها أنفسهم لتبديد الملل وقتل الفراغ.**

* أما فى المجتمعات المتطورة ، التى يبلغ التميز فيها بين الطبقات مرحلة أعلى، يكون من الضرورى أن يذاع صيت المرء فى بيئة إنسانية أوسع ، ليبدأ الاستهلاك المظهرى فى التفوق على الفراغ كوسيلة عادية من وسائل نيل حسن السمعة وعلو المقام . وبمرور الزمن يثبت الاستهلاك المظهرى أقدامه حتى يمثل المكانة الأولى بغير منازع .

وبصفة عامة..

فإنه لمن الواضح أن التقدم المضطرد وتحديث المجتمعات يتجه إلى زيادة أهمية الاستهلاك المظهرى – على الفراغ– كمظهر من مظاهر الوجاهة الاجتماعية . ومن المتوقع – بعد ذلك – أن تتضاءل

أهمية الفراغ تدريجيا وتسير إلى الزوال كلما زاد عدد أفراد المجتمع وسار التقدم الاقتصادى إلى الأمام.

ولأن الطبقة المترفة ، تتميز على سائر طبقات المجتمع ، بأنها تحظى بثروة مفرطة ، وتعمل بأنشطة غير منتجة ، وتستهلك سلعا كمالية تفاخرية سواء بالأصالة عن نفسها أو بالنيابة عن غيرها ، فإنها لكل ذلك ، تسعى للحفاظ على امتيازاتها ، وتستخدم كافة الوسائل بما فيها الدولة والمؤسسات المدنية للمحافظة على بقاء الأحوال على ما هى عليه دون تحول أو تغيير ، فهى .. إذن .. طبقة محافظة بالطبيعة.

ومن المسلم به كذلك أن قوانين الوجاهة الاجتماعية ومقتضياتها ، التى تسير عليها الطبقة الراقية ، وهى مقتضيات كثيرة جدا وملزمة جدا لدرجة أن الفائض الذى يمكن الاستغناء عنه من مواد الاستهلاك، بعد سد الحاجات المادية الضرورية للبقاء كثيرا ما يذهب لأغراض استعراض الوجاهة ، بدلا من أن يذهب لأغراض زيادة الراحة والاستمتاع بمباهج الحياة . وهو ما يدعم الاتجاه العام للمجتمع نحو المحافظة على الأوضاع القائمة .

***

ميل المترفين إلي المحافظة على القديم ومقاومة التغيير

وهذه الظاهرة .. أى ظاهرة محافظة الطبقة المترفة ومقاومتها للتغيير ، يفسرها يونج بأن الأغنياء يميلون إلى الالتزام بالمنظور العام وبالأساليب التى جلبت النجاح فى الماضى ، فهم يصبحون أكثر وثوقاً بالطرق التى أثبتت كفاءتها فى أدائهم للعمل ، وبالتالى فهم لا يميلون إلى التفكير فى تبنى أى بدائل جديدة.

ويضيف قائلاً ، أن العامل الإشكالى بالنسبة لهؤلاء هو أن هناك مجالاً على الدوام – داخل الطريق الحالى المتبع– من أجل التحسين والتطوير، أيا كانت درجة هامشيته. ويتمثل الدافع لدى هؤلاء –الذين صاروا ميالين أكثر لطرائق بعينها ومتقنين لها– فى أن يقوموا بالتحسين داخل الإطار المختار . بدلاً من تجربة طريق مختلف بدرجة كبيرة قد لا يكون تبلور تماما، أو قد لا يبرع المرء فيه.

ويتوصل يونج فى نهاية تحليله "إلى أنه بالنظر إلى الطريقة التى يفكر بها العقل الإنسانى ، فإن الأغنياء (أو الناجحين) هم أقل ميلاً من الفقراء للمغامرة والسير بعيداً عن الدروب المطروقة والسبل المعتادة.

لذلك ..

فإن دور الطبقة المترفة فى التطور الاجتماعى ، هو إبطاء خطاه والمحافظة على القديم المعروف والتخوف من الجديد غير المنظور.

وهذا الرأى كان – وما زال – شائعا لدى الرأى العام ، الذى يعتقد بأن الطبقة المترفة محافظة بطبيعتها وتتسم بالجمود.

ومحافظة الطبقة المترفة ورجعيتها وتمسكها بالقديم ، يعلل لسبب نفعى يجعل هذه الطبقة الغنية . تعارض كل تجديد لأن لها مصلحة خفية من نوع تافه فى الاحتفاظ بالظروف الراهنة ، وتفضيلها بقاء الحال على ما هو عليه دون تغيير.

فهذه الطبقة تعارض أى تغيير فى النظام الاقتصادى معارضة غريزية تنشأ عن كراهية فطرية لأى تحول عن الأسلوب الاعتيادى فى أداء الأشياء أو النظر إليها . فكل تغيير فى طرق الحياة والتفكير أمر غير مستساغ. ومحافظة الطبقة الغنية ومقاومتها للتغيير هى من المظاهر الواضحة إلى الحد الذى جعلها تعتبر حتى من علامات احترام الأسلاف . إتباعا للقول المأثور "من فات قديمه تاه".

ولأن الطبقة الراقية تمثل القسم الأكثر احتراما وشرفا فى المجتمع، فإن سمة المحافظة على القديم التى تتميز بها . قد اكتسبت بدورها ما يجعلها من علامات الزينة والشرف. وعلى العكس من ذلك ، فإن التجديد يعد من الأمور المستهجنة " ففى كل جديد بدعة وكل بدعة مجرمة".

فالأثرياء ذووا الثراء الفاحش – محافظون بالطبيعة – لأن الرخاء الذى يتنعمون به والخير الذى يعيشون فيه يجعلهم آمنين من ضغط الأحوال الاقتصادية ، ويقطع عليهم أى فرصة للتذمر من الأوضاع

كما هى عليه الآن ، ولذا فإنهم يتمسكون بالقيم القديمة ويقـاومون التغيير حتي لو كان مجرد خطوة واحدة إلي الأمام.

وسلوك الطبقة المترفة الثرية المحافظة على هذا النحو ، له تأثير سلبى على تحديث وتطور المجتمعات. لأن مقامها الرفيع يجعل مـن أعمالها وآرائها وعاداتها بمثابة القانون السلوكى لسائر الطبقـات ، وهو ما يعطى أفكارها وأنماط سلوكها قوة ويعزز إنتشارها ويفرض على جميع الأشخاص المحترمين فى المجتمع أن يتبعوا خطاها وأن يهتدوا بهديها ويسيروا على دربها.

وتأثير طبقة الأثرياء –على تأخير خطى التطور الاجتماعى– بحكم مركزها الممتاز كممثلة للآداب العامة والسلوك الراقي، يزيد كثيـرا على مجرد ما تهيئه لها قوتها العددية من أثر . إذ أن احتذاء مثلها الذى أصبح بمثابة العرف الموروث والسلوك المنشود– يؤدى إلـى زيادة تشديد مقاومة الطبقات الأخرى لأى تجديد ، كما يعزز تركيـز ميول الناس على المحافظة على الأوضاع القديمة التى يتوارثونهـا من جيل إلى جيل.

وعليـــه..

فالطبقة المسيطرة ، حينما تنتـصر فـي الـصراع الاقتـصادي والاجتماعي والسياسي تتحول إلى طبقة حاكمة، وهـو مـا حـدث بالنسبة للإقطاعيين والرأسماليين حسبما يقول ماركس، ومن ثم تبدأ في ممارسة أدوار جديدة من بينها معارضة ومقاومة أي تغيير مـن

شأنه الحد من سيطرتها وتقليص نفوذها بحيث تتحول من قوي تقدمية إلي جبهة رجعية تحافظ على القديم.

***

والفقراء المعدمون ، هم محافظون بالطبيعة . مثلهم فى ذلك مثل الأثرياء المترفين ، فالفقراء ، أيضا ، يعوقون التطور الاجتماعى. غير أن دوافعهم لذلك تختلف عن دوافع الأغنياء .

فأفراد الطبقات المعدمة الذين يتعرضون بدرجة قاسية الى الضغوط الاقتصادية والاجتماعية محافظون إلى درجة كبيرة . اذ أن الجوع والمتاعب الجسمية التى يعانون منها، لا تقل أثرا عن حياة الرخاء التى يتمتع بها الاثرياء فى إبطاء عمليات التغيير الاجتماعى. فهؤلاء الذين يعانون من العوز و الفقر الشديد . وجميع الناس الذين يستنفذون كل جهدهم فى الصراع من أجل البقاء . لا يتوفر لديهم فانض من الطاقة يكفى لتكييف أوضاعهم مع المتغيرات الاجتماعية الطارئة واستيعاب الآراء العلمية الحديثة . ولذا فإنهم محافظون بالطبيعة. لأنهم لا يستطيعون بذل جهد فى التفكير فيما بشر به الغد من ضرورات التغيير.

وما تقدم معناه ..

أن نظام الطبقة المترفة يعمل على جعل الطبقات الدنيا محافظة ، عن طريق سلبهم كل ما يمكن سلبه من ضرورات الحياة ، وبالتالى ينحصر استهلاكهم ، ويقل ما يستطيعون بذله من الجهد لاكتساب

المعرفه تبعا لذلك ، إلى حد يجعلهم عاجزين عن بذل الجهد لمعرفة وتبنى طرائق تفكير جديدة واعتناقها.

فتراكم الثروة عند الطرف الأعلى من السلم الثرائى (الأغنياء) ، يعنى حرمانا عند الطرف الأدنى منه (الفقراء) . ومن ثم فإن درجة كبيرة من الحرمان بين الجماهير ، حيثما كانت ، هى خطر شديد على أى تجديد . وقديما قال الحكماء أن المصريين لا يثورون إلا فى سنوات الرخاء.

***

وخلاصة القول...

أن فبلن يرى أن نظام الطبقة المترفة يعوق التطور الثقافى بطريقة مباشرة وغير مباشرة :

- أولا : بسبب القصور الذاتى المعروف عن الطبقة ذاتها .
- ثانيا : وبسبب المثل الذى تضربه للناس فى الاستهلاك السفية ومقاومة التغيير وفى المحافظة على القديم.
- ثالثا: وبسبب ذلك العرف الشائع الظاهر فى عدم المساواة فى توزيع الثروة وموارد العيش وهو العرف الذى يقوم عليه النظام الراسمالى ذاته.

بالإضافة إلي ذلك فإن الطبقة المترفة لها أيضا مصلحة مادية فى ترك كل شىء على ما هو عليه . فهذه الطبقة تتمتع مهما كانت الظروف السائدة فى أى وقت معين – بمركز ممتاز – يهدده كل خروج على النظام القائم . ولهذا ، نجد أن ميول هذه الطبقة ، من

حيث دوافع مصلحتها الطبقية دون سواها ، هى ترك الأوضاع القائمة وشأنها دون تغيير.

ومن هنا كان هناك اتجاه مستمر ، من جانب أبناء الطبقة المترفة ، لتوجيه التطور فى النظم وجهة تتفق مع الأهداف المالية التى تشكل مجمل حياتهم الاقتصادية والاجتماعية. ولذا ، فانهم عادة ما يلوذون بسلطة الدولة ويوظفون أجهزتها ويوجهون مؤسساتها لتكريس الأوضاع السائدة والمحافظة عليها دون تغيير.

ومن المشاهد أن المتكلمين باسم الطبقة المترفة المحافظة . يرون أن التجديد الاجتماعى والتجريب خليقان بأن يدفعا المجتمع دفعا سريعا إلى أوضاع غير مستقرة وغير امنة ولا تطاق . والمطالبة بالتجديد لا يمكن أن يكون له نتيجة سوى التذمر وردود الانفعال التى تأتى فى أعقابها الكوارث والنكبات.

ويمكن إجمال اتجاه هؤلاء بالمثل القائل " كل ما هو موجود صحيح " وهو ما يتعارض مع قانون الانتخاب الطبيعى لداروين عندما نطبقه على النظم الانسانية القائل " كل ما هو موجود قابل للتغيير" .

* * *

الفصل الخامس

الأشــــرار والأخيـــار

أنصار الأغنياء .. وأنصار الفقراء

الفصل الخامس

الأشـــــرار والأخيـــار

أنصار الأغنياء .. وأنصار الفقراء

يتبين لمن يتتبع مسار التطور التاريخى للفكر الاقتصادى أن هـذا الفكر قد أتى دائما متغيرا تابعا لطريقة الإنتاج السائدة فى المجتمع ، وأنه يولد ، فى كل حقبة تاريخية، وينمو، مستندا إلى ثلاث ركـائز أساسية: وهى النظريــة الاقتـصادية ، والـسياسة الاقتـصادية ، والمذهب الاقتصادي:

* والنظرية الاقتصادية ، تختص بالكشف عن القوانين الموضوعية التى تحكم العلاقات والظواهر الاقتصادية ، وتحديد اتجاه ومـدى تأثير المتغيرات التى تعكسها تلك القوانين على الظـاهرة محـل البحث .
* فى حين تختص السياسة الاقتصادية ، بتقديم الوسـائل والأدوات التى يمكن استخدامها للتأثير فى مسار تلك الظواهر .
* أما المذهب الاقتصادى ، فيحدد اتجاه رواد المدارس الاقتصادية . بقبول أو رفض النظم الاجتماعية التى تتولد عنها تلك الظواهر . وموقف الرواد على هذا النحـو لا يبنـى فقـط علـى رؤيـتهم

الاقتصادية المجردة بل يبنى أيضا على انتمائهم الطبقى وتفضيلهم الاجتماعى .

ولأنه من طبيعة المنهج العلمى ربط النتائج بالأسباب ، فإن النظرية العلمية مهمتها الكشف عن الأسباب التى تقف وراء حدوث وتطور الظواهر والأحداث، أما السياسة فمهمتها التأثير فى هذه الأسباب كى تأخذ الظواهر اتجاهاً مرغوباً ، أما المذهب فهو الذى يحكم مسار كل من النظرية والسياسة.

- فالنظرية مهمتها التفسير.
- والسياسة مهمتها التغيير.
- أما المذهب فهو الأساس الأخلاقي والتفضيلي الذي يستند إليه الباحث عند قبول أو رفض النظريات والسياسات وما يترتب عليها من نتائج وآثار .

وفى كل مجتمع تسعى السياسة الاقتصادية إلى تحقيق أهداف أساسية ونتائج مرغوبة . تختلف مضامينها كما تختلف أهمية كل منها بالنسبة للآخر باختلاف المجتمع الذى يجرى فيه تطبيق تلك السياسات، وهى:

- الاستقرار الاقتصادى : ويتحقق إذا ما تحققت العمالة الكاملة دون تضخم .
- والنمو الاقتصادى : ويتحقق إذا ما ارتفع الدخل القومى الحقيقـــى بمعدل أكبر من معدل نمو السكان .
- والعدالة الاجتماعية : وتتحقق إذا ما تم توزيع هذا الـــدخل بـــين القوى الاجتماعية المشتركة فى توليده توزيعا عادلاً.

وعلى هذا الأساس، تنشأ بين النظريـــة الاقتـــصادية والـــسياسة الاقتصادية والمذهب الاقتصادى علاقات وثيقة الـــصلة . فالـــسياسة الاقتصادية، تصبح بدون النظرية والتحليـــل ضـــربا مـــن التخـــبط العشوائى الذى قد يصيب مرة ولكنه يخيـــب بالـــضرورة مـــرات . فالنظرية والتحليل . هما اللذان يمدان صانعى السياسة الاقتـــصادية بوصف عام لعلاقات السببية القائمة فى الاقتصاد، وبالتالى . بمنهج لتقييم النتائج التى ستترتب على مختلف القرارات التـــى يتخـــذونها والأعمال التى يقومون بها .

ومع أن النظرية الاقتصادية مهمتها تفسير الواقع إلا أنها لا تمكننا بأية حال من الحكم عليه من الناحية الأخلاقية ، فهذا الحكـــم يكـــون من مهمة المذهب الاقتصادى ،. فحكمنا على الواقع أو تقديرنا لـــه نستمده من ميولنا وقيمنا ونوازعنا ورغباتنا ,, حسبما يقول د.جلال أمين فى كتابه "فلسفة علم الاقتصاد".

واستطراداً لذلك ، فإنه يمكن القول بأن المذهب الاقتصادى ، بما ينطوى عليه من تفضيل لنظام اجتماعى دون آخر ، لا يتحدد فقط من خلال التأثير المجرد لحركة المتغيرات الاقتصادية على فكر الرواد ، وإنما يتحدد أيضا ، طبقا للمعطيات الأيديولوجية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية القائمة فى المجتمع، والتى تشكل البيئة الطبيعية للتفاعل بين هذه المرتكزات.

وعن هذه الظاهرة ، يشير المفكر المصرى المتميز " السيد يس" إلى أن الممارسة الفعلية للعلم الاجتماعى فى بلاد غربية متعددة أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن أهواء الباحث ونزعاته أو بعبارة أدق أيديولوجيته ، غالبا ما كانت تؤثر على طريقته فى وضع المشكلة والمناهج التى استخدمها فى دراسته ، ووسائل جمع البيانات ونوعية عيناته وأخيرا طريقته فى تحليل البيانات وتفسيرها. أى أنه يشكك بذلك فى إمكانية الحياد الموضوعى الكامل للباحث الاجتماعى . ويستشهد على ذلك بمقولة مردال "الموضوعية : هى أن تعلن ذاتيتك منذ البداية" .

والمحصلة .. أنه لا حياد ولا موضوعية فى البحوث الاجتماعية حتى وإن تحلى الباحثون بوشاح العلماء وتوصلوا إلى نتائجهم عن طريق الملاحظة والمشاهدة والتجربة لوقائع الحياة.. ففى جميع الحالات سيظل هناك قدر من التحيز لا يمكن تجنبه يشوب النتائج

المتحصلة ، لأنه فى مثل هذه الظروف تكون ذات الباحث وموضوع بحثه متداخلين فى ذهنه .

ومن ثم ، فإن التحليل الاقتصادى ، والسياسة الاقتصادية ، يظلان فى النهاية ، رغم زعم الحياد العلمى والموضوعية ، محددين بحدود الإطار المذهبى للباحث الاقتصادى ، سواء تحقق ذلك بوعى منه أو بدون ذلك .

وعلى سبيل المثال..

فإننا فى هذا الكتاب منحازون للعمال ومعادون لرجال الأعمال ، وذلك لأن الجماعة الأولى لا تملك غير قوة العمل بينما الجماعة الثانية تملك رأس المال. ومن المشاهد لكل ذى بصيرة وله عينان أن رأس المال يُروى بعرق الشغيلة ودماء العمال . ولذا فإن قوة العمل تذوى بمرور الزمن بينما رأس المال يتراكم باستمرار. فرأس المال يتراكم فى جميع الأحوال بتراكم فائض القيمة الذى يسلبه رجال الأعمال من المجتمع أومن الشغيلة. وعموما فإن عداوتنا لرجال الأعمال ليست حقيقة موضوعية وإنما هي إختيار أخلاقي وتقدير ذاتى للباحث ناتج عن مشاهداته الحسية وإدراكاته العقلية، كما أنه رد فعل لسلوكهم الاستفزازي وأساليبهم العدوانية فى سلب الأموال . فغاياتهم النهائية- مهما تجملوا – هي توليد الأرباح ونهب الثروات دون الالتزام بقيم الفضيلة أو التحلى بمكارم الأخلاق.. فالمترف فى

رؤيتنا عدوانى الطباع حتى لو كان من حجاج بيت الله الحرام أو من الذين يبسطون موائد الرحمن في شهر رمضان .

ومن المثير للاهتمام أن الدوافع وراء رؤيتنا هذه من الصعب ثبر غورها أو الوصول إلى جذورها، فقد تكون راجعة إلى حقد طبقي دفين لا يدركه البلاحث، فجذور الدوافع كامنة في خلايا الجسد وفي الغرائز، وفي الآثار المترتبة عن الطموحات المحبطة والتجارب الفاشلة المترسبة في عقله الباطن ، وفي الانفعالات وفى الرغبات غير المشبعه والتي لم يعبر عنها الباحث من قبل بفعل ميكانزمات الكبت. فالإنسان، أى إنسان ،مهما أوتيا من العلم ، يصعب عليه إدراك دوافع سلوكه أو تصرفاته حتى وأن دعى الحكمة. فالكشف عن دوافع سلوك اى انسانفى حاجة الى جماعة من اخصائيو النفس وعلماء الاجتماع .

ومن ثم ، فإن التحليل الاقتصادى ، والسياسة الاقتصادية ، يظلان فى النهاية ، رغم زعم الحياد العلمى والموضوعية ، محددين بحدود الإطار المذهبى للباحث وتفضيله الأخلاقى ، سواء تحقق ذلك بوعى منه أو بدون ذلك.

***

ومن المشاهد أن النمو الرأسمالى فى مجمله تصاعدى الاتجاه، غير أنه يعانى من دورات اقتصاديه تتراوح بين الركود والرواج ،

وفى حالة الرواج يعانى من ازمه تضخم وفى حالة الركود يعانى من أزمة كساد.

وفي ظل ظروف نمو الإحتكار, وإشتداد شوكة نقابات العمال، تفقد الأسعار والأجور مرونتها ، فيتزامن التضخم مع الركود ، وتستفحل أزمة رأس المال ، وتصاب اليد الخفية بالشلل الرعاش .

وهذة الأزمات كانت محل اهتمام علماء الاقتصاد. وقـد اختلـف هؤلاء حول تفسيرها وحول السياسات الكفيلة بحلها تبعا لاخـتلاف مصالحهم ومذاهبهم وانتماءاتهم الفكرية.

وقد تبلورت رؤي هؤلاء فى تيارين رئيسيين: هما تيـار اليمـين الرجعى. وتيار اليسار الثورى.

* والتيار الأول: يرى أن حـل الازمـة يتطلـب تنـشيط العـرض (الانتاج).

* أما التيار الثانى: فيري أن حل الأزمة يتطلـب تنـشيط الطلـب (الاستهلاك).

وتنشيط العرض الكلى يعنى تحفيز رجال الاعمال ، أمـا تنـشيط الطلب الكلى فيعنى تحفيز العمال . والتيار الاول يتجه نحو (الليبرالية المتوحشة) ، والتيار الثانى يتجه نحو (الماركسية المتشددة). وكـل من التيارين يواجه الآخر وهما فى حالة عداء صريح الـى درجـه تكسير العظام.

* والليبرالية، هى مفهوم شامل لمجمل التيار الرئيسى فى الفكـر الرأسـمالى ، بتجلياتـه العلميـة والـسياسية والاقتـصادية والاجتماعية منذ عصر النهضة حتى اليوم، مفهوم شامل لتطور الطبيعة ، والمجتمع ، والوعى .

* والحرية المطلقة، هى جوهر الليبراليـة بوجهيهـا : الحريـة الاقتصادية، والحرية السياسية، ولا تستقيم مسيرتها باحـداهما دون الآخرى.

- ففى مجال الاقتصاد ، تؤمن بالحرية المطلقة لقوى الـسوق Self-Regulation.

- وفى مجال السياسة ، تؤمن بالحرية المطلقـة لإرادة الفـرد Self-Determination .

ويرى ميلتون فريدمان . أن ثمة علاقة طردية تنشأ بين الحرية الاقتصادية والحرية السياسية". إذ أن الليبرالية، ليست فقط دعوة إلى الحرية، ولكنها بالدرجة الأولى دعوة إلى الفرديـة واحتـرام حقوق الإنسان ، والاعتراف باستقلاله وضمان حريته دون تدخل أو إزعاج. وهى بهذا المعنى – كما يرى الدكتور حازم الببلاوى– تتجاوز الديمقراطية السياسية وتنشد تمتع الفرد بحقوق إنسانية، لا يجوز المساس بها مثل حرمة الأرواح، والأعراض ، والأموال.

* والليبرالية الاقتصادية Laisset Faire ، هى المذهب الفكرى ، الذى تبناه التقليديون بكافة فصائلهم ، ومثل أحد الأجنحة التى حلقت بها الرأسمالية عاليا عبر حقبة طويلة من الزمن ، والجناح الآخر هو الكينزية، بكل تنويعاتها من التيارات الإصلاحية والاجتماعة، وهى حل وسط تاريخى بين الليبرالية والماركسية، غير انها تأخذ بمبدأ تشريك الطلب ، بينما الماركسية تأخذ بمبدأ تشريك الإنتاج وتسعى للقضاء على الرأسمالية.

* أما الماركسية ، فكانت صياد الرأسمالية العنيد ، وحفار قبورها الذى سعى إلى وأدها حية ، وابتغى تشييعها إلى مثواها الأخير . فلما هرم، وأصابه الخرف ، وتهاوى من الضعف والوهن ، حلقت نسور الرأسمالية الجارحة فى سماء العالم من جديد .

وهذا المآل المأساوى للماركسية وصفه جالبريث(٥) قائلا : " أن الشبح الذى أثار قلق الرأسمالية وأرعد فرائصها وحرمها راحة البال لسنوات طويلة – وهو الاشتراكية بكل ألوان طيفها – قد عاد إلى عالمه السفلى واختفى" .

وكان من أهم النتائج التى ترتبت على إختفاء الاشتراكية هى توحش الليبرالية ، بعد ما صارت ليبرالية عابرة للقارات والدول والقوميات ، فالعولمة قد أجبرت الجميع على الانصياع لرغبات أصحاب رءووس الأموال ، وهى فتح جميع الأسواق أمام فيضان

السلع والخدمات والعملات والأسهم والسندات بحيث أصبح العالم كله قرية واحدة تحكمها الشركات الاحتكارية العملاقة التى تجنى الأرباح وتنهب الثروات دون الالتزام بقيم الفضيلة أو التحلى بمكارم الأخلاق.

* * *

وعليه..

فإن الليبرالية والماركسية تمثلان مذهبان طرفيان ، وكل منهما يشكل رأس حربة لجماعتين متعارضتين من رواد الفكر الاقتصادى..

- إذ أن رواد التيار الأول (الليبرالى) من أنصار الأغنياء ويؤمنون بحرية المشروع الخاص ويرفعون الراية الخضراء.
- وأن رواد التيار الثانى (الماركسى) من أنصار الفقراء ويؤمنون بتدخل الدولة فى الاقتصاد ويرفعون الراية الحمراء.

وفيما بين هاتين الرايتين تتقارب أو تتباعد باقى ألوان الطيف الاقتصادى والاجتماعى والسياسى . ومن واقع قراءاتنا فى أدبيات الفكر الاقتصادى أمكننا تمييز الاقتصاديين إلى جماعتين إحداهما متحيزة للأغنياء والثانية متحيزة إلى الفقراء *.

* * *

(*) راجع كتابنا "الطريق الثالث".

(١) فلاسفة وعلماء .. أنصار الأغنياء

لم يكن التيار الليبرالى ، يوما، نسيجا متجانسا تماما . فهو مزيج من أفكار ورؤى تتفاوت بين الشدة والاعتدال . فى التعبير عن رفضها لتدخل الدولة فى الاقتصاد. والتراث الكلاسيكى ، يموج بمثل هذه الأفكار التى تظهر، فى محيط النشاط الاقتصادى ، وتتوارى ، تبعا للتغيرات التى تحدث فى الواقع الاقتصادى ، والاجتماعى، والمادى ، وتباينه فى الزمان والمكان .

وفى هذا ..

يقول المفكر المصرى المبدع الدكتور جلال أحمد أمين فى كتابه "فلسفة علم الاقتصاد" : "اقترن قيام الثورة الصناعية بظهور علم الاقتصاد . وكان من الطبيعى أن يتخذ الاقتصاديون الأوائل موقفا من قضية الفقر والغنى . أى ينحازوا لجانب دون آخر. وقد اختار رواد هذا العلم من البداية ، الانحياز إلى جانب مالكى الثروة ، من ملاك الأراضى الزراعية أولا . كما فى حالة مدرسة الطبيعيين، ثم إلى أصحاب المصانع والراسمالية كما فى حالة آدم سميث وبقية الاقتصاديين التقليديين ، ثم إلى أصحاب المشروعات الإنتاجية من أى صنف : زراعية أو صناعية أو تجارية ، وسواء كان المنتج سلعة أم خدمة ، كما فى حالة اقتصاديى المدرسة التقليدية الحديثة وحتى الآن".

والقضايا الأساسية ، التى كانت وما زالت محور الاتفاق والاختلاف، هى قضايا تحديد الأسعار ، والأجور ، والرعاية الاجتماعية. والقضية الأولى، من اختصاص نظرية القيمة ، والقضية الثانية ، من اختصاص نظرية التوزيع ، والقضية الثالثة ، من اختصاص الطريق الثالث.

وفيما يلى نستعرض رؤية رواد التيار الأول ، التيار الليبرالى المتوحش ، حول قضايا التوزيع والرعاية الاجتماعية تلك التى نبلورها فى مقولات : القانون الحديدى للأجور ، ورذيلة الإفراط فى الإنجاب ، ومذهب المنفعة العامة ، والدراونية الاجتماعية . ومشروعية عدم التكافؤ، وحق التميز ، والكمال الكلاسيكى. وتفضيل البطالة ، ومشروعية إبادة الضعفاء ، والحياد العلمى وخيانة الفقراء.

وفى نهاية المطاف ، سوف نتوصل عن وعى وفهم وإدراك بعد قراءتنا لهذا الجزء من الكتاب أن هؤلاء العلماء قد اختاروا بإرادتهم الحرة أن يلعبوا دور محامى الشيطان.

***

القانون الحديدى للأجور

تقوم هذه الرؤية ، على أن القوانين الطبيعية تعبر عن علاقة ضرورية بين الظواهر لا يمكن تجاوزها . وقانون توزيع الدخل ، إلى حصص بين العناصر المشتركة فى توليده ، يأتى ضمن هذه القوانين الطبيعية . فحصص الريع ، والفائدة ، والربح، والأجور ، تخضع لقانون طبيعى يحدد مقدار كل منها ، لذلك ، فلا ينتظر أى جدوى من محاولة تعديلها .والقانون الحديدى للأجور ، هو أحد هذه القوانين.

والأجر الحديدى ، هو السعر الطبيعى للعمل ، أى سعر التوازن الذى تميل الأجور لتستقر عنده إذا بقيت الأمور الأخرى على ما هى عليه.

إذ يرى ريكاردو أن الأجور شأنها شأن الأسعار يجب أن تترك للمنافسة الحرة فى الأسواق . ولا ينبغى أبدا أن يحكمها تدخل التشريع. وهنا يخلص الكلاسيك . إلى نتيجة هامة مفادها أن الأجر لا يتحدد بالمساومات أو المفاوضات بين العمال وأصحاب العمل ، إذ أنه محكوم فقط بقانون طبيعى ليس فى وسع العمال وأصحاب الأعمال مخالفة أحكامه أو الفكاك منها. وهو ما أطلق عليه القانون الحديدى للأجور بما يوحى بأن العمال مقيدون به ، وليس فى

استطاعتهم البتة تحسين أحوالهم أو الارتفاع بمستواهم المعيشى إلى أبعد مما يقضى به هذا القانون .

وهذا معناه ..

أن البؤس ، هو المصير الحتمى لمن يعيشون فى ظل الرأسمالية، وأنه لا جدوى من أى عمل تصحيحى ، بل إن القيام بأى إجراء تصحيحى أو إبداء أى تعاطف إنسانى مع هؤلاء سوف يزيد الأمور سوءا . ومن رواد هذه المدرسة وليام بيتى (١٦٢٣-١٦٨٧) .

* * *

رذيلة الإفراط فى الإنجاب

هذه المقولة ، تفسر ظهور حالة الفقر ، والبؤس ، والعوز التى تعيش فيها الطبقات العمالية الكادحة ، بسيطرة الدافع الإنجابى على الطبقات الشعبية التى تعتبر الأبناء هم زينة الحياة وعزوة الفقراء.

وهو ما يسبب التزايد المستمر فى أعداد جيش العمال الاحتياطى، وما يترتب على ذلك من تناقص العائد الحدى لعنصر العمل عندما يضاف مزيد من العمال إلى الجهاز الإنتاجى . فهم يرجعون حالة الفقر والبؤس والعوز التى تصيب الكافة إلى السلوك الإنجابى غير المسئول للأمهات اللاتى يملأن بطونهن بالأجنة ، ويخرجوهن إلى الحياة دون روية ، ويقذفن إلى سوق العمل أفواجا متلاحقة من الأيدى العاملة التى تطرق أبواب الرزق بلا مجيب.

ومن ثم ، فإن معاناة هؤلاء هى قدرهم ومن صنع أيـديهم ، لـذا وجب ترك أمرهم إلى الطبيعة التـى تتـولى تـصفيتهم بقوانينهـا الصارمة. وآنئذ يصبح باطن الأرض خيرا لهم من ظهرها. وأعمـدة رواد هذا الاتجاه هم: روبـرت مـالتس Tomas Robert Malthus (١٧٦٦-١٨٣٤) ، وجـون اسـتيوارت مـل John Stuart Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٣) ، وجاريت هردين G. Hardin ، وجان باتـست ساى G.P.Say (١٧٦٧-١٨٣٢) ، وغيرهم كثير.

غير أن مالتس كان أكبر شهرة وينسب إليه تعبير ظاهرة الانفجار السكانى. وملخص فكرته ، أن السكان يتزايدون بمتواليـة هندسـية بتأثير الدافع الإنجابى ، وهذه الزيادة محكومة بوفرة الغـذاء الـذى يتزايـد بمتواليـة حـسابية ويخـضع لقـانون الغلـة المتناقـصة Diminishing Returns ، وتحقيق التوازن بـين هـذين المعـدلين (معدل نمو السكان ومعدل نمو الغذاء) . يتم بفعـل مـا تجـود بـه الطبيعة من موانع إيجابية Positive Checks تشتمل على الأمراض، والكوارث ، والحروب، والمجاعات ، التى تخفض من معدل الزيـادة السكانية، وتحقق استئصال جزء من السكان . وإذا ما حدث تـدخل من الدولة، أو من أى جهة خيرية لتحسين أحوال الفقراء ، فسرعان ما تتزايد الفجوة من جديد بين المعدلين (معدل نمو السكان ومعـدل نمو الغذاء) محدثة كوارث جديدة تعود بالسكان إلى حالـة التـوازن

ثانية . ومن ثم ، فإن ملخص فكرتــه ، هــو أن الفقــر مــسئولية الفقراء ، وليس مسئولية الأغنياء .

لذا يقول مالتس : " أن السبب الرئيسى للفقر الدائم ، لا صلة لــه بطريقة الحكم وبسوء توزيع الملكية . فليس فى وسع الأغنياء تأمين العمل والغذاء للفقراء . وليس للفقراء الحق فى مطــالبتهم بالعمــل والغذاء . وبناءا علي ذلك اقترح إلغاء قوانين إغاثة الفقــراء حتــى يمنع من تكاثرهم " .

وهنا ، يحذرنا مالتس أيضا ، من أنه إذا حاولــت الدولــة أو أى فاعل خير الإحسان إلي الفقراء بتوفير الدعم وتقــديم الغــذاء فــإن غريزتهم المنفلتة نحو الإنجاب ، وطبيعتهم البشرية البوهيمية سوف تعود بهم سريعا إلى حالتهم السابقة .

إذ أن هذا "الإحسان" –من وجهة نظره – هــو ســلوك ظــاهره الرحمة وباطنة العذاب ، فالدعم لابد أن يؤدى إلى زيادة جديدة فــى حجم السكان ، ومن ثم إلى تخفيض مستوى المعيشة مــن جديــد. وبذلك، يكون مالتس –مع أنه كان من القساوسة المــشهورين فــى زمنه– قد تبنى أيديولوجية تعادى الأعمال الخيرية، التى تقوم بهــا الدولة أو يقوم بها الأفراد ، ووفر بذلك مبررا أخلاقيا وغطاءا فكريا للأثرياء البخلاء المقترين الممتنعين عن مد يــد العــون للبؤســاء المهمشين.

ولذلك ، فإن مالتس يعد واحدا من الاقتصاديين الأشـــرار الـــذين سعوا لإلقاء مسئولية الفقر على الفقراء أنفسهم لا على الأثريـــاء ، وهو ما وفر للأثرياء الطمأنينة وراحة البال ، رغم ما يقترفونه من جرائم و آثام.

* * *

مذهب المنفعة العامة

يقوم مذهب المنفعة العامة Utilitarianism على أن المعيار العام الذى ينبغى أن تجرى وفقا له قواعد السلوك العملى . هو مدى مـــا تولده هذه القواعد من سعادة للجنس البشرى . عملا بشعار "تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من السكان" . وهذا المـــذهب رغـــم بريقه إلا أنه يتضمن نقيضين هما : اعتبارات المنفعة . واعتبـــارات العدل.

* اعتبارات المنفعة : تتبلور هذه الاعتبارات أولا فى تمجيد ما تتمتع به السلع من منافع اســـتعمالية. وثانيـــا ، تمجيـــد المـــشروعات الخاصة، باعتبارها أكفأ من المشروعات العامة فى إنتاج الـــسلع والخدمات ، وأكثر منها قدرة علـــى تـــوفير وســـائل المعيـــشة ، وتحقيق الإشباع للناس ، لـــذا وجـــب حمايتهـــا مـــن التـــدخلات الاجتماعية والمؤسسية والتشريعية ، مهما ترتب على ذلك مـــن تنامى البطالة وتفشى البؤس لأقلية شقية من بين أغلبية سعيدة .

* اعتبارات العدل : تتبلور هذه الاعتبارات فى التسليم بأن قـوانين العدل هى قوانين الطبيعة ، فالعدل هو الفضيلة الأولى ، لذا وجب على المؤسـسات الاجتماعيـة وسـائر الإجـراءات التـشريعية والسياسية أن تكون متسقة مع ما تقضى به مبادئ العـدل . وأن أولى المجالات التى يجب أن ينصرف إليها العـدل هـو توزيـع الطيبات Primary Goods التى تصبوا إليها نفس الإنـسان بمـا تشتمل عليه من مال ، وجاه ، وحرية . وفرص . واحترام الذات Self-Esteem ، فالعدل إذن هـو غيـاب للتعـسف Justice As Fairness .

غير أن عمل آليات السوق الرأسمالى يكشف عن وجود تعـارض بين اعتبارات المنفعة واعتبارات العـدل . فعنـدما يـسود معيـار المنفعة . يختل معيار العدل .

وفى سبيل تبرير هذا الاختلال . يدعى رواد هذا المذهب بان حالة البؤس والفاقة . هى التضحية التى تتحملها الأقلية من أجل إسـعاد الأغلبية . فالعبرة هنا بالأثر الكلـى للمنفعـة الاجتماعيـة Social Benefit والرفاهية العامة General Welfare . وهو أثر مزدوج بما يتضمنه ذلك من تعظيم الإنتاج الكلى ، وتعظـيم المنفعـة الكليـة ، وتحقيق السعادة الاجتماعية Social Happiness فالإنتاج هو وسيلة تحقيق السعادة، والمنفعة هى غايتها النهائية.

أى أن هذا المذهب ، يسمح بقهر البعض ، بحجة "أن هذا هو ما تفرضه اعتبارات المنفعة العامة " .

ورائد هذا المذهب بلا جدال ؛ هو جيرمى بنتام Jermy Bentham (١٧٤٨-١٨٣٢). وهو ما حدا بماركس Marx ليسخر منه ويصفه "بكاهن الثقافة البرجوازية التافه المأفون ، المتحزلق ، متجلد اللسان".

***

الدراونية الاجتماعية..

تتبلور هذه الرؤية ، فى تطبيق قواعد الدراونية الطبيعية على الحياة الاجتماعية انطلاقا من أنه توجد أوجه تشابه بين الكائنات الاجتماعية والعضوية حيث أن كلا منها يمتلك القدرة على النمو . وأن المسار التطورى للعالم الطبيعى قد جاء بنموذج واضح للسلوك الإنسانى . فعملية الانتخاب الطبيعى تعمل وفقا لقاعدة البقاء للأصلح . فالطبيعة تتخلص بكل قسوة من الضعفاء ، وتحتفى بكل ترحاب بالأقوياء ، وكل ميسر لما خلق له " وذلك لأن البقاء للأقوى وأن الضحية تستحق مصيرها" . وهذه القاعدة أزلية وأبدية، تسرى فى المجتمع كما تسرى فى الطبيعة سواء بسواء ويستحيل إبطال مفعولها وإن طال الزمن .

وقد رأى سبنسر[١] أن ذلك يحدث تعبيرا عن الإرادة الإلهية إذ : "أن الله أراد أن يكون الكبار كبارا والصغار صغارا" . وفى هذا السياق كتب مالتس إلى جراهام (١٨٨١) يقول : " قريبا ستقوم الأجناس ذات المستوى الحضارى المتفوق باستعباد الأجناس الدنيا" ويتفق معه فى الرؤية جول فيرى "... أيها السادة يجب علينا أن نتحدث بصوت أعلى وبحقيقة أكبر . يجب القول بدون مواربة أنه فى حقيقة الأمر أن الجنس المتفوق له حق السيادة على الأجناس الأدنى ".

* فالضعفاء، والفقراء ، والعاطلون عن العمل يعجزون عن ملاحقة التطور ، بل ويعجزون عن توفير أسباب الحياة ، فهم يعيشون عالة على المجتمع ، ويتطفلون على فضلاته ، وهم لذلك لن يعمروا طويلا، فسرعان ما ينقرضون غير مأسوف عليهم . وأن أية محاولة لمساعدتهم ، تنطوى على ضرر بالغ بهم وبالمجتمع . إذ انهم سوف يستمرئون الكسل، ويعتادون التنبلة ، ويتخلفون عن اللحاق بركب الحضارة والتقدم . ولأنهم يورثون صفاتهم الرديئة لأحفادهم فإن الجنس البشرى يتدهور بسببهم ويزداد ضعفا فى مواجهة الطبيعة ، ومن ثم ، فإن الرفق بهم فى هذه الحالة يضرهم ولا ينفعهم ولا يساعدهم على التكيف ، لذا وجب تركهم لمصيرهم المحتوم الذى اختاروه هم لأنفسهم، فالأعمال الخيرية من هذا القبيل تبطل عمل قوانين الطبيعة .

* أما الأثرياء ، والأذكياء ، والأقوياء المتفوقون بيولوجيا على غيرهم فقد انتخبتهم الطبيعة لإصلاح المجتمع ، وريادة التطور والنمو ، فهم أهل لما هم فيه من رفاهية ورخاء ، وأن حظهم الطيب فى الحياة كان مكافأة ربانية لطاقاتهم المبدعة وحافزا لمبادراتهم الخلاقة . وهؤلاء ، يكون فى مقدورهم نقل صفاتهم المتميزة إلى ذريتهم من بعدهم ، فيتطور الجنس البشرى بسببهم ويزداد قوة ومنعة فى مواجهة قوي الطبيعة الغاشمة .

وفى سياق ذلك ، ظهرت أفكار غاية فى الخطورة ، مثل ضرورة حماية الدولة للأغنياء من ثورة الفقراء وللمترفين من ثورة الجياع. فالأغنياء غير مكلفين بمد يد المعونة للفقراء أو المساهمة فى تحسين احوالهم ، لأن الفقراء غير مؤهلين عنصريا أو عقليا للحياة العصرية. وعلى المجتمع أن يعمل على ردعهم وإبعادهم عن دائرة حياة الأغنياء. ورائد الدروانية الاجتماعية هو هربرت سبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣) وتلميذه جرهام سومنز (١٨٤٠ - ١٩١٠).

وهؤلاء مروجوا نظرية الدراونية الاجتماعية والمستفيدين منها من رجال المال الأعمال يصفهم بورتر صاحب كتاب الحياة الكريمة The Good Life ، بأنهم شيوخ المنسر Robbers Barons ، أى كبار اللصوص ، اللذين يبررون سلوكهم الاستغلالى بدعوى جدارتهم

الاجتماعية التى ورثوها عن أسلافهم المبـدعين والتـى يورثونهـا بدورهم لأحفادهم المحظوظين.

***

مشروعية عدم التكافـؤ

تستند هذه الرؤية ، إلى أن الموهبة والذكاء صفات فطرية حبـت بها الطبيعة أناسا دون غيرهم . ومن الطبيعى أن يمتازوا عنهم فـى الأداء، ويتميزون عليهم فى الثروة . فهؤلاء حظهم الثراء ، وأولئك قدرهم الفقر. فالثروة قرين الذكاء والتطور ، والفاقة قرين التخلـف والغباء . فعدم المساواة فى القدرات ، يوازيه عدم المـساواة فـى الثراء . وتلك شريعة سادت فى كل العصور . وستظل سـارية فـى المستقبل المنظور.

وهذه الرؤية ، لها أساس دينى عند البوريتانيين المتشددين فـى العصور الوسطى (١٦٢٤-١٦٤٦) " إذ كان الفقر لا الغنـى . فـى نظرهم هو الخطيئة ، لأنه ينم عن الافتقار إلـى الخلـق الشخـصى الكريم وإلى الجحود بنعمة الله "

ورائد إضفاء المشروعية على عدم التكافؤ فى توزيع الدخل هـو ويلفريد باريتو (١٨٤٨-١٩٢٣) فنظريته فى توزيع الدخل يلخصها جالبريث على النحو التالى : أنه فى جميع البلـدان ، وفـى جميـع الأوقات ، فإن الدخل يوزع بالطريقة نفسها تقريبا . فالمنحنى الـذى

يبين الحصص التى يحصل عليها الأغنياء والفقراء ، ظل من الناحية الأساسية دون تغير فكلما غدت الثروة كبيرة كلما صغر عدد الـذين يمتلكونها .إن هذا التوزيع بعيد جدا عن المساواة، لكنه يعكس فـى رأيه توزيع الكفاءة والموهبة فى النظام الاجتماعى ، ومن ثم يستحق الثروة قليلون عند مقارنتهم بالجموع التى تستحق الفقر ، لأن مـن هم جديرون بالثروات الضخمة قليلون للغاية فى الحقيقة وهـو مـا يسمى بقانون عدم المساواة فى توزيع الـدخل Inequality Of The Distribution Of Wealth الذى سمى فيمـا بعـد قـانون بـاريتو .Pareto's Low

وفى محاولة لتفسير ذلك . صك كالدور قوله المأثور لتحديد سمة النظرية الرأسمالية " الرأسماليون يربحون مما ينفقـون ، والعمـال ينفقون مما يربحون " .

* * *

حـق التميـز

عند التعرض لبعض مـشاكل الاقتـصاد الاجتمـاعى ، وعدالـة التوزيع، تبنى البعض مبدأ المساواة فى الشروط ، وعدم المـساواة فى المراكز .

* والأولى ، مساواة قانونية تستند إلى حق تكافؤ الفرص بين البشر بالميلاد. فهى مساواة بمعنى تكافؤ الفرص التى تهيئ لكل الناس

بداية متكافئة فى السباق – وليست المساواة التى تئد السباق أو على الأقل التى تمسك عن إثابة الفائز .

* والثانية ، مساواة فعلية تستند إلى حق البعض فى التميز ، بامتلاك الثروة، نظرا لتميزهم على غيرهم فى الطاقات والقدرات .

أى أن المساواة الاجتماعية فى هذه الحالة ، هى مساواة عند نقطة البداية وليس عند خط النهاية ، فهى مثل ما هو عليه الحال فى سباق المارثون ، إذ يقف المتسابقون على قدم المساواة Equal Opportunity عند خط بداية السباق ، اما الوصول إلى خط النهاية فيتوقف على قدرات كل منهم كما هو الحال فى المساواة فى فرص التعلم . إذ أن إتاحة الفرص المتكافئة للالتحاق Equality Of Access لا يعنى إتاحة الفرص المتكافئة للنجاح Non Equality Of Success. ورائد هذه الرؤية هو ليون فالراس (١٨٣٤-١٩١٠) .

* * *

الكمال الكلاسيكى

يرى بعض الاقتصاديين ، أن محاولة إشباع الحاجات الأساسية للسكان عن طريق تدخل الدولة بشكل أو بآخر فى النشاط الاقتصادى، يعد خطوة لا رجعة فيها نحو الابتعاد عن الأرثوذكسية

الكلاسيكية ، والانحدار نحو الاشتراكية ، وهو ما يتعارض بصورة حتمية مع الحرية .

وهم يبررون موقفهم هذا ، بأن تنوع الحاجات البشرية ، وتعقيدات هيكل رأس المال ، ووفرة الأيدى العاملة ، تجعل هدف إشباع الحاجات –عن طريق الدولة– أمرا مستحيلا من الناحية النظرية والعملية.

وهم يرون بالإضافة إلى ذلك أن دفع تعويضات البطالة ، وصرف المعاشات التقاعدية للشيخوخة ، ومساعدات الفقراء لن يدعم النظام الرأسمالى، بل إنه سوف يؤدى حتما إلى تدميره وإحلال النظام الاشتراكى محله . وبناء عليه ، ومن وجهة نظرهم ، ليس هناك حل وسط بشأن الكمال الكلاسيكى .

وخلاصة القول ، أن الأرثوذكسية الكلاسيكية ، ترى أنه ليس ثمة أساس اقتصادى قوى لتحويل الدخل (الثروة) من الأغنياء للفقراء، وهو ما وفر مبررا أخلاقيا وفكريا يدافع به رجال الأعمال عن عدائهم لكافة تدابير الرفاهية ،التى تتضمن إعادة توزيع الدخل لصالح الفقراء.

ومن أبرز رواد هذا الاتجاه ، لوفيك فون ميسيس (١٨٨٠-١٩٧٣)، وفريدريك فون هايك الاقتصادى الأمريكى (١٨٩٩) وآرثر م . شلزنجر.

تفضيـــل البطالـــة

لم يتخلف الفكر النقدى المعاصر عن الفكر الليبرالى المتـــوحش، فى رفض سياسة دولة الرفاهية ، إذ يعتقـــد النقـــديون ، أن كفـــاح نقابات العمال لرفع الحد الأدنى للأجور ، وتزايد مخصصات إعانـــات البطالة التى تمنحها حكومات البلـــدان الـــصناعية، جعلـــت العمـــال العاطلين عن العمل غير عابئين بالبحث عن فرص عمل بديلة ، وهو ما يشجبه فريدمان مدللا على أن "العامل المتعطـــل عـــن العمـــل ، والمقيد الآن على برامج الرعاية الاجتماعية ، يتـــردد فـــى الوقـــت الحاضر فى الحصول على وظيفة ما ، حتى ولو كان مرتبهـــا يزيـــد على ما يتقاضاه من برنامج الرعاية الاجتماعية، لأنه فى حالة فقدانه لهذه الوظيفة قد يمر بعض الوقت حتى يعاد قيده مرة أخـــرى فـــى سجلات الرعاية الاجتماعية " ولهذا ، يدين النقديون الآثار الـــسلبية التى أحدثتها هذه البرامج مثل : تقوية اتجاه العمـــال نحـــو التبطـــل وتعطيل قوانين السوق . وينادون بإلغائها حتى تعود الحيوية لسوق العمل . أى أنهم ينظرون إلى البطالة الحاصلة فى البلدان الـــصناعية الرأسمالية ، على أنها من نـــوع البطالـــة الاختياريـــة Voluntary Unemployment ، وليست مـــن النـــوع الإجبـــارى Obligatory Unemployment لأن العمال فى رأيهم يفضلون البقاء عاطلين ، ما داموا يحـــصلون علـــى إعانـــات البطالـــة ، ويتمتعـــون بالـــضمان

الاجتماعى. ولهذا ، فإن سياساتهم تعمل على كف يد الدولة عن تقديم برامج للرعاية الاجتماعية . ورائد هذه الرؤية هو ميلتون فريدمان الاقتصادى الأمريكى المعاصر ومن خلفه كتيبة رواد مدرسة شيكاجو ومن هؤلاء أيضاً جورج جيلدر الذى أعلن تحيزه للأثرياء فى مؤلفه "الثروة والفقر" . وسار على دربهم أيضاً جون ميجور رئيس الوزراء الإنجليزى الأسبق قائلا: " إن البرامج الاجتماعية تعرقل القدرة التنافسية " .

***

مشروعية إبادة الضعفاء

فى مرحلة التحول من الإقطاع إلى الرأسمالية . ظهرت النفعية كفلسفة واعدة وهيمنت على الفكر الفلسفى الأخلاقى الغربى .

وفى النصف الثانى من القرن السابع عشر . هيمنت النفعية من جديد هيمنة شبه كاملة على الفكر الفلسفى الأخلاقى الغربى. وتردد صداها فى الفكر الاقتصادى عند الكلاسيك فى إنجلترا ، وعند الفزيوقراط فى فرنسا . فقد اتفق هؤلاء جميعا على أهمية وضرورة زيادة الثروة وتعظيم منفعتها للدولة، غير أنهم اختلفوا فى إعطاء الأولوية لمصدرها..

- فالكلاسيك تحيزوا للصناعة.
- والفيزوقراط تحيزوا للزراعة.

ولكن، وعلى الرغم من اختلافهم ، إلا أنهم اتفقوا جميعا على أن تعظيم المنفعة من الثروة هو الغاية الأساسية لكل نشاط اقتصادى .

وبموجب ذلك توصل فلاسفة النازية في ألمانيا إلى ضرورة تنمية الموارد البشرية النافعة، والتخلص من الأفراد والجماعات عديمى القدرة ، قليلى النفع ، فاقدى الهمة ، من الأجناس الدنيا مثل اليهود والمرضى والمعاقين والمتخلفين ذهنيا الغير قادرين على العمل والعاجزين عن العطاء ، الذين يمثلون خطرا داهما على الدولة الألمانية والحضارة الغربية . إذ أن هؤلاء إن ظلوا على قيد الحياة فإنهم سوف يورثون صفاتهم الرديئة إلى ذريتهم من بعدهم ، ما يترتب على ذلك من حدوث يسبب اضمحلال فى النوع البشرى ويصيب المجتمع بالوهن . ويعرض عملية التطور الانسانى إلى الانحراف والتدهور والانحطاط لذلك وجب التخلص منهم لا مساعدتهم وهو ماحدث بالفعل عندما اتبع هتلر سياسة التطهير العرقى وتخلص من هؤلاء بكل وحشية فى أفران الغاز.

* * *

الحياد العلمى وخيانة الفقراء

تقوم هذه الرؤية ، على أن العلوم يجب أن تكون محايدة بالنسبة للعلاقات الاجتماعية ، والقضايا الأخلاقية ، فالعلوم الاجتماعية، ومنها علم الاقتصاد ، يجب أن تختص بتوصيف الظواهر وتفسير

أسباب حدوثها دون أن تصدر أحكاما أخلاقية نحو ما إذا كانت خيرا أم شرا، أو تبدى رأيا بقبولها أو رفضها ، أو تتدخل فى التأثير على مسارها.

وتروج هذة الرؤية لمقولة أن الاقتصاديين - يجب أن يبتعدوا كليا عن مسائل العدل والظلم ، وما ينشأ عن النظام من ألم ومشقة ، وإن فعلوا غير ذلك يكونوا قد أخلوا بواجبهم . واهتموا بأمور لا تخصهم، وتدخلوا فى شئون لا تعنيهم، وهم إن فعلوا ذلك يفقدون صفة الحياد العلمى والموضوعية ، أى أنهم فى هذه الحالة يفقدون الصدق العلمى.

فهذه الرؤية ، تفصل تماما بين الدراسة العلمية للظواهر الاقتصادية، وبين الأحكام التقديرية أو التقويمية Value Judgment.

وهنا يشير رادوميزلر Radowmysler إلى أن الدراسة أما أن تكون تقريرية Positive أو معيارية Normative :

* فالأولى (التقريرية) ، تستند إلى التحليل العلمى الخالص وتكون محايدة بالنسبة للعلاقات الاجتماعية .
* والثانية (المعيارية) ، لا تستند إلى التحليل العلمى الخالص وإنما تكون متحيزة بالنسبة للعلاقات الاجتماعية.

ويرى رواد الحياد العلمى ، أنه ليس من مهمة الاقتصاديين - بوصفهم اقتصاديين - أن يذهبوا إلى أبعد من حدود الدراسة

التقريرية العلمية ، فهم يرون أن المظالم الاجتماعية القائمة تعد من الأمور المسلم بها.

وعموما ، فإن رواد الفلسفة الوضعية ، يأخذون بمناهج العلوم الطبيعية وحدها ، والتى تكتفى بوصف ما هو واقع ولا تتجاوز هذا إلى اقتراح ما ينبغى أن يكون . فالبحث العلمى -فى رأيهم- يجب أن يكتفى بدراسة الوقائع Facts لا القيم Values. وأن يقصر دائرة اهتمامه على استكشاف ما هو متحقق فعلا فى لحظة تاريخية معينة.

ومثل هؤلاء الاقتصاديين رواد الحياد العلمى ينطبق عليهم وصف الاقتصادى الإنجليزى إيلى ديفونز (عندما قال) " لو أراد الاقتصاديون دراسة الحصان، فلن يذهبوا إلى إسطبلات الخيل ، بل سيجلسون إلى مكاتبهم ويقولون لأنفسهم ماذا لو كنت حصانا " . فهم أكاديميون معزولون عن الظواهر الاجتماعية والحياة الواقعية .

والحياد العلمى ، على هذا النحو ، هو حياد بين أرباب العمل والعمال ، وهو تماما مثل الحياد بين الذئب والحملان ، وهو فى جوهره ليس إلا انحيازا للأثرياء اللئام وخيانة للفقراء الأيتام .

وهذا الانحياز ، عبر عنه هوارد بيكر مستنكرا ومتسائلا فى أى جانب نقف نحن؟ ، Whose side are we on? .

***

(٢) فلاسفة وعلماء أنصار الفقـــراء

باعادة عقارب الساعة قليلاً إلى الوراء ، سوف نرى أن الليبرالية، التى كانت ثورية فى مرحلة التحول من الإقطاع إلى الرأسمالية ، صارت رجعية عند التحول من الرأسمالية إلى الاشتراكية، وعملت على تفادى أى تدخل يسعى إلى تحقيق مجتمع الديمقراطية الاجتماعية (الرفاة) . فمنذ أكثر من مائة عام مضت ، نوه هربرت سبنسر ، قائلاً: " لقد كانت وظيفة الليبرالية فى الماضى أن تضع حدا لسلطان الملوك ، ولكن وظيفة الليبرالية الحقيقية فى المستقبل ، سوف تكون وضع حد لسلطات المجالس النيابية " .

وهو ما حدث بالفعل ..

إذ أن الليبرالية المتوحشة ، ظلت تحارب بضراوة كل تشريع من شأنه حل مشكلة تفاوت الثروة ، وتفشى الفقر ، وقصور الطلب ، إذا كان فى ذلك أى انتقاص من أرباحها ، وهى الحالة التى عبر عنها روجيه جارودى قائلا " أن الليبرالية هى الحرب التى يشنها الجميع ضد الجميع Wore Of All Against All، بلا حدود قانونية أو قيم أخلاقية " .

فحرية إطلاق قوى السوق فى الاقتصاد أشبه بحرية إطلاق الثعالب فى حظيرة الدجاج .

وفى مقابل هذا التيار الكلاسيكى الرجعى الكاسح ، ظهر تيار آخر ثورى مناوئ له ومتمرد عليه ، تيار يرى أن الأغنياء هم أعداء الفقراء ، وأن الملاك هم أعداء الأجراء ، وأن الثروة والتراكم الرأسمالى يصنعها العمال ، ويسلبها أصحاب العمل ، وأنه من واجبات الدولة أن تتدخل لحماية الأغلبية من عسف الأقلية ، وأنها إن فعلت ذلك ، تكون قد فعلت خيرا كثيرا ، ونزعت فتيل الأزمة قبل أن يصعب إبطال مفعولها وتنتشر الثورة ويعم التمرد.

وهذا التيار المناوئ للكلاسيك ، يمكن تمييزه إلى ست مجموعات، وهى : الاشتراكيون ذوا النوايا الطيبة (الخياليون) . الاشتراكيون الإصلاحيون (الفابيون) . الديمقراطيون الاجتماعيون (المؤسسيون) . المبشرون بالثورة . الماركسيون . الكينزيون .

* * *

الاشتراكيون الخياليون

هم الرواد الأوائل الذين عايشوا الرأسمالية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وشاهدوا بأعينهم حالة البؤس ، والذل ، والعوز ، التى كانت تعيش فيها الطبقة العاملة ، فى حين كان الرأسماليون يسلبونهم كد عملهم ويعيشون فى نعيم خيرات إنتاجهم ، وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم الماركسيون بعد ذلك ، صفة الاشتراكيين الخياليين لأنهم رغم إجماعهم على استنكار مساوئ

النظام الرأسمالى ، غير أنهم لجأوا إلى طرق الـوعظ والإرشـاد ، بهدف إصلاح النظام الرأسمالى من داخله ، ومعالجة الآثار الجانبية لأسلوب الإنتاج الرأسمالى بأدواته ذاتها . فى حين كان الماركسيون يسعون إلى الخلاص من شرور النظام الرأسمالي عن طريق تدميره كليا، وإقامة الاشتراكية على انقاضه باعتبارها نظامـا أكثـر عـدلا وأمانا .

والاشتراكيون الخياليون ، هم التعاونيون الذين رفـضوا باعـث الربح كمحرك للاقتصاد ، وأدانوا شراسة المنافسة لأنها تؤول إلـى الاحتكار الذى يتعارض فى جوهره مع الرفاهيـة . ومـن هـؤلاء سيسموندى [٢٧] (١٧٧٣ - ١٨٤٥) الذى أثار الشك حـول إمكانيـة التوفيق بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة ، وأولى اهتمامـه لتحسين مستوى معيشة السكان ، قبل الاهتمـام بتـراكم الثـروة ، ونادى بدور أكبر للدولة فى تحقيق الرفاهية للجميع.

وعلى نفس المنوال ، سار علي خطي سابقيهم كلا من : سـانت سـيمون Saint Simon (١٧٦٠-١٨٢٥) وروبـرت أويـن[٢٨] (١٧٧١ - ١٨٥٨) Robert Owen ، كما سار علي نفس المنـوال كـل مـن شـارل فوريـه (١٧٧٣-١٨٣٢) ، ودافيـد ديـل (١٧٩٣-١٨٠٦) ، وشـارل دى سيـسموندى (١٧٧٣-١٨٤٢) ، ولوى بلان (١٨١١-١٨٨٣) .

وقد عاصر بيرجوزيف برودون (١٨٠٩-١٨٦٥) ، هؤلاء الرواد، وتأثر بهم وأثر فيهم ، ولكنه اتجه إلى منحنى أكثر تطرفا ، إذ أعلن منذ البداية أن كل عوائد الملكية من الربح والريع والفائدة ، كلها أشكال من اللصوصية ، وأطلق عبارته الشهيرة " الملكية هى السرقة". ونادى بإلغاء العائد على رأس المال فى أى صورة من الصور ، وحرض على هدم الدولة التى تحمى الأغنياء وكان فوضوياً بامتياز.

وبصفة عامة ، يمكن إجمال اتجاهات فكر الرواد التعاونيين والاشتراكيين الخياليين ، فى رفضهم باعث الربح كمحرك للاقتصاد ، وإيمانهم بأن المنافسة تؤدى فى النهاية إلى الاحتكار ، ويقينهم بأن الاحتكار يتعارض مع تحقيق الرفاهية ، وتبشيرهم بالمبادئ التعاونية ، كأساس للعدل والمساواة والرفاهية.

وكان ماركس قد نعت هؤلاء بصفة الاشتراكيين الخياليين لأنهم لم يدركوا أهمية صراع الطبقات كمحرك للتاريخ ، وتخيلوا أن أفراد المجتمع يمكن أن يعيشوا جميعا كأسرة واحدة سعيدة دون كراهية أو صراع وهو ما يتناقض مع فروض نظرية داروين عن التطور بآلية النشوء والارتقاء , والتي تشير بإصرار إلي أن البقاء للأصلح هو قانون الحياة .

***

الاشتراكيون الإصلاحيون (الفابيون)

لقد أحدث البيان الشيوعى Manifesto ، الذى أصدره ماركس وإنجلز عام ١٨٤٨ , بما اشتمل عليه من تحريض الطبقة العاملة Proletariat على الثورة وإشعال نار الصراع الاجتماعى ضد البرجوازية، قلقاً وذعرا شديدا وأثار الخوف ونشر الرعب فى المجتمعات الرأسمالية.

ولأن الشيوعية مثلت تهديدا مباشرا للرأسماليين ورجال الأعمال والنخب الحاكمة فى أوروبا وفى العالم . فكان ذلك حافزا لهم لتبنى أفكار وسياسات اجتماعية تخفف من وحشية الرأسمالية دون أن تمس الركائز الاقتصادية والاجتماعية التى بنيت عليها ، بغية استباق إرهاصات الثورة الشيوعية وإجهاض مقدماتها .

فظهرت أفكار تغوى الاتحادات والنقابات العمالية والأحزاب السياسية المعبرة عنها بأهمية التعاون مع المنظمات البرجوازية والاشتراك فى الحكومات الرأسمالية القائمة ، والقبول بالسياسات الإصلاحية التى تتبناها الرأسمالية الرشيدة ، واتباع أسلوب الخطوة خطوة فى تراكم المكاسب الاجتماعية ، بديلا للثورة الشاملة التى تنادى بها الماركسية بغيه بناء الاشتراكيه على أنقاض الرأسمالية .

وقد حاول هؤلاء المفكرون ، الذين عرفوا باسم الاشتراكيون الإصلاحيون ، التوفيق بين المبادئ المجردة للاشتراكية العلمية التى يدعو إليها ماركس ، وبين الظروف الواقعية السائدة فى كل مجتمع ، وبوجه خاص الحفاظ على الليبرالية السياسية التى تنعم بها الشعوب فى البلدان الرأسمالية المتقدمة ، أى أنهم نشدوا الجمع بين مكاسب الاشتراكية ، ومحاسن الليبرالية فى صيغة جديدة هى الاشتراكية الديمقراطية .

ومن المنظرين الذين تبنوا هذه الأفكار كان برنشتاين Bernstien (١٨٥٠-١٩٣٢) فى ألمانيا ، وميلليران Milleran فى فرنسا، وسدنى وب Sidney Webb ، هـ . ج ويلز H.G. Wells فى إنجلترا . ومن أبرز هؤلاء كان الكاتب الإرلندى المشهور برنارد شو Bernard Show (١٨٥٦ -١٩٥٠).

وهذه المبادئ هى التى تطورت فى الوقت الراهن ومثلت الأساس الذى بنيت عليه سياسات الطريق الثالث تحت شعار تجديد الديمقراطية الاجتماعية.

***

الديمقراطيون الاجتماعيون (المؤسسيون)

الاقتصاديون المؤسسيون Institutionalisms يعتقدون أن السلوك الجماعي Collective Behavior، وليس السعر Price ، هو الموضوع المحوري لعلم الاقتصاد . فهم يعتقدون في عدم معقولية السلوك الإنساني Human Behavior وأنه لا يمكن قياس الدوافع المهمة التي تؤثر على سلوك الأفراد ، بسبب تغير السلوك الإنساني بشكل دائم ومستمر . وبالتالي ، فإن المفاهيم والتعميمات الاقتصادية المتعلقة به تتغير بتغير الزمان والمكان . فالسلوك الإنساني ، محكوم بدوافع كثيرة لا صلة لها بالمعرفة أو العلم أو حتى السلامة العقلية والوجدانية . فالعقلانية ، واللاعقلانية ، تتعايشان جنبا إلى جنب بنسب مختلفة في كل شيء لدى كل جماعة بشرية .

أي أنهم يرون أن الطبيعة البشرية يصعب كثيرا التنبؤ بمسلكها لأنها ذات سمات عشوائية في جوهرها. ويؤيدهم في هذه النظرة فلفريدو باريتو (١٨٤٨-١٩٢٣) ، حيث ضمن رأيه فيما أسماه نظرية الفعل اللامنطقي Non-Rational -Action بما يفيد أن جانبا كبيرا من السلوك الإنساني ليس عقلانيا ؛ وكان ذلك ايضا ، هو رأى ماكس فيبر (١٨٧٤-١٩٢٠) الذي أعلن أنه من غير الممكن أن يسلك الفرد سلوكا رشيدا طول الوقت .

ولذا ، فإنهم ينظرون إلى أن الاختلالات فى الحياة الاقتصادية تعتبر مسألة عادية فى ظل المؤسسات القائمة فى المجتمع ، وهم يرون أن هذه المؤسسات تشتمل بالإضافة إلى المنظمات Organizations على الأعراف Customs والعادات Habits والقوانين Lows والملكية Ownership والتكنولوجيا Technology والخيارات الإنسانية المتاحة Available Opportunities باعتبارها البواعث الرئيسية Prime Motives لتحديد الأهداف الإنسانية الحاكمة لتنظيم الحياة الاجتماعية.

وهم بذلك يتعارضون مع الكلاسيك..

* فبينما يرى الكلاسيك ، أن تفاعل المصالح الذاتية للأفراد الراشدين Economic Men الذين ينشدون تعظيم الإشباع أو تعظيم الأرباح، هى القوة التى تحافظ على تماسك المجتمع .

* فإن المؤسسيين ، يرون أن تماسك الجماعة ومعقولية سلوكها الاقتصادى يتوقفان على متغيرين أساسيين: أولا : غريزة حب العمل Instinct Of Workmanship وفخر الفرد الطبيعى بالعمل كقيمة فى حد ذاته . وثانيا : غريزة حب التساوى مع الآخرين .

وبناءً عليه ، نبذ المؤسسيون اقتصاد القيمة Value Economic وكل معتقدات الكلاسيك القائمة على التوازن العام General Equilibrium ، وبنوا فكرهم على السيكولوجيا والغرائز السلوكية

الإنسانية ، ودراسة التشريعات القانونية ، وسلطة الدولة وواجبات الأفراد حيالها . أى أنهم يفكرون فى تنظيم الأفراد ويميلون إلى التخطيط الاجتماعى ، مما يجعلهم قريبين من اقتصاد الرفاهية Welfare Economic.

ولذا فإنهم يهتمون بالدور الذى تقوم به المؤسسات الرئيسة فى النظام الاقتصادى ، أى المنظمات الاقتصادية التى تعمل بصورة جماعية ، مثل جمعيات رجال الاعمال ونقابات العمال والروابط التجارية والشركات ، وليس الدور الذى يقوم به الأفراد .

ويعلق ميشيل بو على سياسة المؤسسيون نحو معالجة المسألة الاقتصادية قائلا أنها " تتميز بالشمول . إذ ترفض فصل المجال الاقتصادى عن بقية الواقع الاجتماعى . كما ترفض الاعتماد على السوق وحدها كآلية لتسيير عجلة النشاط الاقتصادى" .

***

المبشرون بالثورة

على نفس الدرب المناهض للرأسمالية ، والمتعاطف مع الطبقة العاملة والمهمشين والفئات الشعبية ، سار كل من وليم ثومبسون (١٧٨٢-١٨٣٣) W.Thompson، وجون جراى (١٧٩٩-١٨٨٥) J.Gray وتوماس هودجسكين (١٧٧٨-١٨٦٩) T.Hodjaskin ، وهم

إلى جانب الرواد الأوائل للاقتصاد السياسى ، كانوا المصدر الأهم للفكر الماركسى . وتدور أفكارهم حول اعتبار أن العمل هو المصدر الوحيد للقيمة ، واتخذوا من ذلك مبررا إلى ضرورة حصول الطبقة العاملة على ناتج العمل ، وحرمان أصحاب رءوس الأموال من عوائد الملكية التى يستولون عليها دون وجه حق فى صورة ريع وفائدة وربح . وبالإضافة إلى ذلك اهتموا بتثقيف العمال وتعبئة جهودهم وتنظيمهم للدفاع عن مصالحهم الطبقية ، وفرض العدالة فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وساهموا فى إضفاء الطابع الاجتماعى على رأس المال ، لاعتبارهم أن الأدوات ، والماكينات ، ليست إلا عملا ميتا . لا تكتسب قدرتها على الانتاج ، إلا بتشغيل العمل الإنسانى الحى ، ولا تكتسب صفة راس المال ، الا فى ظل العلاقات الاجتماعية القائمة على الملكية الخاصة واستغلال العمال . توصلوا من ذلك كله إلى أن مشكلات البطالة والفقر والبؤس هى نتاج طبيعى لآليات عمل النظام الرأسمالى ، ولا سبيل إلى اصلاحها إلا بسيطرة المجتمع عليها ، وضبطه لإيقاع حركتها .

***

الماركسيون

لم يكن ماركس Marx منظرا اقتصاديا وحسب ، وإنما كان أيضا مناضلا ثوريا وزعيما سياسيا . وتحمل ماركس فى سبيل دعوته

صنوفا متنوعة من التشرد والمطاردة إلى أن استقر به المقام فى لندن " واتخذها قاعدة لمنازلة العدو فى عقر داره".

وتفرغ لتأليف وإصدار كتابه "رأس المال" (١٨٦٧) Das Kapital الذى يعد أهم كتاب فى الاقتصاد السياسى ، بعد "ثروة الأمم" لآدم سميث (١٧٧٦) ، وقبل كتاب النظرية العامة لكينز (١٩٣٦) .

وفى البيان الشيوعى Manifesto أعلن ماركس "أن تاريخ الصراع الناشب بين الطبقات ، هو أساس كل تطور ، فقد وقف الظالمون والمظلومون وجها لوجه ، ودارت بينهم بلا انقطاع حرب خفية حينا وعلنية حينا آخر . وكان الصراع ينتهى فى كل مرة إما بإعادة تشكيل المجتمع عن طريق الثورة وإما بتحطيم الطبقتين المتصارعتين على حد سواء " وأشار البيان إلى أن البرجوازية خلقت عناصر هدمها بنفسها ، لأن الأزمات المتكررة لا تحدث بسبب الندرة، وإنما بسبب سوء توزيع الثروة مع وفرة الانتاج . وأنذر الرأسماليون بأن هذه الأزمات سوف تزداد حدة وعنفا ، وسوف تصل إلى مرحلة يعجزون فيها عن السيطرة على القوة الإنتاجية الهائلة التى خلقوها هم بأنفسهم وأن يعجزوا عن استخدامها على الوجه الصحيح وذلك عندما تعجز الرأسمالية عن الوفاء بمهمتها التاريخية – وهى سيطرة الإنسان على الطبيعة – ويصبح أساسها الاجتماعى عاجزا عن حمل جهازها الإنتاجى. آنئذ سوف تتولى

البروليتاريا Proletariat السيطرة على الدولة وعلى المجتمع، وتقوم بهدم الرأسمالية .. وتبنى الاشتراكية على أنقاضها . وهى بهذا البناء الجديد لا تحرر نفسها فقط ولكن تحرر الشعب بأكمله ..وكان ذلك حلما يوتوبيا جميلا تبدد مع شروق شمس الصباح.

***

الكينزيون

كانت ظاهرة البطالة ، وما يصاحبها من مظاهر البؤس ، وذل الفاقة، وعار الفقر ، هى المشكلة التى أرقت ذوى الضمائر اليقظة ، وأصحاب القلوب الرحيمة من المفكرين الإنسانيين ، والاشتراكيين الخياليين ، وأيضا من الكلاسيكيين الثوريين على حد سواء .

وقد توصل هؤلاء جميعا ، إلى أن إعادة توزيع الدخل ، هو الشرط الكافى للتخفيف من حدة هذه المعاناة ، بعد استيفاء الشرط الضرورى، وهو تسيير عجلة الإنتاج وتكبير العائد ، وتعظيم المنفعة، وهو ما توصل إليه الكينزيون أيضا ، ولكن من مدخل فكرى مختلف .

كان كينز يرى أن المشكلة الحاسمة فى الاقتصاد ، ليست كيفية تحديد أسعار السلع ، ولا هى كيفية توزيع الدخل الناشئ عن ذلك ، وإنما المسألة الرئيسية هى "كيف يتحدد مستوى الناتج والعمالة؟! "

فلقد كان يسعى إلى رفع كـــابوس الكـــساد والبطالـــة عـــن عـــاتق الرأسمالية .

فلم يتبلور الفكر الكينزى ، استجابة لدوافع إنسانية ، ولكنه، مثل الفكر الماركسى ، كان وليد الظروف الموضـــوعية ، والـــضرورات العملية. غير أن الإطار المذهبى للفكر الكينزى جاء ليتعـــارض مـــع الإطار المذهبى للفكر الماركسى . فالأول (كينز) ، يؤمن بالرأسمالية، بينما الثانى (ماركس) يؤمن بالاشتراكية :

* فالفكر الكينزى . كان مهموما بكيفية إنقاذ النظام الرأسمالى مـــن ويلات البطالة . وبؤس الكساد .

* بينما الفكر الماركسى ، كـــان مـــشغولا بكيفيـــة إفنـــاء النظـــام الراسمالى، وتحرير الطبقة العاملة من أســـرد وتطهيرهـــا مـــن شرورد وأنتشالها من براثم استغلال رأس المال.

ومع ذلك ، فكلا المذهبين (الكينزى والماركسى) كان معنيا بتحقيق التوظيف الكامل للموارد :

- الأول (كينز)، عن طريق تشريك الطلب Socialization Of Demand

- والثانى (ماركس)،عن طريق تـــشريك الإنتـــاج Socialization Of Production.

***

وفى محاولته لفهم أزمة النظام الرأسمالى واقتــراح الــسياسات المناسبة لحلها كان كينز يرى أن هناك جماعتين لا غنى لإحــداهما عن الأخرى ، وهما الملاك الأثرياء والأجراء الفقراء ، ومــع ذلــك تتصرفان وكأن مصالحهما تقع على طرفى نقيض ، وتتربصان كــل منهما بالأخرى :

*فالجماعة الأولى (الأثرياء) : مريــضة بالتخمـــة .. وتعــدت حــد الإشباع.

*والجماعة الثانية (الفقراء): مريضة بالهزال .. وتدنت عــن حــد الكفاف.

ورأى كينز أن صلاح أحدى هاتين الجماعتين فيه صلاح للأخرى. إذ أن الشحوم التى تفيض عن حاجة الملاك . وترهــق أجــسادهم . وتوجع قلوبهم . وتحد من حركتهم وتصيبهم بمرض ضعف المفاصل وهشاشة العظام، يمكن لليسير منها إصلاح حال الأجراء . وإشــباع جوع الفقراء .

وأظهر كينز أن علة النظام الرأسمالى ، تكمن فى ثنايــا بنيتــه ، وتظهر فى صورة كفاية العرض Excess Supply ، وقــصور الطلــب Demand Shortage ، وما يترتب على ذلك من فيض الإنتاج Global Glut ، ونقص الاستهلاك Under Consumption ، وأن علاجه يتوقف على تنشيط الطلب باعتباره الرافعة الرئسية لضبط النشاط الاقتصادى

أو كبحه ، وهو ما يستدعى إعادة توزيع الدخل من الملاك إلى الأجراء ، ومن الأغنياء إلى الفقراء ، فميلهم إلى الاستهلاك أكبر ونهمهم للإشباع أقوى ، فيصبحون بذلك قادرين على الشراء واستيعاب ما ينتجه قطاع الأعمال من السلع والخدمات ، وبذلك يتم تحريك عجلة النشاط الاقتصادى ، ويجرى دفعها قدما إلى الأمام ، دونما تعطل أو ركود أو إحجام .

- أى أن كينز كان قد أنكر بكل قوة فكر الكلاسيك الذى يتبنى سياسة التخفيض العام للأجور كحل يمكن أن يعالج مشكلة البطالة ، ولم يجد علاجا فعالا لإقالة النظام الرأسمالى من عثرته ، إلا بتحرير الطبقة العاملة من قيود البطالة ، وفك أسر الفقراء من غائلة الجوع ، فهو ، دون أن يقصد ، قدم مساندة كبرى للفقراء على حساب الأغنياء عن طريق دفع تعويضات عن البطالة ، واعتبار هذه المدفوعات جسر معقول لعبور الجانب المتدهور من الدورة الاقتصادية . وهو بذلك يكون قد حقق غاية اجتماعية.. لم تكن أصلا من مقاصده .

- كما أن كينز لم يجد وسيلة فعالة لتطبيق نظريته ، إلا عن طريق تدخل الدولة لإدارة النشاط الاقتصادى ، باعتبارها المؤسسة الرأسمالية الوحيدة القادرة على التكفل بتوفير الاستثمار اللازم ،

لا لدفع الطلب الفعال فحسب ، بل أيضا لضمان الجدوى الاجتماعية لذلك الاستثمار .

أى أنه بذلك يكون قد حقق أيضا غاية سياسية لم تكن أصلا من مقاصده .

***

وهكذا ، كانت الكينزية ، وظلت ، بديلا مقبولا للبطالة والبؤس اللذين لم يعد فى وسع الليبرالية المتوحشة الدفاع عنهما ، كما كانت بديلا مطلوبا لتفادى الماركسية والثورة الشيوعية التى لم تجد الرأسمالية الرشيدة بدا من استباق مظاهرها ، واتقاء مخاطرها .

***

(٣) كلمة ختامية

يلاحظ من استعراض أفكار رواد التيار الليبرالى المتشدد أنصار الأغنياء وأعداء الفقراء ، أن مقولاتهم كانت تتجاهل الظروف التاريخية ، والأوضاع الاجتماعية والمؤسسية ، التى يجرى النشاط الاقتصادى فى ظلها، كما كانت آراؤهم تخصص لإيجاد تبرير اجتماعى وأخلاقى لديمومة النظام الرأسمالى ، وتبرير الفروق الطبيعية بين دخول الملاك ودخول الأجراء ، وما يترتب على ذلك من تركز الرفاهية والنعيم فى أفراد المجموعة الأولى ، وتفشى البؤس والشقاء بين أفراد المجموعة الثانية . فالفقر . فى نظرهم . ليس مسألة دخل بقدر ما هو مسألة عقلية . وأن الاعانات الحكومية تضر بمعظم أولئك الذين يعتمدون عليها .

وهو ما رآه الكلاسيك ، ومن لف لفهم وسار على دربهم ، أمرا طبيعيا ليس للأثرياء ذنبا فيه ، إذ أن الذنب يعود إلى نوازل الدهر وغدرات الزمان من ناحية ، وإلى الدوافع الإنجابية المنفلته للفقراء من ناحية ثانية ، وإلى القسمة والنصيب والقضاء والقدر من ناحية ثالثة . وكان ذلك دليلا عمليا على صحة مقولة الكاتب اللاتينى : خورجى مارتيجى " الرأسمالية لا قلب لها "

ومثل هذه الرؤية يصفها البابا شنوده الثالث (بابا الأقباط الأرثوزكس) أنها من وساوس الشيطان عندما يلبس الرذيلة ثوب الفضيلة حيث يقول: "إذا أراد الشيطان أن يمنع غنيا من أن يدفع للفقراء ، يقول له ليس من الخير أن تعلمهم الشحاذة ، أو تعودهم على التشرد والتواكل. إن عدم إعطائهم هو حكمة وعين الحكمة ، لكى يبحثوا عن عمل أو يأكلوا بعرق جبينهم حسب الوصية".

وحسبما يقول الدكتور جلال امين فى كتابه "فلسفة علم الاقتصاد" (٢٠٠٨) فإن رؤية هؤلاء على هذا النحو لابد وأن تؤدى إلى اعتبار أن الطريقة الوحيدة التى يمكن أن يعول عليها لحل مشكلة الفقر هو زيادة حجم الناتج القومى ، على أمل أن هذه الزيادة سوف يتسرب منها جزء إلى أيدى الفقراء. صحيح أن هذه الزيادة قد تذهب أولا إلى أيدى الأغنياء ، ولكن الأغنياء هم الذين يخلقون فرص العمل للفقراء ويدفعون لهم أجورهم ، إذن فإن حل مشكلة الفقر لا تتم إلى إذا زادت دخول الأغنياء.

ومن الملاحظ ان انحياز هؤلاء الاقتصاديين الأشرار إلى جانب الملاك فى مواجهة الأجراء ، وإلى جانب الأثرياء فى مواجهة الفقراء – على هذا النحو – يعد فى جوهره تحديا لإرادة الخالق الذى يهدى إلى المساواة بين البشر ، ولذا فقد أدانهم الرب في الكتاب

المقدس بقوله " التحيز فى الحكم مشين ، ومن يقول للشرير أنت برىء تلعنه الشعوب وتمقته الأمم "

وفى تعليقه على فكر هؤلاء الاقتصاديين الأشرار –يسجل المؤرخ الإنجليزى ر.هـ. تاونى R.H. Tawny بأسلوب ساخر : "لا تعد الأمة متحضرة لأن حفنة من أفرادها ينجحون فى نيل مبالغ ضخمة من المال ، ويوفقون فى تحريض زملائهم على الاعتقاد بأن كارثة سوف تقع إذا لم ينالوها ، بأكثر مما كانت (داهومى) متحضرة لأن ملكها امتلك عرشا من الذهب وجيشا من الأرقاء . أو تعد أكثر تحضرا من أرض يهوذا لأن (سليمان) اقتنى ألف زوجة وكل حيوانات القرود وطيور الطاووس وأحاط عباده ميلوخ (إله النار) ، وعشترت (إله الخوف) ، بشعائر مؤثرة".

و حسبما يقول الدكتور إسماعيل صبرى عبد الله ، أنه برغم سيادة أيديولوجية السوق وسياسة الليبرالية الجديدة ، فإن ظاهرة استمرار الفقر فى العالم وتزايد أعداد الفقراء بانتظام ، قد ألزمت البنك الدولى بأن يتخلى عن واحدة من أهم مسلمات الليبرالية ، وهو ما يسمى "نظرية التساقط" Trickling Down Theory ومفادها ، أن تزايد ثراء الأغنياء سيقضى تلقائيا وتدريجيا على ظاهرة الفقر ، لأن الغنى المتزايد يعنى تزايد الاستثمار، وخلق أعداد متصاعدة من فرص العمل، بحيث تنحصر البطالة. وهذه الحالة يمكن علاجها بما يجود

به الأغنياء لإعالة الفقراء عن طريق فعل الخير Charity . وفى ظل هذا المفهوم ، ينحصر دور الدولة فى وظيفة الحارس الليلى للنظـــام Night Watch Man التى أراده لها من قبل آدم سميث.

وعلي خلاف هذه الفلسفة المعادية للفقراء تبنى البنك الدولى حديثاً الترويج لسياسة التدخل المباشر من جانب الدوله لحل قضية الفقـــر Direct Attack On Poverty ، وأن تتـــضمن الـــسياسة الاقتـــصادية إجراءات تخفف من وطأة الفقر علـــى المجتمـــع Poverty Alleviation Policies وتقر بحق الفقراء فى الخدمات والتامينـــات Welfare Rights وهى سياسيه الطريق الثالث التى تتبنها النقابات العماليه والاحـــزاب الاشتراكيه فى البلدان الغربيه.

* * *

ومجمل القول..

أن القيمة الزائدة ، هى القيمة التى يخلقها عمل العمال المأجورين على امتداد وقت العمل الزائد ويمتلكها الرأسماليون مجانـــاً وبـــلا مقابل ، فالجماعة الثانية (الأقلية) تستغل الجماعة الأولى (الأغلبية) بضراوة وبلا رحمة وبلا خجل ودون مراعاة لأبسط حقوق البشر.

وقد أجاد الشاعر السوفيتى فلاديمير مایاكوفسكى الإعـــراب عـــن جوهر الاستغلال الراسمالى حيث كتب فى إحـــدى قـــصائده يقـــول:

"للثروات البرجوازية مصادر خاصة .. تعمل بدولار ولكن يعطوك سنتاً ".

وفى كتابهما "ما هى القيمة الزائدة"؟ يكشف مؤلفاه فيليكس فولكوف وتاتيانا فولكوفا عن شدة استغلال العمال الأجراء من قبل الملاك ويقولان: "إن الرأسماليين لا يأبهون لإمكانات الإنسان البدنية ولا لصحته ولا لكرامته..وهم يعتصرون قوى الناس بلا شفقة ، ويحكمون عليهم بالشيخوخة قبل الأوان .. ويضعون جميع الوسائل فى خدمة رأس المال . ويعتصرونها للحصول على أكبر قدر ممكن من القيمة الزائدة".

- فكلما كان البيزنيس مبشرا بمزيد من الأرباح اشتد شره الرأسمالى إلى الربح واتسم سلوكه بالقسوة والوقاحة والجرأة.
- أما لو ارتفعت تكاليفه وزادت مخاطره لازداد سلوكه ضراوة ووحشية.

فرجل الأعمال فى رأى القائد النقابى البريطانى داييننغ من أواسط القرن التاسع عشر "يخاف من تراجع أرباح رأس المال ، كما تخاف الطبيعة من خواء الفراغ".

ولـــذا ..

فإن ركض رجال الأعمال وراء الأرباح هو الذى يحدد الاتجاهـــات الرئيسية لتطور علاقات الإنتاج الرأســمالية إذ أن ازديـــاد القيمـــة الزائدة يؤدى إلى إكثار ملكية الرأسماليين وإلى تراكم رأس المـــال . وهؤلاء فى سبيل تعظيم أرباحهم وزيادة ثرواتهم يوحـــدون رءوس أموالهم ، ويعقدون فيما بينهم صفقات مريبة ، ويؤسسون اتحـــادات احتكارية. ولذا فهم يغتنمون شتى الفرص لأجل الإيقاع بمنافسيهم ، وإضعافهم ، وإنزال الخراب بمشروعاتهم.

وعليـــه..

فالرغبة العارمة فى جنى الأرباح تجبر الرجل الشريف على نسيان الاستقامة فيخاصمه الشرف وتجانبه الفضيلة ، فيعقد صفقات تجارية مشكوك فى شرعيتها. ويعمد إلى خداع الشارين ، ويوظف الأمـــوال فى أشنع وأحقر أشكال البيزنس ، ويبـــدد مـــوارد الطبيعـــة بـــشكل همجى.. فكلما زادت الرغبة فى تحقيق الأربـــاح ظهـــرت الجوانـــب الضارية والطفيلية فى العلاقات الرأســمالية وتطـــورت وتـــضخمت واشتد طابعها الاستغلالي واللاإنسانى أكثر فأكثر .. فـــالركض وراء الأرباح يحول رجال الأعمال الأتقياء إلى أشرار والمتدينين منهم إلى تجار يتاجرون فى كل شىء حتى فى أسرار الوطن ومبادئ الأديان .

***

إذ أن الركض وراء القيمة الزائدة يدفع رجال الأعمال إلى اقتراف الجرائم ، واللجوء إلى النهب والسلب والتهويل والرشوة والبرطيل ، والاعتداء على القانون والاحتيال على العباد. فليس للقانون عندهم أى اعتبار. فالمهم بنظرهم هو تحقيق الأرباح ، أن يصبحوا أغنياء وأقوياء ، دون أى اعتبار للقواعد القانونية أو القيم الروحية أو مبادئ الأخلاق.

* * *

وفي نفس السياق يؤكد فيليكس و تاتيانا : أنه من أجل الأرباح ، يدعم الرأسماليون أشد القوى السياسية إغراقا فى الرجعية ، ويشجعون الناس على إدمان المسكرات وتعاطى المخدرات. ولهذا الغرض ، ينادون دائما بعسكرة الاقتصاد . وتشديد سباق التسلح ، وزيادة نفقات الجيش ، والتحريض على العدوان.. وهنا بالذات تكمن اسس التطلعات العدوانية للدول الإمبريالية ، التى تشن حروبا لا تتوقف على الشعوب من أجل الاستيلاء على مواردها والسيطرة على أسواقها كما تفعل أمريكا الآن فى الخليج والعراق وأفغانستان بغية الاستيلاء على مخزونها من البترول والمواد الخام.

ولا عجب في ذلك..

إذ أن تاريخ تطور البشرية كله مبنى علـى الاغتـصاب والبغـي والعدوان، فتوازن القوى هو الذي يحكم العلاقات بين البشر لا مكارم الأخلاق. فكل الحضارات البائدة والمعاصرة سواء بسواء قامت على الاغتصاب، وطوال التاريخ كانت الجماعـات القويـة تُغيـر علـى الجماعات الضعيفة، والقبائل القوية تغُير علـى القبائـل الـضعيفة، والشعوب القوية تغُير على الشعوب الضعيفة، وكل ذلك يحدث وهـم يرفعون أعلام الفضيلة ويَدعون امتلاك الحق والحقيقة . ففي جميع الفتوحات والغزوات كان المعتدون يرفعون شعارات أخلاقية تـدعو الناس الى التحلى بالصدق ونبذ الضلال، بل وحتى الدين كان يستخدم كقناع لتبرير العدوان ، فالفاتحون الغزاة كـانوا يحملـون الكتـاب المقدس باليد اليمنى، وباليد اليسرى يحملون السلاح. وكانت أهداف هؤلاء جميعا – وإن تبدلت الأقنعة وتلونت الـشعارات – إسـتيلاب الموارد والثروات وتحويل الضحايا إلى قوة عمل مـسلوبة الحـق.. حتى من حق الحياة . فمن تقاليد الحروب المتوارثة عـن اسـلاف بعيدة من الهمج أن المهزوم إما أن يقتل أو يسترق . وفـي جميـع الحالات كان سلب الثروة هو الغاية والوسيلة كانت هي العـدوان.. فمن تقاليد الحروب من قديم الزمان ان يتحول المهزومون الى غنائم وأسلاب وعبيد أرقاء .

حقـــاً...

إن الحياة فى جوهرها صراع لا يهدأ أو سلام لا يدوم علـــى مـــر السنين والعصور. وأن البقـــاء للأقـــوى هـــو القـــانون الأمـــضى ، فالضعفاء ينقرضون بينما الأشرس فى الصراع هو الذي يظل باقيـــا على قيد الحياة .. فلا ضمير للأقوياء ولا حصانة للضعفاء حتي وإن صلوا صلاة القديسين وتلوا أيات الكتاب .

***

إن المأساة الحقيقية التى تعم الحياة البـــشرية ، هـــى أن تطـــور البشر بآلية النشوء والارتقاء من مجرد خلايا حيةَ إلى ما هم عليـــه الآن من بهاء وجمال واعتدال فى القوام لم بتحقق إلا عبر مخـــاض طويل من عذابات وآلام وصراعات: صراع الانسان مع الطبيعة لخلق المنفعة وصراعه مع أخية الإنسان للاستحواذ عليها. وهو ما يبرهن بلا جدال على أن الإنسان متطور فى الاصل عن نوع ما من أنـــواع الوحوش ، غير أنه بعد أن نما عقله واستوي عوده واشـــتد مكـــره اعتاد أن يتجمل فى الحياة كى يميز نفسه عن سائر الحيوان.

و لـــذا..

فإن الأقوياء لم يكن يضيرهم على الإطلاق فـــي أي وقـــت مـــن الأوقات أن يغلفوا مصالحهم ومآربهم بكلمات معسولة وأقنعة براقة ذات صبغات دينية أو أيديولوجية أو قومية .. المهم فى النهايـــة أن

تعمى بصيرة الأغلبية عن استغلال الأقلية. فالثرى كبير الثراء واسع الحيلة عظيم الدهاء الذى مصدر ثرائه فائض قيمة عمل الشغيلة لن يضار على الإطلاق إن خصص جزءاً ضئيلاً من هذا الفائض لأعمال البر والإحسان كى يكتسب من الناس المحبة والاحترام ، ويوصف بينهم بأنه فاعل خير، فيدعون له باليمن والبركات وطول البقاء.

وعلى سبيل المثال...

فإن رجل الأعمال ، الذي يظهر للناس بمظهر رجل البر والاحسان، لن يضيره مطلقا أن يبنى مدرسة طالما لن تُدرس فى فصولها نظرية فائض القيمة التى تكشف استغلال الرأسماليين للشغيلة. وكذلك لن يُضيره مطلقا أن يبنى دارا للعبادة طالما أن فقهاءها لن يحرموا زواج المتعة بين الثروة والسلطة.

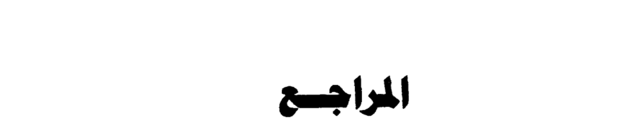
وبذلك فإن رجل الأعمال..

- عن طريق فائض القيمة Surplus Value يكون قد سلب من العمال ناتج عملهم وكون ثروته.
- وعن طريق الإحسان Charity يكون قد سلب منهم وعيهم ووطد سلطته.

وعليـــــه..

فإن الحقيقة كل الحقيقة هى أن الحياة في مجملها ميدان صــراع وأن أوجه الإحسان لن تخفى الحقيقة ولن تلغى اســتغلال الإنــسان لأخيه الإنسان. فالحياة مثلها مثل الغابة المخيفة فيها الذئاب والنمور والثعالب والأسود وغير ذلك من أشرار الوحوش ، ولكن وحــشيتها عادة ما تكون مموهة بغطاء رقيق من النباتات الخــضراء وبعــض الزهور ، فنمو بعض الزهور على مشارف الغابة لا يعنى خلوها من الوحوش.

**



المراجــع

المراجـــع

١- ابراهيم خضر. الجيش والمجتمع . دراسات فى علم الاجتماع العسكرى (ط١) . دار المعارف . ١٩٨٥

٢- احمد بهجت . صندوق الدنيا. عصرنا . ١٩ ٧ ٢٠٠٨

٣- احمد سليم سعيدان. مقدمة لتاريخ التفكير العلمى فى الاسلام . عالم المعرفة ١٣١، ١٩٨٨

٤- احمد عباس عبد البديع. حكم الفنيين فى النظم السياسية المعاصرة. دار المعارف. ١٩٨٢

٥- اسماعيل صبرى عبد الله. الكوكب والعالم الثالث. اليسار الجديد ٣٣٣ . صيف وخريف ٢٠٠٢

٦- اقبال بركة. ديموقراطية أثينا كانت ظالمة. الاهرام . ١٩ ٦ ٢٠٠٢م

٧- اكاديمية العلوم السوفيتية . دور الجماهير فى التاريخ . ترجمة د. بدر الدين السباعى . دار الجماهير الشعبية . دمشق . ١٩٨٢

٨- السيد الحسينى . علم الاجتماع السياسى . المفاهيم والقضايا . دار المعارف . ١٩٨٤

٩- الغربى العلمى (٣٥ . يونيو ٢٠٠٧ . ص ص١٠-١٥

١٠- اليان ج ويدجرى . التاريخ وكيف يفسرونه جـ٢ . ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد . الالف كتاب الثانى ٢٢٢ . ١٩٩٦

١١- انتونى جيدنز . بعيداً عن اليسار واليمين . ترجمة شوقى جلال . عالم المعرفة ٢٨٦ . اكتوبر ٢٠٠٢

١٢- باتريك كيرى واوسكار زرايب . ماكيافيلى . ترجمة امام عبد الفتاح امام . المجلس الاعلى للثقافة . ٢٠٠٢

١٣- باتريك موكانان . انتهى الحفل . القوى العظمى المغرورة اصبحت تاريخاً . المصور ٤٣٨١ . ٢١ سبتمبر ٢٠٠٨

١٤- بوتومور . القوة والمجتمع . دراسة فى علم الاجتماع السياسى . ترجمة محمد الجوهرى وزملائه . دار المعارف . ١٩٧٨

١٥- ثورشتاين فبلن. نظرية الطبقة المترفة. ترجمة محمود محمد موسى. من الفكر السياسى والاشتراكى. الدار المصرية للتاليف والترجمة

١٦- ج ج كراوثر. قصة العلم. ترجمة د. يمنى طريف الخولى. مكتبة الاسرة . ١٩٩٨

١٧- جان شارل سورنيا . تاريخ الطب . رجمة د. ابراهيم البجلاتى . عالم المعرفة (٢٨١) ٢٠٠٢

١٨- جمال الشاعر. الرأسمالية لا قلب لها. الأهرام فى ١٢ ٢ ٢٠٠٢ . ٢١ ٣ ٢٠٠٢ .

١٩- جورج جروفتش. دراسات فى لاطبقات الاجتماعية. ترجمة. احمد رضا. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٧٣

٢٠- جون كينيث جالبريث. تاريخ الفكر الاقتصادى. ترجمة. احمد فؤاد بليغ. عالم المعرفة ٢٦١

٢١- حازم الببلاوى. الفكر الاقتصادى . مكتبة الأسرة . ١٩٩٦

٢٢- حازم الببلاوى. حادث تافه ولكن يغيظ . الأهرام . ٢ ٥ ٢٠٠٠

٢٣- حازم الببلاوى. وماذا عن البيئة والتلوث؟ الأهرام ٢٧ ١٢ ٢٠٠٨

٢٤- حسين عمر. تطور الفكر الاقتصادى . دار الفكر . ١٩٩٤

٢٥- رايموند ويليامز. الثقافة والمجتمع . ترجمة. وجيه سمعان . مكتبة الأسرة ، ٢٠٠١

٢٦- رجاء النقاش. غازى القصيبى وقصيدة من نار. الأهرام. ٩ ٩ ٢٠٠٢

٢٧-رمزى زكى. الأزمة المعاصرة فى علم الاقتصاد البرجوازى. فكر. مارس. ١٩٨٥.

٢٨-رمزى زكى. الاقتصاد السياسى للبطالة. عالم المعرفة. ٢٢٦ . ١٩٩٧

٢٩-سمير الشحات. غريزة أساسية. الأهرام. ٨ ١٢ ٢٠٠٨

٣٠- صلاح قنصوة. فلسفة العلم. مكتبة الأسرة . ٢٠٠٢

٣١- عبد الباسط عبد المعطى. اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع. عالم المعرفة . ٤٤ . ١٩٨١

٣٢-عبد الصبور شاهين. مقولات ظالمة. قضايا إسلامية . ٢٠٠٢

٣٣-عزت ابراهيم. رسالة نيويورك. الأهرام . ٢٢ ٤ ٢٠١٠

٣٤-عزيز العظمة. الحضارة والبربرية. ترجمة د عاطف احمد . الثقافة العالمية ١١٣ . اغسطس ٢٠٠٠

٣٥- غيورغى ميرسكى. الجيش والمجتمع والسياسة فى البلدان النامية. دار التقدم. موسكو. ١٩٨٧

٣٦- فرنسيس فوكومايا . نهاية التاريخ

٣٧-فوزى منصور. تطور الراسمالية المصرية. قضايا فكرية. اغسطس واكتوبر ١٩٨٦

٣٨-كارل بوبر. بحثا عن عالم افضل. ترجمة د احمد مستجير . مكتبة الأسرة . ٢٠٠١

٣٩-كريلينكو. كورشونوفا ما هى الشخصية؟ دار التقدم. موسكو ١٩٩٠

٤٠- لينين. الدولة والثروة. دار التقدم. موسكو ١٩٧٠

٤١- مجموعة من الكتاب. نظرية الثقافة. ترجمة د علي سيد الصاوى عالم المعرفة ٢٢٣ . ١٩٩٧

٤٢- مجموعة من الكتاب. نظرية الثقافة. ترجمة د علي سيد الصاوى عالم المعرفة ٢٢٣ . ١٩٩٧

٤٣- محمد سيد احمد . جرنال القاهرة ٣٦ . ١٩ ١٢ ٢٠٠٢ د مصطفى طنطر نوفر الرواية الأمريكية والحرب الاهلية فى الولايات المتحدة . الاهرام ٢٣ ٢ ٢٠٠٣

٤٤- محمد عبد السلام عويضه . الطريق الثالث للخروج من دائرة الاستبداد والتخلف. مركز الاهرام للترجمة والنشر . ١٩٩٤

٤٥- محمد معروف الدواليبى. الدولة والسلطة فى الإسلام. دار الشواف. ١٩٨٣

٤٦- محمد نصر مهنا. القوة السلوكية واليسار الجديد. دار المعارف. ١٩٩٥

٤٧-محمد ياسر الخواجه. علم الاجتماع الاقتصادي. كتاب الأهالى . ١٩٩٨ . و د محمد السيد سعيد . السياسة ومجتمع المعرفة . الأهرام . ٥ ٨ ٢٠٠٢

٤٨-ميشيل بو وروستايلز . تاريخ الفكر الاقتصادى منذ كينز . ترجمة حليم طوسون كتاب العالم الثالث . ١٩٩٧

٤٩- نجلاء محمود المصيلحى. مركز الدراسات السياسية في تنمية المجتمع بالأهرام . القاهرة. ٢٠٠٩.

٥٠- ول ديورانت. قصة الحضارة. ترجمة: عبد الحميد يونس . مجلد ١٤ . جـ ٣٨

٥١- يوسف ميخائيل اسعد. قادة الفكر الفلسفى . ادبيات المؤسسة العربية الحديثة. ١٩٧٧



نظرية ..
الطبقة المترفة

يسعى الباحث , إستنادا إلى أدبيات علم الإقتصاد السياسيى وعلم الإجتماع السياسي ,

إلى المساهمـــة فى تأسيس نظريـــة تفسر نشوءوارتقاء الطبقـة المترفة فى البلدان

المختلفة وتفضح سلوكهـا العدوانى وطبيعتها الاستغلالية ومظهرها الإستفزازى .

ولأهمية هذه الدراسة ... رأينا أن ننشر نتائجها فى كتاب من ثلاثة أجزاء :

- **الجزء الأول :** معنى برصد وتفسير السلوك العـدوانى لأفـراد الطبقـــة المترفة ,
وعرض مقولات الفلاسفة وعلماء الاقتصاد أنصار الأغنيـاء أعداء الفقراء , الذين
يلعبون عن وعى وإدراك دور محامى الشيطان .

- **الجزء الثانى :** معنى بالكشف عن أساليب رجال الأعمال فى توليد وسلب الثروات
وبيان دور الدولة كأداة فى يد الأغنياء لقهر الفقراء .

- **الجزء الثالث :** بحـث تطبيقى معنى بفضـح ظاهرة زواج المتعـة بين الـ
والسلطـة فى مصر المعاصرة , وما يترتـب على ذلك من تهديد لأمنـــها ا
وتراجع دورها الريادى .



والباحث الدكتور محمد عبد السلام عويضة -
أستاذ الاقتصاد المتفرغ بكلية الزراعة جامعة المنصورة